القاهرة

تبوح بأسرارها

بقلم الكاتب المغربي :

عبد الكريم غلاب

دار الهلال

الغلاف للفنان

محمد أبو طالب

فى البدء كانت الكلمة

لا أدرى متى تعرفت إلى القاهرة ومتى تعرفت إلىّ . ولكن الذى أدريه أن أول كتاب وضع بين يدى كان مكتوبا على غلافه طبع فى القاهرة ، وأن أول صحيفة وضعت بين يدى كان مكتوبا على صفحتها الأولى صدرت عن القاهرة . قد يكون الكتاب القراءة الرشيدة أو النحو الواضح ، لا أدرى . وقد تكون الصحيفة الأهرام أو المقطم ، لا أدرى . ولكنى اندمجت فى الكتب فكانت كتب حساب ورياضيات ... ثم كانت كتاب كليلة ودمنة ونظرات وعبرات المنفلوطى ، لأقرأ فى أولهما حكايات السابقين وأقرأ فى ثانيهما حكايات اللاحقين ... واندمجت فى الصحف فأصبحت مجلات ، كانت من الأولى صحيفة «الفتح» و«الجهاد»، وكانت من الثانية مجلة الهلال والمقتطف . وأبحث فى الصفحة الأولى من هذه وتلك فأجد فى أبرزهما القاهرة .

من هنا كان منطلقها إلىّ ، وكان منطلقى إليها .

وأعترف أنها استلبتنى دون اتفاق ، ونافست «فاسا» التى أحببتها دون استئذان . وقد كنت أضيق بهذه الـ «فاس» حينما يشتد منها القيظ فتتكتم الأنفاس ، ولا مفر . أو حينما يقشعر الجسد من زمهرير شتائها ولا أمل فى دفء ولا رحمة فى نهار أو ليل . وألجأ إليها ، إلى القاهرة ،

حينما تنجلى سحب داكنة لتسمح لأشعة ذهبية تطل على استحياء فتجلل الحقول والوهاد والأودية ، ألتجىء إليها ، إلى القاهرة لأضعها بين يدى كتابا أو مجلة أو صحيفة تتحدث إلىّ هادئة هامسة ، أو صاخبة هادرة فتفور منى الدماء متحديا ، وتلتهب منى العاطفة فألعن الانجليز وأصرخ مع الجماهير التى صرخت هناك :

الويل للاستعمار ... وألجأ إليها حينما يدلهم الليل ويأوى كل آوٍ إلى غرفته يلتمس الدفء تحت ركام الأغطية والبطاطين . تحت سراج باهت أناجيها فاقرأ فى كتابها ، أناجى كتابها وقد بدأوا يفدون إلىّ المنفلوطى ممسكا بهم من أيديهم يقدمهم إلى فى احترام : هذا طه حسين ، معجزة المبصرين ... وفى هيئة الأستاذ المعلم يهدينى « على هامش السيرة »، حتى إذا قرأت أهدانى «أديب» ... وأسير معه خطوات فى الطريق . لا يكاد يمل من الإهداء ولا أكاد أمل من القراءة ...

ويهتف المنفلوطى وهو يقدم إلىّ أستاذا من طراز آخر :

– أتذكره ... ؟ يهتف بى .

– ما أنا بذاكر

– إنه الذى أطل عليك فى الهلال حصادا فاقرأ : حصاد هشيمه .

وأعرفه : إنه المازنى أحد أصحاب الديوان .

– لا تقرأ الديوان ، فأنت بعد يا بنى فتى غر . وأولئك حاولوا أن

يغرروا بالكثيرين وما نجحوا . فاقرأ إذن الشوقيات . واحفظ منها :

سلام من صبا بردى أرق — ودمع لا يكفكف يا دمشق

وللمستعمرين وإن ألانوا — قلوب كالحجارة لا ترق

وللحرية الحمراء باب — بكل يد مضرجة يدق

دون وعى نظرت فى يدى ، أهى مضرجة حتى يمكن أن تدق باب الحرية . ناعمة طفولية إن دقت بابا من خشب فلا أظنها قادرة بعد أن تدق باب الحرية .

وهذه هى الحرية التى يتحدث بها إلينا الاستاذ عبد العزيز والأستاذ أبو الشتاء فى مجلس الدرس ، وفى همس كأنهما يخشيان آلة تصنت قبل أن تكون لهذه الآلة السحرية مفعولها فى ضبط السياسيين والفضوليين من المتحدثين .

هذه هى الحرية التى نسمع الحديث عنها فى همس ، يتحدث عنها شوقى فى ضجة حافلة بالكلمات الضاربة كأنما يحتفل لها وهو يصوغ شعره الذى استعصى على أصحاب الديوان أن يهدموه .

وأخذت الشوقيات مكانها فى بيت الحكمة عندى . توافد على البيت أصدقاء جدد كان من أبرزهم شاب - ظننته فى الخمسين - كان يصاول ويناور ، يرضى زاوية النزق فى نفسى ، فى الوقت الذى يرضى جانب الذوق الرصين والبحث الجاد . سألت عنه فقيل لى : زكى مبارك .

الدكتور الذى لم يقنع بدكتوراه فأضاف إليها وأصبح «دكاتير» أقرأ له فيسحرنى بأسلوبه العذب . وأترك عذوبة حديثه السهل الممتنع فأتطلع إلى حديث أكثر جدية . ولست أدرى كيف وقع فى يدى كتابه «الأخلاق عند الغزالى» ولست أدرى أفهمت عنه شيئا أم لم أفهم ... فلم تكن عقدة الفهم تقف دونى والتعلق فى الكتب التى تجاوزت مستواه بكثير ، سواء كانت كتب فلسفة أو أدب أو دراسة عقلية . كان الجواز - المؤشر عليه - لهذه الكتب إلى يدى هو أنها طبعت فى مصر . وكان أحمد أمين آنذاك من رجال العلم الذين لم يكن لصاحب النظرات والعبرات أن يقوده من يده ليقدمه إلىّ. لم يكن آنذاك من كتاب المقالة - فيما عرفت - ولا هو من كتاب القصة والحكاية ، ولا من أصحاب الأساليب المغرية التى تدخل غرفتك دون استئذان ، ولكنه رجل علم ، يكتب الأبحاث العقلية والدراسات الأدبية والفلسفة حتى إذا علمت أنه كتب كتابا اسمه «فجر الإسلام » كان للاسم مكان السحر فى نفسى . وما أشك فى أن الكلمتين «الفجر» «الإسلام» كان لهما وقع فى إحساسى أكثر مما كان لموضوع الكتاب وقع فى عقلى . وما أشك فى أنى لم أفهم من الكتاب إلا أقله . ومع ذلك فقد كان لبعض ما يردده اتصال ببعض ما أقرأ آنذاك فى دروس التوحيد والفقه . كان يتحدث عن نشأة المذاهب وتطورها فى الإسلام ، ولم يكن حديثه غريبا على مسمعى ولا بعيدا عن نفسى بمقدار ما كان أعلى من مستوى إدراكى .

ومن القاهرة وفد على إحساسى صوتان سمعت أنهما جميلان . يتحدث الناس عن صاحبته وصاحبه كما لو كانوا يتحدثون عن أصوات الملائكة . ويزور الناس بعضهم بعضا ليستمتعوا إذا ما ظفر أحدهم بكراء حاك له بوق من نحاس يدار محركه باليد كما كانت تدار آلة الخياطة ، حتى إذا امتلأ ما بداخله ، ولا أدرى حتى الآن ما هو ، تحركت أسطوانته فتوضع عليها أسطوانة مماثلة ، وعلى الأسطوانة غناء مسجل يصدح به الصوت إذا ما وضعت عليه يد آلية متحركة تمسك بإبرة كأنها سن قلم ... كان الحاكى آلة سحرية لا ينسينى سحره إلا الصوت الأنثوى الجميل الذى يوصله إلى مسامعنا البوق الكبير . ومع صوت المغنية والمغنى آهات وزفرات ، تصدر عن هذا وذاك، عن هذه وتلك كما لو كانت من مستلزمات اللحن الجميل .

أم كلثوم تشدو :

وحقك أنت المنى والطلب   وأنت المراد وأنت الأرب

عبد الوهاب يشدو :

علموه كيف يجفو فجفا   ظالم لاقيت منه ما كفى

وتستمر بى الحياة مستلبا لحرف المطبعة كما لو كان به اغراء أو سحر . لم أكن أختاره بمقدار ما كان يختارنى . فأنا أقرأ ما أفهم وما يستعصى على فهمى . وقد خلقت ألوفا وعنودا . ألفت القراءة وعاندت

المستعصى منها . إذا كنت قد قرأت «الأخلاق» عند الغزالى ولم أفهم منه إلا القليل و «فجر الإسلام »ولم أفهم منه إلاّ بعض ما تحدث فيه عن الخوارج والمعتزلة وأهل السنة والشيعة ، فقد أخذت أقرأ عن مصر القديمة الفرعونية . فهذه القاهرة التى يبلغ عمرها ألف سنة مما نعد تجاور أهرام خوفو وتثوى على شاطىء «بحر النيل» الذى يصلها بمعابد توت عنخ آمون وتحتمس وحوريس والملوك الرعامسة والملك المؤمن اخناتون وأحمس ورمسيس . مصر إذن عريقة فى التاريخ الإنسانى . والقاهرة هى «الطبعة» الأخيرة من «منف» والجيزة وسقارة وأبو صير . ومعبد الكرنك والأقصر وطيبة .

القاهرة بتراثها الإسلامى ، بشعر شعرائها وأدب كتابها ، ستغرقنى فى مصر الكبرى التى امتدت بجانبى النيل ، من الشلال الأول حتى الدلتا ، لتكتب تاريخها طويلا حافلا بالأدب والشعر والتراتيل والنقوش والتماثيل والمعابد والملوك والملكات الجميلات .

مصر هذه التى يخلف فيها الإسلام عهود فرعون واليونان والرومان منذ فتحها عمرو بن العاص حتى برز فيها المفكران الإسلاميان اللذان طبق ذكرهما عالم الإسلام والعروبة فى عهد نهضته جمال الدين ومحمد عبده . فكتب الإسلام فى مصر صفحة ناصعة بالفكر والحضارة والإشعاع السياسى والعلمى . مصر هذه هى التى تقدمها القاهرة اليوم

كما قدمت طيبة مصر الأمس ، وكما قدمت الاسكندرية مصر ما بين الأمس واليوم .

ومن خلال المطبعة تعرفت على بعض مصر وعلى القاهرة عاصمة مصر . فكانت الجاذبية عن طريق الحرف والكلمة . وسكنت القاهرة فى خاطرى ، فى عقلى وقلبى .

لابد من القاهرة وإن طال السفر .

للمراهقة أحلامها .

وفى المدينة التى تضيق فيها الحياة وتحاصرها التقاليد ، وفى البيئة التى يتحدث الناس فيها عن المرأة بـ «هى» ويعتبر اسم السيدة عورة ، ولا يعرف الفتى من أوجه السيدات الغريبات إلا «أمى الطالبية» وقد تجاوز سنها المائة وخالتى «شامة» وقد نبت لها عارضان أشيبان ، فى هذه البيئة تكثر أحلام الفتيان المراهقين ... حتى السينما فى ذلك الزمان كانت مما لا يدخلها أبناء العائلات إلاّ خلسة . صوت أم كلثوم وهى تشدو :

ولى فيك يا هاجرى صبوة   تحير فى وصفها كل صب

كان وحده يحلم بأن عالما آخر ينتظره فيه الحرية التى تحدث عنها شوقى دون أن يحاكمه أحد ، وفيه أم كلثوم التي تتحدث عن الهجران والصب والصبوة دون أن توارى صوتها ، وفيه العمالقة الذين ورثوا

عن فرعون مصر عملاقيته ، ورثوا عنه أنفه الكبير وسمرته الداكنة ، وحكمته حينما يكتبها على الحجر فيكتبونها على الورق شعرا وقصصا وأبحاثا .

ولكن مصر بعيدة ، بعيدة . أخذت «الرسالة» تصلنى منها وقد قطعت البحر عشرة أيام وتسع ليالى . تصل لاهثة ، ولكنها باهرة . اسماء جديدة تنضاف إلى أولئك الذين قدمهم المنفلوطى . هذا «الزيات» يتصدر القائمة وكأنه عبد الحميد الكاتب تنقصه الوزارة والكتابة كما عرفها القرن الرابع . يكتب كما لو كان ينظم الشعر ، فيتخير الكلمة وينسق الجملة ويزن الفقرة . وأحسبه كان ينفق من الأسبوع أكثره وهو يبدع ، فيقدم رسالته إلى قرائه عن الأدب والفن والمجتمع شاعرا يشدو، معلما يعلمهم كيف يحترمون الحرف ويحبون الكلمة ويقدسون اللغة . ما أحسبه خلق لغير الكتابة الرومانسية . تعيش معه لحظات سعيدة سواء كتب فكرة أدبية أو وصفا لظاهرة اجتماعية أو مناجاة لمعابد الأقصر أو أهرامات الجيزة . كان عربى المنحى . عرف كيف يستقطب للرسالة شعراء من العراق فينشر للزهاوى والرصافى وكتابا وشعراء من سوريا فيقدم أنور العطار شاعرا وعلى الطنطاوى كاتبا ، ويردد ما لم ينشر من الشوقيات والحافظيات . ولكنه يقدم إلى جانب هؤلاء وأولئك باحثين فى الأدب والتاريخ متفتحا على آفاق ما كتب الفرنسيون والانجليز والألمان

هو محمد عبد الله عنان . ويختار من الأدباء إلى جانب الكثيرين : ابراهيم المازنى . وكان هذا الكاتب ، الذى يكتب المقالة كأنه يكتب قصة خفيف الروح ذكى القلب جيد الأسلوب سليم اللغة . أسلوبه القصصى حى ينقلك إلى الواقع ، كما لو كنت تتحدث إلى «ذات الثوب الأرجوانى» وتحيى معه حياة «ابراهيم الكاتب» ويعيدك إلى البدء فى كتابه «عود على بدء» . يسخر من الدنيا ومن الناس ، وشخصيته من الذين يسخر منهم. لا أدرى كيف صادق العقاد وكتب معه الديوان ، ولا كيف أحب عبد الرحمن شكرى ، هذا المتشائم الذى عاش بعيدا عن الحياة بمقدار ما كان المازنى قريبا منها ، وعاش فى شعره سوداوى القلب والروح بمقدار ما كان المازنى طافحا بالحب والمتعة . ولو كان غير ذلك لمات غما . فقد كان وهو الأديب الألمعى ، يعيش من قلمه بعد أن ضاق بالتدريس إلى الفتيان .. الشقاوى ، يكتب فى هذه الصحيفة وتلك ، قد لا يؤمن بما يكتب ، ولكنه كان ساخرا مما يكتب وعمن يكتب . مدح فى مقالة رئيس حكومة زعيما فى أعين الناس ، ولا يلبث أن يقول لزملائه فى الصحيفة أو جلاسه من أصدقائه فى المقهى : لو رأيته يمشى على أربع لما زدت استغرابا .

هذا الفيلسوف الساخر الذى ظلمه عصره ، وظلمه الذين جاءوا بعده فلم يعيدوا حتى نشر كتبه هو الذى كان لا يحفل بالحياة ولا بالناس وهو الذى كان يردد من شعره :

مات الفتى المازنى وأقبل من مازن غيره على الأثر

أتراه كان يؤمن بالتناسخ أو الاستنساخ أم إنه كان يؤمن بالخلود أم إنه لم يكن يؤمن بشىء ، وأعتقد أنه لم يكن يؤمن بشيء حتى بما يكتب . وقد قال لنا مرة وهو يبتسم ساخرا كما لو كان يضحك ، أو كان يضحك كما لو كان يبتسم : أنا الكاتب مثل النجار لو طلبت إليه أن يصنع لك عرشا لصنعه أو طلبت إليه أن يصنع تابوتا لصنعه ..

كان المازنى زهرة الرسالة وروح المرح فيها ، وقد كانت جادة إلى حد التخمة من افتتاحية الزيات إلى بريدها الأدبى . ومقالة المازنى محطة استراحة تستريح فيها من قصيدة النثر عند الزيات وبحث أحمد أمين ونقد طه حسين وفلسفة الزهاوى وسياسة عنان ..

هذه «الرسالة» طوت مسافة البعد بينى وبين مصر . تعرفت إلى الكثير عن مصر تاريخها العريق وماضيها الإسلامى الحافل وحاضرها المشرق . كنت أعيش معها أسبوعا ، أكاد أحفظ ما فيها من مقالات وقصص وقصائد . كنت أنتظر ساعي البريد فى الساعة واللحظة التى يمر فيها من يوم الثلاثاء فما تأخرت يوما ولا ماطلت . تجرأت وبعثت بعشرين فرنكا (قديما) فى ظرف رسالة مع طلب اشتراك . وظلت تصلنى بذلك سنوات حتى هاجرت ، وأحسبها ظلت تصل حتى حالت الحرب بينها وبين طريق البحر .

ولعل الرسالة فتحت أمامى طريقا آخر إلى مصر . وصلتنى بالبلد الذى أحببته على بعد . كان كل عدد منها يدعونى إلى أن أقتحم ما كنت أحسبه مخاطر فى الطريق إلى البلاد البعيدة البعيدة . ولكنها تفد كل أسبوع ، وفى كل أسبوع تزداد مصر منى قربا وأزداد . بدأت الفكرة تراودنى . وكنت أجيب على الفور :

– ولم لا ... ؟

ودون السؤال ألف سؤال يحتاج إلى ألف جواب .

* * *

وكانت الحادثة التى نقلتنى من حالة «القاصر» إلى الرشد .

كان ذلك وقد اتقدت عواطفنا حماسا للوطن . وبدأنا – نحن الثلة الصغيرة التى كنا نجتمع فى خلية وطنية – نفكر كما يفكر الكبار نقترب من أساتذتنا فى الوطنية فيخرج بنا الأستاذ عبد العزيز بن ادريس مثلا من خلية الدرس إلى خلية التكوين الوطنى . ونحضر درس الأستاذ أبى الشتاء الجامعى فيكون درسا فى الوطنية إلى جانب درس الأدب أو المنطق . ويعدنا بأن يصلنا بالأستاذ علال الفاسى ، الزعيم الذى لم أكن أعرف وجهه حتى إذا مررنا – أنا وزميل لى فى طريقنا إلى درس فى القرويين – بجانبه أسر إلى أننا مررنا بعلال الفاسى فى طريق متقاطعة. عدت أدراجى وأنا أتتبع إشارة الزميل لأتطلع إلى وجه الشاب

الذى ملأ الدنيا وشغل الناس ، ولم يكن بعد زعيما ولا أستاذا كبيرا . ولايزال الذين يقرءون الشعر والذين لا يقرءون يرددون من شعره :

أبعد مرور الخمس عشرة ألعب وألهو بلذات الحياة وأطرب

ولى أمة منكودة الحظ لم تجد سبيلا إلى العيش الذى تتطلب

سبقته بخطوات وعدت أدراجى ليبهرنى الوجه الشاب الصبوح فى جمال قسماته وبريق عينيه الزرقاوين وخطواته المتباعدة الثابتة وجدية ملامحه . لست أدرى كيف و قر فى ذهنى أنى سأكون تلميذا لهذا الأستاذ الكبير ، وأنى حينما أعد نفسى بذلك سأكون من الصادقين .

وكان وعد أستاذنا أبى الشتاء الجامعى صادقا . فقد كان والأستاذ عبد العزيز يخاطبانه فى هذه الثلة من التلاميذ الذين يعدانهم ليكونوا تلاميذه . وحل رمضان ، من هذه الرمضانات العديدة التى مرت بى فكان لقاؤنا مع علال فى درس بين العصر والمغرب حول كتاب «الأخلاق والواجبات» للشيخ عبد القادر المغربى . كان الكتاب – على عادة علال فى دروسه – مؤشرا للموضوعات السياسية والوطنية التى يطرقها فى دروسه . أخذنا بمنطق الرجل الذى كنا نتحلق حوله فيتحدث فى كل شىء يتعلق بالأخلاق والواجبات .

الضريبة التى يجب أن يدفعها العزاب الذين بلغوا سن الزواج رغبة فى تكثير النسل حتى لا يفكر المستوطنون فى يوم ما أن يكونوا أكثرية.

هى أيضا أخلاق وهى من الواجبات وبدأ الذين يؤخذون بعلمه وفصاحته وحديثه الذى كان يتدفق كأنه خطاب جماهيرى يتحلقون حولنا ولو لم يكونوا تلاميذ ولا هم فى سن التلاميذ أو الطلبة . أخذنا بالمجاهدة فى الدرس والقراءة . وعلمنا كيف نكتب . يختار موضوعا مما أشار إليه فى درسه ليطلب إلينا أن نعالجه كتابة . وتجرأ بعضنا فكتبوا شعرا قدموه إليه ليوجههم فيه .

بسرعة انتقلنا من الزاوية الفاسية إلى القرويين - اقتصر الدرس الأول على طلبته . وكان الدرس الثانى لجماهير الوافدين . لا ندرى كيف؟ توالت الدروس التى أصبحت حديث المجالس . ولكنها أصبحت أكثر من ذلك حديث الادارة الفرنسية التى رأت فيها مظاهرة وطنية يتحلق فيها المئات حول الرجل الذى يخطب كل يوم فى السياسة وهو يلقى درسا فى التاريخ .

صارع علال من خلال درسه اليومى ذاك فأصبحت الجماهير تهتف باسمه صامتة . تروى ما به تحدث دون أن تعرف الادارة أن الفكر الوطنى التمردى الثورى يخرج مرة أخرى من درس القرويين .

ومرت الأيام . نفى علال من أجل درسه ذاك وعاد بعد ستة أشهر ليقعد مقعده من الآلاف بدلا عن المئات . وعزمت الادارة على مقاومته مرة أخرى فرصدت له عيونا تسجل كل ما قاله ، حتى إذا ما تجاوز

حقه فى الحديث بالإسلام كانت التهمة ، وكانت المحاكمة . ولم يسجل الشهود (العدول) فيما يقول خروجا عن الدين ولا تمردا على الإسلام . واتجهت الادارة الفرنسية بعد ذلك إلي منطق السياسة بعد أن أعيتها الحيلة فى الوصول إليه عن (طريق الإسلام) .

وكانت المناسبة التجمع الوطنى الجماهيرى «كتلة العمل الوطنى» الذى قررت تنظيمه فى الدار البيضاء للتوعية بمطالب الشعب المغربى . فمنع الاجتماع واعتقل علال وصحبه .

هكذا كانت الثلة من طلبته على موعد للتضامن معه . وسارت المجموعة على رأس المظاهرة الوطنية . وكان مصيرنا جميعا السجن .

كان السجن مفتاح الرشد بالنسبة إلىّ . أصبحت رجلا فى نظر والدى ، وفي نظر العائلة ، وفى نظر الذين كانوا يعتبروننى فتى ، إذا استمع إليه فلا يؤخذ له برأى ، وإذا تحدث لا يحمل كلامه محمل الجد . وإن تعجب فعجب للمدينة المتقوقعة والعائلة المحافظة تغير نظرتها إلى السجن . كانت كلمة السجن نفسها جريمة . ولكنى ما أحسست بحرارة الاستقبال بين أحضان والدى يرحمه الله كما أحسست بها وأنا عائد من السجن . وتغيرت لهجة الخطاب ولغة الحديث ، قد رشدت .

ومع الرشد بدأت مطالبى تعبر عن نفسها بدقة ووضوح ، وفى غير خجل ولا استحياء مرت شهور قليلة هى التى تفصل بين الشتاء

والصيف ، وأطلقت الكلمة ليكون جوابها ابتسامة عذبة محايدة لا تعبر عن رضى ولا عن رفض .

– أرغب يا والدى ، فى أن أذهب إلى مصر لمواصلة دراستى

طموح لا يمكن أن يقابله الوالد الحنون المشفق المتطلع إلى أن يرى ابنه عالما في القرويين أو أستاذا فى مدرسة ، ألا برضى صميمى . فمصر فى الخاطر وفى القلب ، وهو الذى مر منها كما مر ببلاد الشام يوم حج بيت الله . وهو الذى يذكر منها أهراماتها وأزهرها وصوت أم كلثوم يتردد فى إذاعتها : شوارعها ومقاهيها وميادينها . وأجمل أصوات القارئين يرتلون القرآن فى الشارع والمقهى والفندق والبيت والمسجد .

وأذكر أن أحد أصدقائه تجرأ ، وهو يحكى عن رحلته ، فسأله ، وإحدى عينيه تبتسم ، فقد كان حَوَلُه واضحا :

– أهى جميلة آعمى الحاج ؟

وأحرج الوالد بالسؤال فى حضورى فأشار إلىّ : أن أنسحب . انسحبت وما أدرى أجاب بالنفى أو بالإيجاب .

كانت الابتسامة جوابا فسرته ايجابيا . ولكنى كعادتى معه ، أو كعادته معى ، حين يترك الموضوع معلقا فإن الجانب الايجابى منه أقوى من الجانب السلبى . ولم أكن أحب أن ألح حتى لا يكون الالحاح مدعاة إلى عناد . كنت أعرف أن فكره شغل بالموضوع ، وأنه سيتخذ قرارا يحتاج إلى بعض الوقت للإعلان عنه . فهو ، ككل الآباء فى المدينة المقفلة

والعائلة المحافظة ، لا يمكن أن يتخذ قرارا متسرعا بفراق ابنه ، صغير السن ضعيف الحيلة قليل الخبرة ، ويتركه إلى هجرة قد تطول فى مدينة قاهرة ، لا يدرى مع ذلك : «أسينجح فى اقتحام أسرارها وأغوارها أم سيفشل ويعود ، فلا هو فى القرويين ولا هو في مدارس مصر أو جامعتها .

المستشارون كثيرون . وأحسب أن أغلبهم حذره من أن يغامر بابنه فيركبه البحر بأهواله وخطورة مركبه . وسيقول آخرون :

- ومن أين لك وستكلفك دراسته ما تنوء بحمله .

وسيتمنى آخرون أن لو كان الطلب من ابنهم والاستجابة منهم . ولكنه ، يرحمه الله ، كان يزن القرار قبل أن يتخذه . ويحسب ألف حساب ، ولكنه لا يتردد إن اقتنع .

واستشار صهرا له قريبا من الأسرة ، وكان من الذين هاجروا للتجارة وعرف الغربة فاستهان بها ، فكان جوابه الكلمة الفاصلة :

- الوضع السياسى يزداد سوءاً . الفرنسيون عازمون على الانتقام . ابنك من الذين وضع اسمهم فى القائمة السوداء ..

وأحسب أن تفكيرا عميقا استغرق الوالد وهو يستمع إلى تحليل المستشار . ويضيف قائلا فيما حكى لى :

- ... ولأن يكون ابنك فى مصر وفى الجامعة خير من أن يقضى

نفس المدة فى السجن .

وكان القرار دون تردد فوجئت به وهو يسألنى دون مقدمة :

– ومتى ستسافر .. ؟

وبدأت اتعرف على القاهرة أكثر من ذى قبل وأنا أقرأ فى تاريخ الحملة الفرنسية على مصر . كان حى «امبابة» وبولاق فى مقدمة الأحياء التي رسبت فى ذاكرتى والقوة الفرنسية تهاجم امبابة فيتخلى عنها المماليك إلى بولاق على الضفة المقابلة للنيل . كلمتا امبابة وبولاق ارتبطتا بمعركة مصيرية فى مصر وهى تتعرض للاحتلال . وكانت الأهرام أكثر الأسماء سبقا إلى الذاكرة . فالأهرام هى مصر جميعا عند من قرأ تاريخ مصر الفرعونية وعند من سمع عن مصر التى يزورها الزائرون فتبقى والأزهر فى الذاكرة لا تنسى . واسمع عن الأهرام فى السن التى تذكر قبل السن التى تقرأ فأكاد أخلط بين اسم مصر واسم الأهرام لتعودا إلى الذاكرة القارئة مع خوفو وبقية الآلهة والآلهات ومع أبى الهول لا يزال متربعا فى جلسته الأبدية وبأنفه الأفطس يحمى بهوله الأهرامات الثلاثة ، و لاتزال الأسطورة ترسب فى الذاكرة أن أنفه الجميل أثار حنق نابليون فأرسل عليه شواظا من حميم لم ينل منه غير أنفه .

التاريخ الإنسانى فيما قرأنا يبدأ من مصر ، وتاريخ مصر يبدأ من الفراعنة ، وتاريخ الفراعنة يختفى منه الحكم والسلطة والديانة وفلسفة

الحياة والموت وعبادة آمون وتوحيد أخناتون وجمال الإلهات أو زوجات الآلهة الفاتنات وعرائس النيل الضحيات ، ليتجمع كله عند الذاكرة القارئة فى الأهرام الثلاثة ، كما ترسمها الصور ، غافلة عن أهرامات أخرى فى أماكن أثرية من مصر .

الذاكرة القارئة لا تنسى الأهرام وإن أغفلت عنها ، منصرفة عن تاريخ مصر الفرعونى وتاريخ القاهرة النضالى والشعب فيها يواجه الحملة الفرنسية . تعود إلى الذاكرة كل صباح مع عميدة الصحف العربية وأعداد منها تتسرب إلى المغرب فتكون من أولى ما نقرأ فى نهمنا لقراءة كل ما يفد من كتب مصر ومجلاتها وصحفها .

علم آخر من أعلام القاهرة رسب فى الذاكرة القارئة : المقطم : ونسمع عن جبل المقطم فيقترن فى خيالنا بجبل «زلاغ» المشرف على فاس يظلها بأشجاره السامقة وغاباته الكثيفة وعيونه الثرة وهوائه العليل . ومقطم القاهرة لن يكون فى خيالنا زلاغ فاس . فهو أطلس من أطالس مصر علواً وسعة وغنى بالأشجار السامقة والرياحين الطيبة العابقة . هكذا كان الخيال يرسم صورة المقطم فى الذاكرة . وحينما كنت أسمع عن صحيفة اسمها «المقطم» كان يخيل إلىّ أن مجد المقطم لا يقل عن مجد الأهرام ، ولو أنى لم أعثر على ذاكرته فيما خلف الفراعنة الخالدون من آثار على أرض مصر شمالها وجنوبها .

والذاكرة القارئة تقرن القاهرة ببناتها الفاطميين الذين حاولوا أن ينشئوا دولة فى بلاد المغرب فاستعصت عليهم بعد أن اسهموا فى القضاء على كل الدول الصغيرة الناشئة : الدول الخارجية : بنى مدار فى جنوب المغرب وبنى رستم فى غرب الجزائر ، وناجزوا الأدارسة بناة فاس والحضارة العربية الإسلامية فى المغرب ، محاولة للقضاء على حضارتهم وحكمهم ليحكموا تحت راية مذهبهم الإسماعيلى . وقضوا على دولة الأغالبة فى تونس ولكنهم ، وقد عرفوا بتقلب أفكارهم عادوا بتفكيرهم الحكمى المذهبى العسكرى إلى منشئه وهو القضاء على الخلافة العباسية وإرث سلطانها ، وجدوا أنهم فى المغرب ابتعدوا عن مركز الخلافة ، ولو كتب لهم أن ينشئوا دولة قوية على انقاض الدول الإسلامية فى المغرب العربى لابتعدوا عن حلمهم فى السيطرة على العالم الإسلامى من بغداد . لهذا رحلوا إلى مصر بعد أن وقف فى وجههم سلطان الأدارسة من جهة وقوة المذهب السنى ، وقد انتهى الخوارج ومذهبهم ، وتشبث السكان العرب والبربر بالإسلام السنى وعزوفهم عن بعض الانحرافات المذهبية والسلوكية عند الحكام الفاطميين ، وبعد أن طال عهدهم بالحروب التى لم تتح لهم السيطرة المطلقة على المنطقة الشاسعة المنيعة بسلسلة جبالها الأطلسية . رحلوا إلى مصر ، البلاد التى فتحها عمرو بن العاص ، والتى يعترف لها

التاريخ بالريادة ، وتعترف لها الجغرافية بالانبساط وفضل الماء ماء النيل العظيم ، والبلاد المتوسطة التى تجعلهم أقرب إلى مركز الخلافة – مطمعهم الأسمى – من بلاد المغرب المتناهية فى البعد العسيرة الهضم، والتى كلفت الكثير دون أن يقيموا فيها دولة قارة أو سلطانا عظيما يقضى على سلطة الأمويين فى قرطبة وبقايا الأدارسة من فاس حتى تلمسان ، ومنها يقفزون إلى مركز الخلافة فى بغداد .

وتذكر الذاكرة القارئة أسماء رجال كما تذكر أسماء مواقع ومعالم. المعز لدين الله وجوهر الصقلى . العبد الأسود الذى نفذت جميع حيله وكل دهائه فى المغرب يقترنان بالقاهرة ، حتى إن ذاكرة التاريخ قرنتها بوصف المعزية .

ونبحث فى عمق الذاكرة القارئة عن قلب القاهرة فنجد الأزهر . لست أدرى لم اقترن الأزهر بالقرويين ؟ منذ تفتح الوعى وأنا على مشارف الدراسة فى القرويين اقترنت الجامعتان القديمتان فى فكرى ، وقد خلدتا اسم فاس واسم القاهرة . الفاسية منهما (القرويين) كانت أقدم جامعة إسلامية (بنيت سنة ٢٤٥ هـ – ٨٥٩م) والقاهرية منهما كانت الأخت الكبرى ولو أنها اصغر سنا (بنيت سنة ٣٥٩ هـ – ٩٧٠م) من قلبهما معا ازهرت الحضارة الفكرية الإسلامية وحافظ الإسلام على وجوده فى شرق العالم الإسلامى وفى غربه ، رغم إعصارات الحروب

الصليبية والغزو الاستعمارى ولا يذكر الأزهر دون أن يذكر مقام الحسين كعتبة مقدسة لا يزال الناس يقصدونه لذكرى التاريخ الأسود ، وللتبرك بالمقام الشريف .

ذاكرة التاريخ احتفظت باسم المعز لدين واسم جوهر الصقلي لأنهما أنشآ القاهرة والأزهر فى قلب القاهرة .

نسيت ذاكرة التاريخ مخاريق الفاطميين ونزواتهم لأنهم قدموا بين أيديهم أعظم هدية للتاريخ العربى الإسلامى : القاهرة والأزهر .

الذاكرة القارئة احتفظت بمواقع سجلها التاريخ فى مقاومة الاحتلال الفرنسى : بولاق - عين شمس - الحسينية ، ولكنها احتفظت بمعالم كبرى لا تذكر القاهرة دون أن تقفز بعظمتها إلى الذاكرة : النيل القاهرى - فيما كان يخيل إلينا - ينبع من القاهرة ويصب فى القاهرة. لم نستشر الجغرافية ، فالقاهرة هى مصر . والنيل لن يكون «البحر» الزاهر المشرق تحت أشعة الشمس اللألأ ، تحت ضياء القمر المنير ، المنساب فى بهائه وجلاله وخلوده إلاّ فى القاهرة . نقرأ عنه فى إبداعات القصاصين والكاتبين ونطرب للأغانى يشدو بها عبد الوهاب وأم كلثوم فيحدونا الشوق إلى قاهرة النيل ونيل القاهرة .

ونقرأ عن القاهرة فتطفو إلى الذاكرة «القلعة» التى انشأها صلاح الدين الأيوبى ليدافع منها عن القاهرة الكبرى التى كان له فضل

تجديدها وتوحيدها . وتبقى القلعة حية فى تاريخ القاهرة معلما بارزا من معالمها. ويتجدد اسم القلعة والاهتمام بها مع المنشآت التى أنشأها محمد على : المسجد الكبير الجيل الذى لا يزال يحمل اسمه ، والقصر الذى بناه على أنقاض قصور الحكام السابقين .

وتدخل القاهرة عصر تطورها فتتذكر معها : دار الأوبرا ، دار الكتب، المتحف المصرى ، المتحف الإسلامى ، مسجد الرفاعى ، مسجد الشافعى . ثم الجامعة أعظم معلمة للعلم والثقافة شهدتها القاهرة بقاعتها الكبرى وقبتها السامقة وكلياتها ومدرجاتها وحدائقها ، وساحتها الكبرى التى شهدت مشاهد من تاريخ مصر الحديث : العلمى والسياسى على السواء . ولا تذكر القاهرة دون أن تذكر بناية البرلمان بقبته السامقة ، وما كان يصل إلينا من أصداء المناقشات الساخنة وخطب الخطباء التى كانت بلاغتها تتفوق على مضامينها .

هكذا تعرفت على القاهرة من بعيد فكانت كل هذه المعالم تزيد فى شوقى إليها حمية وحماساً لأعانق كل هذه المعالم ، لأجوس خلال زقاقاتها وشوارعها لأنعم بعظمتها وجمالها ، لأقرأ التاريخ فيها ، ليس قراءة حروف وأرقام ، ولكن قراءة مشاهدة ومعاينة .

ميدان باب الحديد لم يكن هو القاهرة كما يتراءى للغريب الذى يلفظه القطار من الصعيد أو من الاسكندرية ، كانت شرائح القاهرة

ومصر جميعها الإجتماعية تتجمع فى باب الحديد مقبلة على القاهرة أو مدبرة عنها ، مقبلة على «مصر الجديدة» «هليوبوليس» أو مخترقة الميدان إلى شبرا ومصر القديمة . فضول الإطلاع يقودك إلى أجمل ميادينها : ميدان محمد على أو الأوبرا ، حيث تثوى فيه أجمل دار أوبرا للفن المسرحى الراقى ، ويتفرع بك الطريق إلى العتبة ، ميدان آخر يتجمع فيه سكان القاهرة مختلفين إلى الأزهر ومقام الحسين ، وشوارع وحارات القاهرة كما تركها التاريخ فى خان الخليلى والحارات المجاورة. لكى تفهم بعض روايات نجيب محفوظ ، أنت مدعو لزيارة هذه المعالم إلى الشوارع التى قطنها المغاربة وتاجروا فيها ، وتركوا جزءاً من حضارتهم وتقاليدهم القديمة ، حتى الكسكسى والشاى الأخضر بالنعناع لا يزال يحدثك عن آل التازى وبراده والمغربى بعضهم لا يزال يحتذى البلغة ويلبس الجلباب ويعتم بعمامة مغربية تحسبه جاء من فاس ساعته .. ميدان الأوبرا الجديد ينقلك إلى شارع (٢٣ يوليو) حيث تثوى أجمل دار عدل (محكمة الاستئناف) أشهد أنى شعرت وأنا أتطلع إليها كما لو كنت أشهد العدل ينطلق من كفتى الميزان المنقوش وسط أعمدتها السامقة . من ميدان طلعت حرب إلى ميدان الاسماعيلية إلى القصر العينى حيث كلية الطب التاريخية التى كان خريجوها يرفعون اسم مصر فى الطب ، كما كان خريجو مدرسة القضاء يرفعون اسم مصر

فى العدل ... قريبا من قصر العينى تدخل حيا هادئا (كان) تتربع فيه قبة هائلة هى قبة البرلمان تحيط بها وقريبا منها بنايات الحكومة . كل وزارات الدولة تجمعت هناك تحاول أن تقترب من ميدان عابدين حيث القصر الذى عرف مجد ملوك اسرة محمد على ، حيث عرف فاروق مجده وشعبيته وحفلات عرسه وافراحه ، ثم سخائم سياسته وانقلاباته وسهراته واضطراب حياته . القصر الذى كان تؤمه جماهير الشعب فى ليالى رمضان لتستمع إلى أجود المقرئين يرتلون القرآن الكريم ، والذى عرفت رحابه حفلات إفطار يقيمها الملك لنخبة من الضيوف من المسلمين يباركها الملك بتناول جرعة من «قمر الدين» ويرأسها أحمد حسنين باشا أشهر «حاكم قصر ملكى» فى تاريخ مصر ، القصر الذى عرف حصارين عسكريين فى الشام فترات من عهد فاروق : حينما حاصرته الدبابات الانجليزية ليلة ٤ فبراير ، وليلة ٢٣ حينما حاصرته دبابات الجيش المصرى ترفض حكمه بإعلان الثورة . وظل قصر عابدين قصر الأساطير وليالى ألف ليلة وليلة ، وقصر التقلبات السياسية حتى أصبح أخيرا مجمع مكاتب إدارية عادية لو عاد إليه فاروق أو فريدة أو ناريمان لأنكروه .

القاهرة أيضا عرفتها قبل أن اراها من خلال أساتذة كبار قرأت لهم تعرفت عليهم من صورهم . كتاباتهم اقترنت بوعيى الثقافى . قرأت

كل ما وصل إلى يدى من كتبهم ومقالاتهم دون اختيار . كان فى المقدمة طه حسين وأحمد أمين وأحمد حسن الزيات وعباس محمود العقاد وعبد القادر المازنى ومحمد عبد الله عنان وأمين الخولى ومصطفى عبد الرازق وزكى مبارك ... كان كل كتاب المقتطف والهلال والرسالة اصدقاء أعايشهم شهريا واسبوعيا . أعود إليهم كلما فرغت من درس لأتزود من علمهم واتمتع بأسلوبهم وأفتح نافذة فكرى على منهجهم فى التفكير والدرس والتعبير .

كانوا جميعا يمثلون لى القاهرة التى احتلت مكانها فى القلب والفكر على السواء . كانوا معالم من معالمها وتراثا من تراثها . لا أذكر القاهرة إلا وتقفز إلى فكرى بكل هذا التراث الحضارى والعلمى والإنسانى .

وليلة دخلت القاهرة حسبتنى عانقت كل هذا التراث الضخم ، حسبتنى اسبح فى هذا الفضاء الفسيح الذى يبدأ من عهد الأهرام ليقف عند باب الجامعة .

عرفت بعد ذلك ، وأنا اذكر تلك الليلة ، لماذا اسرتنى القاهرة إحدى عشرة سنة هى أزهر سنوات عمرى ، ولو أطعت هواها وأطاعت حبى وهواى لكانت مستقرى بقية حياتى .

راقصة على سطح بحر هائج مائج

أن تسافر فى ذلك الزمـان ، الى بلاد بعيدة هى مصر ، يحسن أن تقطع المغرب الى الجزائر على مراحل ، وأن تنتظر فى وهران الباخرة التى تقلك الى مرسيليا ، وأن تنتظر فى مرسيليا ، أسبوعا أو أسبوعين الباخرة المصرية التى تقلك الى الإسكندرية ، وأن تأخذ قطار الإسكندرية الى القاهرة . ولا تقل الرحلة إذا كانت موقوتة بدقة عن أسبوعين .

فى باب المنزل وهو يودعنى . والوالدة بقلبها المتحرق شوقا وحنانا ، دموعها فى محجريها دون أن تنبس بغير قبلة حرى على الخد وأخرى على الجبين . فى محفل هائل من أفراد العائلة رجالها ونسائها ومن الأصدقاء المودعين . هتف والابتسامة المحببة تعلو جبينه :

– أن أكتب على الجدار بأصبعك مرتين أو ثلاثا : إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد .

وكتبت وتلوت سرا فقد كانت الآية مما حفظت من القرآن الكريم.

– وعلى رصيف محطة القطار ودعنى دون أن ينبس . كان رحمه الله لا يتكلم كثيرا . يصبر ، ولو على مضض ، ولا يظهر ضعفا . قلبه كان يتحدث بالشوق والخوف والأمل . لأول مرة يفارق ابنا من أبنائه

الى بعيد . ورغم أنه كان قد خبر السفر والغربة ، فقد كان يعرف أن حيلتى ضعيفة وأنى لا أحتمل البعاد ولا أستطيع أن أدبر شئونى بنفسى . ولكنه كان يعرف أن ثلة من الأصدقاء الزملاء التحق بعضهم بالقاهرة وسيلتحق أخرون سنكون جميعا عونا على مشاكل الحياة الجديدة التى ستواجهنا.

لم تكن عاطفة الأبوة وحدها تدفعه الى هذا الاشفاق ، فقد كان يدرك أنى لا أعرف من شئون الحياة الا ما يعرفه فتى ظل يعتمد فى شئون حياته على والديه . ولم تكن مشكلتى الأولى حينما حط بى القطار صباح اليوم التالى فى وجدة ، فقد دبرت شئونى وبحثت عن موقف الحافلات التى تنقل المسافرين إلى وهران . ولكن المشاكل بدأت وقد ودعت الحافلة باب وجدة لتقف ، على بعد ميلين ، على «الحدود» مع الجزائر . ووقفت الشرطة ورجال الجمارك يراجعون جوازات السفر ، ويفتشون الراكبين وما يحملون . والحديث يومئذ بالفرنسية . ولا أعرف منها كلمة . وكنت أحمل فيما يحمله المسافر علبة «خليع» ولعلها الكلمة التى تستعصى على الترجمة فى كلّ اللغات . حرت كيف أشرح الخليع وحار المفتشون الفرنسيون كيف يفهمون عنى . وأسهل وسيلة للفهم هى أن يردونى من حيث أتيت . ذهبت الحافلة وبقيت .

لا أدرى كيف تدبرت أمرى وعدت الى وجدة ، وقد بدأت القاهرة تبتعد عني وتبتعد ، ولم أتخط بعد حدود المغرب .. أأعود الى فاس لأن الخليع - هذا اللحم المقدد الملعون - يحول بيني وبين السفر ؟ ولم يخطر ببالي قط أن أترك الخليع وأنجو بجلدى من مفتشي الشرطة والجمارك . حملت ثقلي وركبت حافلة عائدة الى وجدة . هناك أخذت أبحث عن صديق للعائلة معروف عنه أنه قوى الاتصال بالجمارك يتحدث الفرنسية ويعرف كيف يتحدث لرجال الجمارك الفرنسيين باللغة التى يفهمونها حينما يصدر ويستورد .. حمل الرجل جسمه الثقيل ، فقد كان أقصر الرجال وأثقلهم وزنا ، ولكنه أخفهم روحا وأجرأهم على كسب الأصدقاء من الفرنسيين والمغاربة على السواء ، حمل جسمه الضخم وانتقلنا فى سيارة أجرة الى الحدود مرة أخرى . ولم يضف على أن ألقى بكلمات متدفقة فى وجه ضابط الجمارك ، لعله كان يشرح فيها معنى الخليع . وضرب بكفه على كتف صاحبه . وهو يشير اليّ أن أنتظر الحافلة القادمة التى قد تأتى ، وقد لا تأتي ، فستصل بك الى وهران .

وكان يوما مشهودا من الانتظار والسفر والتوقف ، والحافلة المهترئة التي تنفث دخانها داخل غرفة الركاب والبدويين الذين تلتقطهم من الطريق والقرى يركبون وينزلون بعد بضعة أميال ، والحديث الفظ والرائحة الكريهة والاختناق والقيء .. والجوع .. وأظلم اليوم الطويل ولا تزال وهران بعيدة عنا ..

لم أكن أدرى أسأجد من ينتظرنى فى محطة الحافلة أم أن الذين كان يفترض أن ينتظروا قد ناموا ..

كان صبرهم طويلا ، فقد ذهبوا وعادوا فانتظروا كل وقت يمكن أن تصل فيه حافلة .. وأهلت وهران أخيرا بليلها البهيم وأنوارها الخافتة وبؤسها البئيس ، ورائحتها التى يمتزج فيها البحر بالنفايات والنظافة بالقاذورات . وانتهى عندها يوم طوله أربع وعشرون ساعة . كان مقدمة غير مبشرة لسنوات طويلات تحتضننى فيها القاهرة . ولا تزال المدينة الساحرة بعيدة بعيدة كما لو كانت فى المريخ .



يومان ووجدتنى وحيدا على ظهر باخرة اسمها أيضا مدينة وهران . لا أدرى أأخذت اسمها من ماضيها القديم أم من جديدها المتجدد .

الشيخ قريبى الذى ودعنى على سلم الباخرة تعرف على شابين جزائريين أوصاهما بى خيرا فى المدة القليلة التى سنقضيها على ظهر الباخرة التى تمخر بنا عرض المتوسط الى مدينة مرسيليا . ست وثلاثون ساعة فوق أمواج البحر . ما أدرى ما ركوب البحر ، ولكنى لم أتوقع أن يكون أقل شقاء من ركوب الحافلة بين وجدة ووهران .

لم مرسيليا ونحن نشرق لا نصاعد شمالا ؟

لأن طريق أفريقيا يمر من أوروبا . ولأن الخط المستقيم لم يعد هو الأقرب مسافة بين نقطتين . فمنذ أن زحفت أوروبا على افريقيا حولت

المعادلة فأصبحت : أقرب خط بين نقطتين الخط المنعرج شمالا . وبعد ذلك يمكن أن يوصل أو لا يوصل .

فى الطريق الى الباخرة أكد لى الشيخ الذى صحبنى أنى سأحجز تذكرة في الدرجة الرابعة ، وسيكون مكانى على ظهر الباخرة . وعلىَّ إن أردت الجلوس أن أؤجر مقعدا للاستلقاء أقضى عليه ليلتى . وهو وطائى ، أما غطائى فسماء البحر الأبيض ، بنجومها المتلألئة وزرقتها البهية وصفائها اللامع . وقد يكون القمر أنيسى إن كنت من الشعراء .. ثم همس فى أذنى :

– لا تخش شيئا . المسافة قريبة . ومعظم الركاب الجزائريين يتنقلون على ظهر الباخرة لا فى عنابرها أو بيوتها . ثم – وهذه وصية أخيرة – هناك بحارون غرفهم بثمن بخس . وسيتقدمون إليك يعرضون عليك سرا ، أن تستأجر منهم الغرفة . فإذا كان سعرها معتدلا فلا تتأخر .

ساعدنى الشبان الجزائريان فى ترجمة ما يتحدث به البحار الذى بدا وكأنه قدم توه من الشمال . أشقر الشعر الى درجة البياض المائل الى صفرة باهتة . أحمر الوجه أزرق العينين ، حمرة ادمان – ربما – انتفاخ فى العينين الجميلتين من إدمان ، ربما يطفح وجهه بالعافية والنعمة رغم سنه التى بدت لى فى حدود الستين . لا يشير وجهه الجميل

الى ما عرف عن البحارين من قسوة وشقاء . لم أكتم نفسى أنى خفت أن أحتل غرفة مفروض أن يحتلها بحار . العملية فيها نوع من الارتشاء وقد يضبطنى مفتش الباخرة وقد دفعت مالا لأحد خدامها .. وخفت من الرجل نفسه . فقد يسرق ما معى من مال وهو كل عدتى فى الطريق الطويلة الى مصر . وقد ...

أفضيت بمخاوفى الى الشابين الجزائريين فبددا ارتيابى بكلمات مشجعة ، وما أدرى ما إذا كانا متأكدين مما قالا . وتبعت الرجل في دهاليز الباخرة ومدارجها ، وكان يشير إلىّ - ونحن فى طريقنا الى الغرفة وسبابته على شفتيه : أن أصمت ولا تتحدث لأحد بشىء ، أو هكذا فهمت . ازددت يقينا بأنى أقوم بعمل مخالف للقانون ، وأنى أعرض نفسى لعقاب إن أنا اكتشفت فى غرفة بحار . امتلأت رعبا ، ولكنى كنت فى طريق اللاعودة . أسلمت أمرى الى البحار وسرت فى أثره حتى فتح الغرفة فدخلتها . تركنى وخرج ثم أقفل الباب - غرفة جميلة مؤثثة نظيفة مجهزة بمغسل وفوطة نظيفة وسرير مريح . دخلتها والوقت عصرا . معى كتاب أو مجلة لا أدرى . ما لبثت أن غرقت في نوم عميق . وكل الذى ذكرته حينما استيقظت بعد أربع وعشرين ساعة أن البحار أيقظنى مرتين أو ثلاثا يحاول أن يقدم لى فنجان شاى . كنت أرفض فى احتجاج ، ثم أغرق فى النوم .

يبدو أن الرجل كان أكثر خوفا منى . فقد أجر لى غرفته لأقضى ليلتى ولكنى قضيت نهارى مع ليلتى . ولعله أن تخضع الغرفة لمراقبة . ولكنه لم يستطع أن يحملنى على اليقظة وبى من الدوار ما لم يكن نعاسا ولا نوما .

خرجت من غرفتى - أعنى غرفة البحار - أخذت طريقى الى سطح الباخرة ، وأنا أتسلل بين الدهاليز والمدارج . حتى إذا صعدت ظهرها رأيت مالم أكن أتوقع : وجوه القوم صفراء فاقعة ألوانها ، عيونهم غائرة من شدة التعب ، ثيابهم ملوثة مبلولة .. تغمر أرضية السطح برك من مقىء قذرة . بحثت عن رفيقى الرحلة فإذا بهما مستلقيان على كرسيهما . فتحا أعينهما على وجهى فى دهشة وكأنما وجدا صديقا كان ضائعا . يبدو أن خوفى من مصيرى مع البحار الغريب انتقل اليهما بعد أن افتقدانى فى ليلة ونصف يوم . لم يكن لهما وقت للتفكير فىّ ، وقد غابا عن الوجود من دوار البحر . والخوف من الغرق . يبدو أن وجودى بينهما ذكرهما بالأمانة التى تحملاها على ميناء وهران .. وهتفا بى :

- أين أنت ؟

قصصت قصتى . فقالا :

- وقد أنقذك الله . كانت ليلة ليلاء لم نجد فيها طعما للراحة . كان البحر هائجا مائجا . جن جنونه فصمم على أن يرمى بالباخرة الى

قرلر. قاومت فترنحت وضحكت صاخبة راقصة من جنون أمواجه . كنا فى مهب الريح . والركاب جميعهم منبطحون على وجوههم يقيئون ما أكلوا وما لم يأكلوا .. ألم تشعر بشىء ؟

كدت أظن بقولهما الظنون ، لولا أن حالة الركاب جميعهم كانت تحدث بالذى كان .

وتهادت مرسيليا قادمة أمامنا يغرب عنها شمس سبتمبر . أضواؤها تشرق من بعيد كما لو كانت نجوما خافتة تكافح الظلام الزاحف . على الرصيف كان عمى ينتظرنى لأقضى معه ليلة . ثم الى باريس .

– ولم نصاعد شمالا ووجهتنا شرقا ؟.

– الباخرة المصرية «كوثر» ستصل بعد عشرة أيام ، يحسن أن ننتظرها فى باريس ، وسنعود الى مرسيليا يوم وصولها .

لا قيمة للزمن . وكأن الباخرة «كوثر» الوحيدة التى تقطع البحر الأبيض بين شماله وجنوبه . ثم هى فرصة لأرى باريس ، مدينة النور التى قرأت عنها فيما تحدث طه حسين ومحمد الصاوى وتوفيق الحكيم.. المدينة التى تذكر فى افريقيا كعاصمة الامبراطورية . منها تأتى الحكمة، ومنها يأتى الحكم .. زرت متحف اللوفر ، وقصر فرساى ، وبرج ايفل ، ورابع عجائب باريس : سوق الأشياء القديمة . كان دليلى

الى بعض ما زرت شابا جزائريا يعمل مع عمى فى رواق المغرب بالمعرض الدولى لا يعرف العربية الا كما يعرفها شاب خرج طفلا من قريته ، لا يعرف من الفرنسية الا ما يعرفه عامل تائه بين مراكز العمل التافه . لم يدخل مدرسة ولا كتابا . ومع ذلك يعيش فى باريس . وكان دليلى الى سوق القديم شيخا مغربيا فى حدود الستين بعمامته وسلهامه، لا تهدأ سبابته وإبهامه أن يمتدا بالنشوق الى أنفه ، يتحدث بكلمات فرنسية تثير الضحك من الفرنسيين ، ولكنه يتمتع بحريته فى الحديث والمساومة . قضينا يوما الى عصره فى السوق نتجول ويساوم. يبدو أنه كان مغرما بالقديم من كل الأشياء . ما أظنه اشترى شيئا أو امتدت يده الى جيبه .. عدنا من حيث أتينا . كان السوق لى متعة ذكرنى فى «المركطان» بفاس ، ولكنه كان مركطان باريس .

الرواق المغربى فى المعرض الدولى كان سوقا مغربية فيها المغاربة كما لو كانوا فى «الجوطية» أو «سوق الغزل» يلبسون ملابسهم أو نصفها، كل جماعة تحتل دكانا . السوق جميعها زرابى مبثوثة أو مصنوعات جلدية رائقة . ساحة مربعة تحيط بها الدكاكين ، وكأنها دكان واحدة ، فما تفترق بضاعة هذه عن تلك ، ومع ذلك جميعهم يبيعون كلما اكتظت السوق بزوارها فى كل مساء . يتاجرون كما لو كانوا فى أسواق فاس ، أو مراكش أو مكناس . يستخدم كل منهم لغته

المتعثرة فى الإلحاح على الزوار والزائرات ، حتى إذا استجاب فدخل أو دخلا الدكان لا يمكن أن يخرجا الا وفى يدهما «زربية» أو «سطرمية» أو «بسطام» .. الالحاح هو اللغة التى يتعامل بها التجار . ويبدو الالحاح لدى الزائر الفرنسى أو الانجليزى أو الالمانى تكريما فلا يغادر دون أن يشترى .. ويبدأ الصراع فى آخر الليل بين الشركاء : لماذا كان دخل اليوم أقل من دخل الأمس ..؟ لماذا لم تبع الزربية لتلك السيدة مع أن ربحها ضعف ثمنها ؟.. لماذا تغيبت ساعة وبعض ساعة مغربيا وهو وقت نشاط السوق ؟.. وتستمر الاتهامات والمؤاخذات ليعودوا بعد صراخ القول أصدقاء كما بدأوا .

فى السوق المغربية التقيت بأحمد بلافريج . كان قد انتقل الى باريس بعد أن اشتدت الوضعية السياسية فى المغرب . اتضح أن الجنرال نوجيس قد استعد للانتقام من «كتلة العمل الوطنى» وأنه أخذ العدة لذلك بعد أن أقنع حكومة الجبهة الشعبية بأن تترك له الحرية ليقضى على الوطنيين الذين دأبوا على انتقاد إدارة الحماية ، والذين طالبوا بالحريات العامة ، حتى إذا منحوا بعض الصحف استخدموها منابر للتهجم على الإدارة وأعوانها من كبار القواد والباشوات . كان قد أقنع حكومته – فيما يبدو – بأن غض الطرف عن هؤلاء الوطنيين سيدفع بهم الى المزايدة فى المطالبة ، وقد يصلون الى ما يمس «كرامة»

الحماية . ويبدو أن حكومة باريس كانت فى حاجة الى من يبرر العمل الذى يمكن أن تقدم عليه وكان نوجيس من الذكاء والثقافة ما يستطيع به أن يقنع ليون بلوم الذى كان يرأس حكومة الجبهة الشعبية .

تأكدت الكتلة أن الاقامة العامة ستسلك سبيل العنف . وحينما تتبين نذر العاصفة فى المغرب كانت الكتلة تنتدب أحد أعضائها البارزين ليكون فى العاصمة الفرنسية يبلغ الصوت ، ويتصل بالمسئولين على العاصفة تكون أقل عنفا من أن تقتلع شجرة الحركة الوطنية من جذورها .

كان بلا فريج فى هذه المهمة يتصل بأوساط بعض النواب وبعض موظفى وزارة فرنسا ما وراء البحار أو المقربين من وزارة الخارجية ، وبأوساط الصحافة .

التقيت به لثانى مرة فى حياتى . أول مرة اجتمعت اليه فى المركز الذى فتحته كتلة العمل الوطنى فى فاس قبل ذلك ببضعة أشهر . وكان اقفاله ومنع الكتلة بداية العنف الذى اختط نوكيس خطته . كان الرجل يتمثل لى السياسى الذى يفهم عمق السياسة الاستعمارية ، الرجل القدير على أن يتحدث للفرنسيين فيقنعهم ، ويكتب بالفرنسية فيعترف الفرنسيون بأحقية ما يكتب . كان حديثه مختصرا ولكنه مقنع ، يختار كلماته . لا يلح فى الاقناع ولكنه يدفعك الى أن تقتنع ، ولو كنت على خلاف معه فى الرأى .

رحب بي كتلميذ في السياسة لايزال يدرج في طريقه الى التعلم.
أول سؤال واجهني به :

- كيف ترى الوضعية الآن في المغرب ؟ أهي في طريقها الى مزيد من العنف ؟

ضمنت جوابي الفكرة التي حملتها عن الوضعية :

- الانفجار قاب قوسين أو أدنى . يبدو أن الفرنسيين اتخذوا القرار.

لعله كان يعرف أكثر مما تحدثت إليه به . ولكنه كان يود أن يستمع الى انطباعات أخر من قابلهم ممن قدموا من المغرب . واستمر الحديث عن الوضعية السياسية وعدم استعداد الفرنسيين ليغيروا ما بهم ، رغم «المبادىء» والتصريحات .. سكت قليلا . اتجهت عيناه إلى بعيد كما لو كان يتطلع إلى ماوراء الأفق قال وكلماته تحدث عن عاطفة حرى :

- ستشوقني طويلا . ما أدري متى سأراها . ؟

أدرك أن بعده عن المغرب سيطول . وأن ابنته سعاد التي لم تكن قد تجاوزت شهورا من عمرها ستظل بعيدة عنه الى أن يعود الى المغرب . وهي عودة مشكوك في قربها .

انتقلنا سريعا من هذه الاضاءة العاطفية لنتحدث ، ونحن نذرع شوارع باريس ، عن السياسة الفرنسية في المغرب العربي جميعه . ولم يكن قط يغتر بالأفكار التي ينادي بها اليساريون . فقد كان يعرف أن

الشعارات التى يتحدث بها هؤلاء وأولئك لا تعدو شعارات الحملة الانتخابية لا من أجل مجلسى البرلمان فحسب ، ولكن كذلك من أجل الاستمرار فى الحكم ، حتى إذا كان مما يمهد لهم الاستمرار فى الحكم إبادة قطر عربى أو افريقى سارعوا إلى ذلك دون أن يستأذنوا الشعارات.

قضيت عشية سعيدة مع الرجل الذى استفدت من خبرته كثيرا . فلم تكن فقط الخبرة المغربية ، وقد كنت أحسب نفسى قريبا من كبار الوطنيين فيها ، ولكنها إلى جانب ذلك كانت الخبرة بعقلية الفرنسيين وأسس سياستهم فى المغرب . وقد كان يعرف منها الكثير بعد أن قضى فى باريس فترة طويلة وهو طالب ومناضل يتصل بكثير من الأوساط التى تشارك من قريب أو بعيد فى اتخاذ القرار .

عدنا إلى الرواق المغربى فى آخر المطاف . وافترقنا على موعد غداء سيكون ضيفه فيه الحبيب بورقيبة رئيس الحزب الدستورى التونسى الجديد .

كنا ثلاثتنا فى مطعم مغربى ، لعله كان من ملحقات الرواق . هش الرجل - صاحب المطعم - للترحيب بزعيمين يدخلان مطعمه . وقام بحركة ليؤكد اهتمامه واستعداده لخدمة ضيوفه واختار لنا أجود ما عنده من طعام . كان الحديث بين الرجلين ممتعا . كانا يتبادلان الخبرة

والتجربة . تونس تمر بنفس المرحلة . الاستعداد للعنف .. فالسياسة الفرنسية التى تطبق فى المغرب تطبق نظيرتها فى تونس . والمقيمان العامان يتبادلان الخبرة والتجربة ، لأن الاستعماريين كانوا يؤمنون أن فكرا واحدا يوجه الوطنيين هنا وهناك . لم يكن واضحا آنذاك فى ذهنهم أن الوطنيين التونسيين والمغاربة يستمدون من الفكر العربى ، كانوا يسمعون عن شخصية عربية لها تأثيرها فى الفكر الثورى المغربى، هى شخصية شكيب أرسلان . يعرفون صداقته للمناضلين المغاربة، ويكنون له العداء المطلق لأنهم يعتبرونه خصما عنيدا للاستعمار فى بلاده لبنان ، وفى البلاد الإسلامية والعربية جميعها . والى جانب ذلك كان الاستعماريون يؤمنون بأن أفكار الديمقراطية الغربية تتسرب الى فكر المثقفين الشباب الذين يكونون كتلة العمل الوطنى فى المغرب ، والحزب الدستورى فى تونس ، وحزب الشعب فى الجزائر . القاسم المشترك بين هؤلاء جميعا هو العداء لفرنسا ، ولذلك يجب أن يقتلع هذا العداء من أفكارهم بالعنف ، وقد كان من المستحيل اقتلاعه بالاقناع ، حتى لا يتسرب الى الشعوب الفقيرة الجاهلة المستضعفة . وخطر التسرب أن العداء فى فكر المثقفين سيلتقى بالعداء العملى الذى ظهر فى الجبال والسهول والصحراء أثناء المد الاستعمارى من الجزائر فى الشرق ومن الدار البيضاء فى المغرب ومن صحراء الجزائر الى صحراء

المغرب فى الجنوب فى فترة الاحتلال . حروب «التهدئة» لاتزال أصداؤها تصم الآذان ، لاتزال رائحة بارودها تزكم الأنوف . هؤلاء الوطنيون يريدون أن يبعثوها جذعة باللغة التى لا تخفى على أمثال «نوجيس» الذى حارب فى الجبال ، وحكم فى المدن ، وأسهم فى اتخاذ القرار تحت إمرة المارشال ليوطى وخلفائه من بعده قبل أن يرتقى الى الصف الأول ، صف مقيم فرنسا العام فى المغرب .

لم يكن الحبيب بورقيبة أقل يأسا من الفرنسيين من أحمد بلافريج. ولكنه كان يؤمن بأنه يستطيع كسب بعض الفرنسيين الى جانب تنفيذ بعض الاصلاحات الإدارية والثقافية والسياسية فى تونس . كان هو الآخر ينتظر العاصفة ، ويعرف أنه سيكون أول ضحاياها . كان بالنسبة لى أستاذاً آخر اقتطف من ثمار تجربته واستفيد من حديثه عن تونس وعن العلاقة الفرنسية التونسية . كنت منذ بداية الوعى أتصل بتونس عن طريق صحفها . أعرف بعض مشاكلها ، بعض أسماء قيادييها . وكانت صورة بورقيبة واضحة فى وعيى . لذلك كنت أجدنى أجلس إلى زعيم أكاد أعرفه ، وأتطلع فى وجهه لأستكمل الصورة من حركاته الحية وتعبيره الواضح وابتسامته العذبة وشبابه المندفع .

هذه تونس التى كنت أحلم بزيارتها وأنا اقرأ صحفها وأجرب قلمى فى نشر مقالات بها . كنت مدمنا على قراءة بعض الصحف القادمة من

تونس . ولم يكن لنا الا أن نقرأ الصحف التونسية «المعتدلة» وهى التى كان يسمح بها ، وفى المغرب لم تكن من صحيفة معتدلة أو متطرفة إلاّ أن تكون صحيفة «السعادة» لسان الإقامة العامة . واليوم كتب لى أن ألقى تونس ممثلة فى زعيمها الذى طبقت شهرته الآفاق المغربية . كان يتحدث أكثر مما يستمع بمنطق السياسى ولهجة المحامى وحماس المناضل . كنت أنتقل بعيني وأذني وفكرى جميعا بين الرجلين . وخيل الىّ أنى أتنقل بين القطرين ، أعيش فى تونس لحظة ثم أعيش فى المغرب لحظة ، فقد كان الحديث بين الرجلين مفيدا ممتعا . كان الخلاف بينهما واضحا : بلافريج يستمع أكثر مما يتكلم حتى إذا تكلم أوجز الفكرة السليمة ، وكأنه كتبها قبل أن ينطق بها . يلخص تجاربه فى عرض دقيق لا يكاد يخرج عن موضوعه إلاّ أن تكون نكتة لاذعة أو سخرية من المنطق الاستعمارى . بورقيبة كان يتكلم كثيرا يحكى القصة ليخلص إلى الفكرة ، حريص علي تأكيد تجاربه ونضالاته وقصصه مع زعماء الحزب الدستورى القديم . يفكر فى الوصول الى بعض مطالب الحزب ، يتحدى الاستعمار في ذلك ، ولكنه يود ألا يصل إلي القطيعة . عملى فى تفكيره السياسي ، صلب فى أفكاره مستعد دائما للنضال والتضحية .

ولم يكد الغداء يبدأ حتي خرجت من مخبئها تتلوى كالحرباء ، طويلة ممتلئة بها سمر خفيف علي وجهها وشم يتنازل خطا مرسوما بحذق

تحت شفتها السفلى . بدا لى أنها جزائرية . تتحرك راقصة تحاول أن تبدي فى دقة ما تحسبه من مفاتن جسمها : صدرها ، ردفيها ، مقدمها، ذراعاها .. موسيقى غجرية تصاحب حركاتها الفاضحة ، أو بدت لى آنذاك فاضحة . بدا الغضب واضحا فى وجه بلافريج . حمل منديله يمسح فمه وهو ينادى صاحب المطعم . قدم إلينا يهش وكأنه ينتظر الشكر على ما قدم لنا من إكرام بتقديم هذه الراقصة . دهش وبلافريج يطلب منه الحساب ، ولم نأكل بعد ، لأننا مغادرون . استفسر الرجل فى تواضع واعتذار عما قد يكون فى الأكل من نقص مبديا استعداده لتغييره . جابهه بلافريج بأننا لم نجىء للمطعم لنشاهد الرقص الخليع . ولكنا قدمنا للغداء فى مكان اعتبرناه محترما .

اعتذر الرجل . أسرع إلى طرد الراقصة من وسط المطعم يهش عليها بيديه فى جلبة . لا أدرى بم أصيبت . ولكنى متأكد من أنها اتهمت الزبائن بأنهم ظنوا برقصها قصورا فى ابراز مفاتن جسدها .

وابتسم بورقيبة ابتسامته الجميلة . لم يكن أجمل من وجهه حينما يبتسم وهو يقول :

– ولم لا .. الغداء والفن الراقص .. متعة البطن ومتعة النظر .

ما أدرى إذا ما كان جادا أم كان ساخرا من فن الراقصة التى لم تكن تتقن من الفن إلاّ هز البطن والأرداف .

فى باريس فتحت عينى على عالم جديد تبدو بجانبه المدينة «فاس» التى ودعتها عالما آخر لا ينتمى للعصر . كانت الذاكرة ترجع بى إلى الفكرة التى قدمها إلى ليوطى ونوكيس ولوسيان سان وبيرزلون . لم أكن أكتم نفسى أنى كنت أمقت المدينة التى صدرت مثل هؤلاء إلى المغرب ، قضيت فيها قرابة أسبوعين أحاول أن أستل من قلبى الصغير المقت الذى طفح به فلا أجد شجاعة تخلصنى مما حملته معى من نذر العاصفة التى ينفخ فى نارها الچنرال نوكيس . تبدو لعينى باريس بعظمة مبانيها وضخامة معاهدها وقصورها ورحابة شوارعها وانتظام سكانها وجمال وجوه فتياتها ونوقهن الرفيع ، قبل أن تزحف عليهن حضارة الاستهتار بكل ماهو جميل . وتبدو متعاظمة كعاصمة علم تحتضن أشهر كلية فى كتابات العرب الذين عاشوا فيها طلابا «السوربون» . أذكر «أديب» الذى عاش بين السوربون وغابة بولونيا والمكتبة الوطنية . وأذكر «عصفور من الشرق» والتناقضات التى احتضنت العصفور التائه بين الحضارة الجديدة التى كادت تستلبه ، والحضارة القديمة - بكل تقاليدها الشرقية التى تشده إليها . أذكر أسماء معالم حضارية «متحف اللوفر» ساحة «لاكوكورد» قبر الجندى '' جهول «لى تشانز ليزى» «الأوبيرا».. وتغرينى باريس بخاطر بدا لى شيطانيا :

– لماذا لا أتخذ منها مقرا لدراستى بدلا من القاهرة ؟

بدا لى السؤال كما لو كان وحيا من شيطان .

أليس شيطانا هذا الذى يوحى لقاصد مكة أن يحول وجهته الى الفاتيكان ....!؟ .

توقفت متسائلا وكأنى أمام مرآة : وجدت نفسى بجلبابى الأزرق السماوى ، بطربوشى الأحمر القانى ، ببلغتى التى تتمسك بقدمى كما لو كانت مغناطيسا يمسك باطنها بباطن قدمى . بملابسى الداخلية الفضفاضة ، ألبسها ليلا ونهارا دون أن أشعر بحصار يحيط بذاتى عن أن تنطلق ، وأنا ألحظ الحصار الذى يمسك بتلابيب هؤلاء الذين يتحركون دونما عقدة . تحدثت الى نفسى بلغة عربية فصيحة . جربت أن أقول كلمات ، مما حفظنى إياه الأستاذ الوعدونى ، من لغة القوم . فلم تستقم فى شفتى غير كلمات إذا عبرت عن الماء والخبز والساعة .. فلن تجدينى أن أتفاهم مع هؤلاء الذين يرطنون فى الشارع والمذياع والمدرسة والكلية .

تساءلت :

– وطه حسين انتقل من الأزهر الى السوربون . تعلم الفرنسية سماعا في بضعة أشهر ، ثم أخذ يحضر دروس الكلية فى الآداب بما فيها الآداب اللاتينية واليونانية ...؟ .

ظل السؤال يتردد حائرا فى ضميرى . كنت لا أستطيع فى كثير من الأحيان أن أجيب على زخم من الأسئلة التى تراودنى ، تحاصرنى.. ألتمس الجواب عند الآخرين دون أن أسألهم . لا أحد يفكر معك ، حينما تقف فى مفترقات الطرق العديدة ، يرشدك الى الطريق نحو الهدف. أنانية الذين يصلون ، أو يشقون طريقهم ؟ انتظرت وأنا أتجول مع الأستاذ بلافريج فى شوارع باريس أن يقول لى :

– ولم القاهرة ؟ أنت فى باريس . انتظم فى إحدى مدارسها لتتعلم لغتها ثم تشق طريقك ..

كان هو الآخر مغرما بالقاهرة . قضى فيها سنوات من سنى دراسته . ولعله لم يكن ليختار لى غير القاهرة ، حتى لو طلبت إليه أن يختار .

ظل السؤال يراودنى فى غير إلحاح . لم أحاول أن أغير من اتجاهى . فأنا قاهرى الهوى ، قاهرى القصد . وما باريس غير معبر ، قاعة انتظار للباخرة «كوثر» .

واسم كوثر لايزال يوحى بنعيم الجنة . أليست كوثر طريقى الى القاهرة لم يحاول أحد منا أن يمتطى باخرة أخرى من هذه البواخر التى تمخر البحر الأبيض الى الإسكندرية أو بورسعيد لابد من كوثر ، فهو اسم حفظناه مما قرأنا من نهضة مصر الاقتصادية على يد طلعت

حرب . كان قد أسس شركات اقتصادية . منها شركة للملاحة . وأولى بواخرها كانت «كوثر» التى رفعت العلم المصرى مجددا فى البحر الأبيض.

ترى لو تغلب شيطان باريس فاقتنصنى فتحولت الى باريسى اللغة والفكر والمنطلق ...؟

أغلب الظن أن حياتى كانت ستتغير . وأننى لم أكن لأقيم فى العاصمة القريبة من المغرب غير شهور إذا تجاوزت السنة فلم تصل الى السنتين . فقد تغيرت أوضاع العالم الذى دهمته الحرب ، وتغيرت أوضاع العائلة التى دمرها موت الوالد ، وكان كل سندى فى دراستى . وتغيرت أوضاع المغرب الذى حاول الجنرال نوكيس أن يدمر حركته الوطنية ، وكانت مؤشر نهضته وتمرده على استمرارية نظام الحماية. كان لابد لهذه التغيرات أن تجرفنى لأعود الى المغرب باحثا عن لقمة الخبز مبتعدا قليلاً عن الخط الثقافى الذى كانت القاهرة هى التى خططته ، وهى فى ضميرى ، قبل أن تطأها قدماى ، أو تراها عيناى .



فى باريس علمت أن الصديقين عبدالمجيد بن جلون وعبدالكريم بن ثابت قد وصلا الى مرسيليا فى انتظارى وانتظار كوثر وكنا قد تواعدنا على أن نلتقى إذا تمت إجراءات خروجهما من فاس .

كان القطار يقطع المسافة بين باريس ومرسيليا فى ليلة كاملة صحبنى عمى فهو لا يثق فى أنى أستطيع أن أدبر شئونى قبل أن

يسلمنى الى بلاد تتحدث العربية ، وأولى خطواتها باخرة كوثر . أسلمنا القطار الى شوارع مرسيليا نبحث عن الفندق الذى يقطنه ابن جلون وابن ثابت . كان فندقا متواضعا استأجرا فيه غرفة متواضعة يواصلان فيها الليل بالنهار لا يكادان يبرحان الفندق ولا غرفتهما من الفندق . كانا يخافان المدينة التى بدت لهما وحشا ضاريا . عاشا حياتهما الواعية فى فاس . وفجأة كانا وحيدين فى مرسيليا بصخبها وميناءها - وكان الفندق قريبا منه . وسكانها المتجهمو الوجوه . فى ثيابهم المتواضعة ، ونظراتهم المريبة ، وعملهم الشاق .

ما أشك فى أن الكثيرين حذروهما من المدينة العمالية البحرية التى تحتضن «العصابات» .. وما أشك فى أنهما كانا متأكدين من أن ظهورهما كغريبين بجلبابيهما وطربوشيهما قد يغرى بهما ، فتسرق نقودهما القليلة التى كانا يعتمدان عليها فى الوصول الى القاهرة . وبعدها يفتح الله .. كانت السيدة العجوز مديرة الفندق تستغرب أن يحبس الفتيان نفسيهما فى زنزانة الفندق وأمامهما المدينة الطافحة بالحركة والحياة . كانت تبتسم ابتسامة اشفاق على شابين لا يضيقان بالغرفة البئيسة التى سجنا نفسيهما فيها . ولكن وصولنا كان إذنا بالافراج .

بعد أربع وعشرين ساعة كنا على ظهر الباخرة «كوثر» . جميلة نظيفة شامخة كسيدة مصرية من عهد الفراعنة . ضباطها شباب

ممشوقو القوام في ثيابهم البحرية الزرقاء المزركشة ، عمالها تصفح وجوههم بالعافية والبشر ، صدورهم منشرحة كأنما البحر منحهم من رحابته وعميق أسراره . كنا فى مدينة مصرية لا يتحدث سكانها بغير اللهجة العربية المصرية . لأول مرة نلتقى بوجوه مصرية صميمية . السمر واستدارة الوجه والأنف الكبير والملامح المتنامية فى رجولة واضحة.

– أبناء فرعون هؤلاء ؟.

هكذا همست فى أذن زميلى .

نظر الىّ بتساؤل من لا يستطيع أن يجيب . ثم نطق مستدركا :

– ولكنهم يتحدثون العربية . وهم بعد من بلاد الذين كتبوا وألفوا ونشروا من تراث العربية ما يؤكد عروبتهم .

ثلاثة مغررون كنا نتحدث فى كثير مما لا نعرف .. كان عندنا كثير من فضول الذين لا يعرفون .. ونتجرأ كأطفال على هذا الشاب وذاك الرجل لنسأل عن كل ما نريد أن نعرف عن مصر . تبتسم العيون الطيبة فى وجوهنا ويتحدثون باللهجة المصرية التى لم نكن نتصور أن نفهمها يوما أو نتقن الحديث بها . نتجول فى ممرات الباخرة وأبهائها وسطوحها . ونلمح شخصا نعرف صورته جيدا يقف على إفريز ، يتابع حركة البحر ، يستنشق هواءه . على رأسه طاقية «بريه» مما يلبسه المرسيليون ، عمالهم على الأخص .

إنه هو بدون شك .. الصورة لا تخطىء ، بسمر وجهه ، وضيق عينيه ، وجبهته العريضة وسماحة ملامحه .

هكذا تحدث أحدنا للآخر . وكلنا متأكد أنه محمد عبدالله عنان الذى قرأنا بعض كتبه كما قرأنا له فى الرسالة والهلال .

– نتحدث إليه .. نتقدم لنتعرف عليه .؟

الفتية المغررون قعدت بهم شجاعتهم عن أن يتقدموا الى كاتب كبير يبدو شامخا أمامهم كعالم ومؤلف . ترددنا ثلاثتنا حتى انصرف من موقفه ، ولم نره بعد ذلك الا حينما كان أستاذا فى معهد الصحافة بكلية الآداب ، أو رقيبا فى قلم المطبوعات بوزارة الداخلية ، أو باحثا منقبا فى مكتبات المغرب وخزائنه العلمية ، أو محاضرا فى أحد نوادى الثقافة والعلم .

وقد اعتاد هذا الباحث الكاتب أن يترك مكتبه للمحاماة ليرحل الى أوربا صيفا . كما اعتاد زميله طه حسين ، وكما اعتاد بعدهما عبدالرحمن بدوى ليعاينوا أوربا العلم والمعرفة والثقافة فى مكتباتها الوطنية والجامعية وليعدوا أبحاثهم وكتبهم حتى إذا عادوا الى مصر شتاء عادت معهم ذخائر الأبحاث والدراسات تكون عناصر كتبهم . وعبدالله عنان كان من الذين أغرم بتاريخ الأندلس ، فكان يتردد على فرنسا وأسبانيا وألمانيا كل صيف . تعلم لغاتها وترجم عن كتبها

ومعلماتها . كان جوالا ماهرا انتهت به جولاته في المغرب ، فأقام فى هذا البلد الذى أحبه من خلال تاريخه الحافل ومن خلال مكتباته العامرة فى فاس ومراكش والرباط . وشغل فى أخريات حياته بالمغرب بفهرسة الخزانة الملكية فأخرج مجلدات عنها .

هذا هو الرجل الذى تراجعت بنا شجاعتنا أن نقتحم عليه وحدته ، وهو يقف على حافة الباخرة يتملى البحر ، فأصبح بعد ذلك صديقا عزيزا نجلس إليه لنستفيد من علمه وطول عشرته لتاريخ الغرب الإسلامى ، فى مصر والمغرب على السواء .

«كوثر» كانت لنا بوابة مصر . التقينا بمصر لأول مرة على ظهرها . أكلنا المدمس على مائدتها ، واستمعنا فى ود إلى لهجتها ، وتحدثنا إلى بعض شبابها .. كانت كوثر نعم المضيف انسابت فى يسر على تبج الأبيض المتوسط كما لو كانت فوق بحيرة هادئة ناعمة ، لم تكن تنتمى - نسبا - الى «مدينة وهران» التى عربدت بين وهران ومرسيليا . كانت كوثراً عذب المعايشة . قدمت لنا مصر هادئة ودودا تسير برفق ، ولكنها عازمة أن تصل . بضعة أيام لم نشعر فيها بأننا نركب الموج أو نخوض غمار بحر . كان أبيضا ومتوسطا .

لابد من مصر وإن طال السفر

وسننزل مصر، الأسكندرية، من أين نبدأ المسيرة. خيل إلىّ أن زميلى سيسألان عن أقرب فندق إلى الميناء ثم يعتكفان فيه كما صنعا بأنفسهما حينما نزلا مرسيليا ـ وخيل إلىّ أنى كنت أكثرهما شجاعة، فقد زرت باريس ـ عاصمة النور ـ ووقف بهما حظهما عند مرسيليا.. غير أننا ربطنا صلة وثيقة مع رجل فى كهولة من تجاوز الأربعين، كان متزوجا فرنسية، بدت ملامحها صفراء ذابلة، بشرتها تميل نحو التغضن. يخيل إلىّ أنها كانت أكبر من زوجها سنا. لكنها كانت مريضة، فيما عرفنا من بعد. وفى فرنسا كانت تستشفى .

أكدنا للرجل أننا سنصحبه إلىّ القاهرة. رحب بأن نكون فى صحبته فى القطار ليرشدنا بقدر ما يستطيع. فى الميناء كان رجال الجمارك يحاسبون على النقير والقطمير، ولم يكن معنا نقير ولا قطمير. وقع صاحبنا بين أيديهم. احتار كيف يقنعهم بأن الحقيبة التى فتحها ـ وكانت مليئة بعلب مكتوبة بلغة أجنبية ـ حقيبة أدوية تستعملها زوجته المريضة .

ـ وهل المريض يستعمل كل هذه «الأجزخانة»..؟

لم تكن «نعم» تفيده فى شىء. فالجمركى يشعر بسلطة متحكمة

حينما يقف المسافر امامه «متهما» لا يستطيع دفاعا.. ولم يكن وجه زوجته ليؤكد لهم أنها مريضة تضع فى حقيبتها ملء صيدلية دواء. تخلص الرجل أخيرا من حساب الملكين كما يتخلص أى مسافر من النظرات المريبة التى يوجهها إليه رجال الجمارك. أنفاسنا ضاقت من هول الموقف واختناق قاعة الجمارك بأنفاس القادمين من سفر ومراقبى الشرطة والجمارك والحمالين والعديد من الذين أحسبهم فضوليين . فحيثما تكون المشكلات اليومية البسيطة يكون عشرات الفضوليين، ولكل منهم رأى يدافع عنه بالحجة والمنطق والصوت المرتفع .

ـ أرأيتم...؟ لو حدث هذا الذى شهدتم مع أى منكم لاتهمتم الجمارك المصرية بأنها تعادى الغرباء.. مصرى لا يحمل فى حقيبته غير الدواء لزوجته المريضة يحاسب حساب القبر.

هكذا أخذ الرجل يبثنا همومه، وقد ربط معنا صداقة ودودة ، بدا فى وجهه الارتياح وهو يتخلص من ورطة لم يكن ليعانيها فى بلد آخر .

لم نفكر فى زيارة الاسكندرية، فهى ليست مصر التى نقصد، الصورة عنها كانت عظيمة. تمسكنا برفيقنا وكأننا كنا نخشى أن نضيع اذا ما فارقنا دليلنا، وهو حريص على أن يقضى ليلته فى منزله بالقاهرة .

ركبنا عربة، أو عربتين، لا أدرى، تجرها خيول عجفاء نحو محطة القطار. بعد وقت ليس بالقصير كنا في القاهرة المعزية، في «باب الحديد» منها. الساحة الفسيحة الكبيرة المتحركة، خيل الى أن كل سكان القاهرة تجمعوا فيها، يسعون منها اليها، يتحركون بحيوية تقرب من العنف. ترتفع أصواتهم وكأنهم في سوق عكاظ - ولا شعر - تختلط ثيابهم. منهم «الافندى» الأنيق يلبس «بذلة» عصرية بربطة عنق، وعلى رأسه طربوش طويل، يميل فوق بعض الرؤوس الى اليسار أو اليمين، وفي بعضها الى الخلف. منهم «الشيخ» بقفطانه الفضفاض وتحت القفطان صدار من ثوب لماع مقلم بألوان زاهية تكشف عن عنق ممتلئة وصدر أكثر امتلاء. فوق رأس الشيخ طربوش قصير تحيط به ، باتقان، عمامة ناصعة البياض موشاة بهدب يشي بزينة أنثوية أو رجولية لا أدرى لا تخفي حاشيته وإن أخفت ذوائبه، تؤكد تاج الشيخوخة ومهابة العلم، يتكيء على عصا أنيقة ولو لم تكن به شيخوخة أو تحمل يمناه مسبحة أو نشاشة ذباب، ولو لم يذكر الله مع كل حبة، ولا ذباب أو ناموس ينشه او طارده. اذا أسرع «الأفندى» في سيره كان الشيخ يمنح العلم مهابته فيسير الهوينى بطيئا لا تسرع به الدنيا، ولا تزعجه مطالب الحياة. بين الأفندى هناك والشيخ هنا عشرات من «أهل البلد». لعلهم قدموا توهم من صعيد مصر أو شمالها. كل منهم يلبس كما

اتفق: قفطانا طويلا مفتوح الصدر أو لباساً قصيرا كان فى يوم ما من ثوب مقلم بألوان لماعة زاهية، حال لمعانها وزهوها. على رأس كل منهم «لاسة» أو عمامة أو طاقية. بعضهم يحمل على رأسه قفص دجاج أو بط، وآخرون يحملون رزم ثياب أو أكل لا يدرى أحد. يسيرون بحماس وسرعة، ما أدرى إذا ما كانوا يعرفون وجهتهم فى المدينة الحافلة التى ضاع فيها أقرباؤهم، وستبتلعهم بعد قليل ليصبحوا من القاهريين. بين هؤلاء وأولئك تخطر فتاة أو سيدة عبلة مكتنزة تحيط جسمها المترهل بملاءة سوداء تحدد معالم ردفيها وكتفيها ويتداعى طرفاها عن صدرها البارز فى شىء من التبذل يكشفان عن منابع ثديين عارمين يشدها قميص أو فستان مشجر بألوان ضاربة تحيط خديها وما تحت أنفها بخمار أسود كشبكة صياد ظفر بأنف دقيق وخدين أسيلين وشفتين طافحتين بالأنوثة. ولكن سحرها، كل السحر، ند عن مهارة الصياد وهو يطل من عينين لامعتين كحيلتين مشتاقتين تدعوان مشتاقا .

ولا تخلو باب الحديد من فضوليين وفضوليات. فلا تكاد تخطر المرأة حتى يتعرف الشباب من حركة قدميها ونظرة عينيها واشارة حاجبيها، ونغم كلمة : «ن .. عم» تمط به شفتيها، هل بها فضول أو شوق أو هوى، ولكن السيدة التى ليس بها هذا أو ذاك ترمقه بنظرة ازدراء أو استصغار أو اشفاق، ربما، ثم تمضى فى ثقة من خطواتها الثابتة .

خيل إلىّ ان مصر كلها تجمعت فى باب الحديد .

أين ساحة «الصاغة» أو «ساحة المخفية» فى فاس من باب الحديد فى القاهرة؟ .

تداعى السؤال الى فكرى الساذج وهو يتنقل من ساحة الصاغة التى شهدت مرحلة التكوين، وساحة الكونكورد فى باريس وأنا أعبرها فى طريقى الى ساحة «ميدان» باب الحديد. نماذج ثلاثة اصطدمت فى الفكر الصغير الذى كان يحتمل ساحة الصاغة ولا يزيد، فأصبح ينبهر بساحات باريس والقاهرة. مدى رؤية البصر امتدت إلى آفاق واسعة. أى امتداد سيكون فى مد البصيرة؟ أهو ميلاد جديد تكتبه هذه اللحظات التى عرفت فيها مدى البحر وقد كنت لا أدركه إلا على الخريطة؟ مدى الأرض وقد كنت لا أكاد أعرف منها إلا فارس؟ مدى الانسان وقد كنت لا ألتقى منه نفرا محدود العدد ، محدود الأفق، محدود التفكير؟ .

•

من باب الحديد بدأت القاهرة تتحدث.. تقول لى .. بدأت أسمع، أرى، أعى، اغتبط بهذا العالم الذى تطبعه الحركة والضجيج والتنوع والبقاء.. عالم يجمع القرية والمدينة ومنتصف الطريق بين القرية والمدينة. يجمع الجامعة والأزهر، ومنتصف الطريق بين الجامعة والأزهر. يجمع العربة يجرها حمار تحمل البضائع، والانسان، والسيارة الفارهة، وقطار باب الحديد .

باب الحديد فتحت بوابتيها على مصراعيهما أطل منهما على العالم الجديد قبل أن أدخله .

تعهد صاحبنا ـ ونحن فى القطار ـ أن يدلنا على الطريق إلي فندق حتى يطمئن الى أننا، - وقد لاحظ سذاجتنا وضعف حيلتنا- لم نضع فى المدينة التى يعرف أن الغريب فيها يضيع قبل ان يهتدى، يبدو أنه كان مرهقا، وهو يحمل هم السيدة المريضة التى تعود معه من بلاد الهدوء والراحة النفسية الى المدينة التى بدت لها ـ رغم السنوات التى قضتها فيها مع زوجها ـ مزعجة للمريض والمعافى على السواء. العربات التى تجرها الخيول تنافس الانسان كثرة وضجيجا. كل حوذى ينادى بصوت مرتفع عله يكسب زبونا ، أو زبونين اذا كان سعيدا. أسرع صاحبنا ليتخلص من متاعبنا، فيما يبدو، فدلنا على عربة أوصى حوذيها أن ينقلنا لأى فندق متواضع قريب من وسط المدينة «ميدان الاوبرا» «العتبة

ـ حظ سعيد. مع السلامة. وغيبه الزحام، وهو يحمل هم السيدة المريضة، وصمم العودة الى العمل بعد أن قضى عطلته فى التمريض .

لم تبتسم لنا السيدة الفرنسية وزوجها يودعنا. يبدو أنها كانت متضايقة من فضول الزوج مع هؤلاء الغرباء الذين أتوا من بعيد. لعل فكرها لا يزال يحتفظ باسم هذا البعيد «مروك» جيلها فى فرنسا يذكر ـ

ربما ـ ليوطى وبيتان والجوهرة التى ضمت الى تاج الامبراطورية. فما بال هؤلاء الفتية تغرر بهم مصر ليأتوا من بعيد يطلبون العلم، وابناء مصر ينتقلون الى بلادها لنفس الغاية؟ تناقضات وجدتها السيدة حلا لها ـ فيما يبدو وقد تعرفت على الشرق متزوجة أحد أبناء الفراعنة ، وتركت فى بلادها شابا من أبناء الغال ولعلها لم تجده ، فقد كن من الكثرة والصبا والجمال والرشاقة بحيث لا تنافس . كانت ، أكبر سنا من زوجها المصرى، وكان أكثر حظا من جمال ورجولة وعافية .

فى الفندق الصغير المتواضع حططنا الرحال، ونحن نحسب أننا حللنا مصر القاهرة ـ أو مصر كما يدعوها المصريون ـ الليل لا يزال فى بدايته. ومصر ككل عواصم الدنيا الكبيرة تعيش بالليل كما تعيش فى النهار. ولكن الليل عند الفتية الأغرار كان كليل فاس يبدأ مع غروب الشمس. لذلك أوينا الى غرفتنا، وأحسبها ثلاثية الأسرة، ونحن لا نعرف عن الحياة التى كانت تضج من حولنا الا الجدران الأربعة وضيق الغرفة وحرارة أكتوبر الذى لا تعترف القاهرة به كمنتصف فصل الخريف .

فى القاهرة كما فى مرسيليا أوينا الى الغرفة الضيقة ، ومن نافذتها المقفلة بمصراعين خشبيين نفاذتين كنا نستروح نسيم ليل القاهرة واصداء ضجيج الانسان المتحرك ومنبهات السيارات وحوافر خيول عربات «الحنطور» تنهب رصيف الطريق تحت لهيب سياط الحوذى وصوته المنذر.

كان صاحباى يعبان من حريتهما الكاملة وهما يتباريان فى اشعال دخينة بأختها، لا أكتم نفسى أنى كنت مستاء من هذه الحرية التى «تجاوزت حد المعقول» وهما فى بداية الطريق. أحدهما كان مجربا قديرا. ولكنه فى فاس لم يكن يجرأ حتى اذا دفعه الشوق إليها اختبأ فى كنيف أو دخل دربا غير مأهول أو غرفة صديق يطمئن الى عدم وشايته . وكان الثانى يشتاق اليها، ولكنه ـ فيما أحسب لم يجرب الا مرة أو مرتين، أدركه فى إحداهما دوار خفيف لعله زاد فى طموحه الى أن ينتصر على التردد والخوف والتهمة بالصعلكة. وعندما ركبا القطار وودعا الأهل والأحباب والأصدقاء الذين هبوا فى ليلتهم تلك لوداع الفتيين المقدمين على مغامرة فى طريقهما إلى وجدة، وهى المحطة الأولى فى المسيرة البرية البحرية إلى مصر ، ودعا معهم التردد والخوف والحياء، وامتشق كل منهما علبة الدخائن وكانا، منذ تلك اللحظة، فى صحبتها إلى نهاية الحياة .

كان فضاء الغرفة الضيقة عبقا بدخان لم تطق رئتاى تحمله. أشهد أنى بدأت أضيق بصاحبى ـ صديقى العمر ـ فتأزمت. شعرت بأنى أقدمت على مغامرة. ولعلهما ضاقا ذرعا بتأزمى فشعرا بأنهما أقدما على مغامرة معى . انطلقا فى أحاديثهما التى لا تنقضى، خاننى لسانى. اكتفيت بأن أستمع ، أبتسم، أزم شفتى، اقطب مابين حاجبى،

أضيق بالنكتة التى لا تثير فى نفسى عاصفة الضحك التى تدمع عينى أحد الصديقين، كان الثانى منهما قد انطلق من عقال الصمت الذى كان يلزمه فى أكثر أوقاته. لعله شعر بحرية لم أشعر بمثيلها . كان قليل الكلام يتعثر فى فمه، فكان قلمه أطوع من لسانه، لعله كان يعانى من عقدة النقلة النوعية التى أدركته وهو بعد صبى حينما انتقل من عالم - مانشستر - حيث قضى طفولته مع لداته من الانجليز يتحدث باللغة التى اتقنها فى ملعب الصبيان ومدرسة الأطفال، ولم يعرف معها من لغة المنزل الا كلمات سمعها ولم يدرك لها مضمونا. ثم عاد إلى مدينة هذه اللغة وناسها فى صباه المبكر. اختلط فى وعيه الصغير الناس والأقوام واللغات والعادات والأطفال والطفلات والزقاق والساحات. كان يسبح فى بحر، فوجد نفسه فى نهير نضب معينه فاختنق. ازمة لم يحتمل صدمتها، تعثر لسانه بالكلمات العربية تحل محل الكلمات الانجليزية، بالأصدقاء المغاربة فى الزقاق، فى المنزل، فى المدرسة. فر من مدرسة الى مدرسة، كاد يفر من نفسه. انطوى عليها فى صداقة وحب وأنانية. أصبح يحتكم اليها، يعتمد عليها. استغل يقظة حسه وذكائه . خانه لسانه فلجأ إلى قلمه، تحدى اللغة الجديدة فأتقن الكتابة بها، وان لم يتقن الحديث بانطلاق. كان فى حاجة إلى نقلة اخرى تحرره من عقدته، لعله بدأ يحس بها فى القطار يغادر محطة فاس فى طريقه

اليّ وجدة، فى الدخينة يستف منها دون رقيب، دون أن يسمع كلمة «عيب» انطلق فى حديثه إلى زميله فى القطار ـ وكان متحدثا لبقا تملأ مشاعره الذكريات والقصص والأساطير وأحاديث الكبار والشيوخ والنساء والفتيان ـ انطلقا يملآن الغرفة ضجيجا كما ملآها دخانا. تحررا من عقدة فاس. والمدينة حينما تضيق بفتيانها فيضيقان بها تصبح عقدة .

كنت ضائعا بينهما. بضاعتى من الكلام محدودة. لا أنبش الماضى، ولا أهيم فى المستقبل. أفكر فى الحاضر. يتسع أمامى اتساع باب الحديد، يضيق ضيق غرفة الفندق المتواضع القريب من حديقة الأزبكية، البعيد عن رحابة صدرها .

مصر هى باب الحديد؟ هى غرفة الفندق المختنقة بدخان السجائر؟
وقضينا ليلتنا دون أن نفكر فى الغد .

كان التفكير فى الأصدقاء الذين سبقونا إلى مصر هو السبيل. للخروج من العزلة والضياع اللذين شعرنا بهما نحن الثلاثة فى القاهرة. لا نكاد نعرف عنوانا ولا منزلا ولا كلية أو مدرسة .

حينما كنا نغادر فاس لم نفكر فى غير فاس. وكأن القاهرة هى المدينة التى تلتقى فيها بصاحبك دون أن تبحث عنه أو يبحث عنك، يجمعكما الشارع والسوق والمسجد والمدرسة من حيث تريدان أو لا

تريدان. وحينما ضجت غرفتنا الصغيرة بضجيج صباح القاهرة أخذنا نفكر :

ـ من أين نبدأ المسيرة فى هذه المدينة التى فتح «باب الحديد» فى وجهنا بوابة التيه فيها .؟

وكانت الفكرة المنقذة هى ان نبحث عن صديقنا محمد العلمى، وقد قضى قبلنا سنة فى مصر عاد بعدها فى العطلة المدرسية. حدثنا فى لقائنا معه عن إحدى عجائب الدنيا السبع، وعرفنا منه أنه التحق طالبا بدار العلوم .

ـ أين توجد دار العلوم من القاهرة؟ أين هو من دار العلوم؟

سؤالان لم يأخذا منا كبير بحث. اذا سألت عن ثانوية مولاى إدريس أو مدرسة ابناء الأعيان فى فاس لا تعدم مئات يدلونك عليها، وقد يصحبونك فلا تضل طريقا. واقترح الزميلان أن يذهبا وحدهما يبحثان عن العلمى، فى دار العلوم، فى القاهرة. وانتظر أنا فى الفندق. لعلهما ضاقا ذرعا بصمتى، بتأزمى، فى بداية الطريق نحو رحلة طويلة فرغبا فى ألا أصحبهما فى رحلة البحث عن الهادى من الضياع. لعلهما ظنا كما ظننت أنهما سيجدان ضالتهما فى دقائق معدودات، يعودان ـ ومعهما العلمى ـ إلى حيث تركانى .

انتظرت فى الفندق وقد بدأ مغامراتهما الكولومبية لاكتشاف القارة الجديدة .

ـ أين توجد دار العلوم؟

أزور المسئول عنها من فتيين يتحدثان لغة عربية. لعله لم يسمع قط بدار العلوم. ودور العلوم كثيرة فى مصر .

ـ أين توجد دار العلوم ؟

ـ ما تتكلم عربى يا أخى ...

وضحك الصديقان ولم يغضبا . فقد اكتشفا أنهما لا يتكلمان العربية في بلاد العربية .

ـ أين يوجد دار العلوم ؟

وفكر الأفندى طويلا قبل أن يجيب :

ـ لا أدرى إذا كانت فى السيدة أو فى سيدنا الحسين أو فى الجيزة. على كل حال ليست هنا .

ـ لم يفهما عنه . لم يفهم عنهما. كل منهما لا يتكلم العربية. لهجة مصر العامية لا تسمع آنذاك الا فى مصر ، فصحى العربية لا يتحدث بها الا المغرقون فى «التقاليد» من علماء الازهر الشريف .

لم يفكر أحدهما فى عربة الأجرة، ولو فكرا لما اهتديا، فليس معهما مليم من عملة مصر . قد يكون معهما «فرنك» مغربى أو فرنسى. ولكن شيئا اسمه «القرش» و«المليم» لم يقدم نفسه إليهما بعد .

ـ وبدأ الخيط الأبيض يتبين من الخيط الأسود من الفجر. كان المسئول ، فيما يبدو، من حى دار العلوم .

ـ لا تسألا عن دار العلوم. اسألا أولا عن المنيرة ـ احفظا كلمة المنيرة .

يبدو أنه أدرك أنهما غران من بلاد بعيدة، بعيدة ضائعان وسط القاهرة .

ـ وحينما تصلان حى المنيرة اسألا عن دار العلوم .

أغلب الظن أنهما لم يفهما إلا القليل مما قال . فقد كان يتكلم «عربى» وهما لا يتكلمان، وقد لا يفهمان «عربى». ولكن اسم المنيرة لم يكن مما يعز عن الحفظ. اسم «المنيرة المهدية» مثلا كان مايزال يداعب الذاكرة ، ولو أن اسم أم كلثوم كان أقرب الى الحفظ، ولو أرشدهما صاحبنا الى أم كلثوم أو عبدالوهاب لكان أقرب الى الهداية .

ـ أين توجد المنيرة...؟

وما أدرى : أفك لغزهما أحد من المارة. ولكنهما سارا نصف يوم حتى اهتديا الى المنيرة فدار العلوم فالأستاذ العلمى .

وحلت كل مشاكل الضياع. الا ضياعى أنا، وأنا أنتظر على باب الفندق بجلابتى وطربوشى بين أنظار المارة والفضوليين الذين لم يروا هذا الزى قط بين الأزياء التى تعمر باب الحديد .

ـ قد يكون قادما من بلاد الحجاز .

ـ قد يكون قادما من الشام .

ـ لا من العراق .. ليس من السودان فلونه ليس أسمر .

ـ من بلاد بره وخلاص. البلد مليانه ناس من بره .

كل كان يحدث نفسه بنحو من هذا الكلام والعيون الفضولية تتطلع إلى جلبابى فى لونه الأزرق السماوى وطربوشى الذى يؤكد قرب صلتى بمصر ، وبلغتى التى تحاكى بلغ بعض فلاحى مصر الذين لم يرقوا الى احتذاء «الشبشب» أو المركوب . أما «الجزمة» فهى من أحذية القاهريين لا الفلاحين .

خرج صاحباى من الفندق يبحثان عن دار العلوم فى الثامنة صباحا ـ فيما أحسب ـ وعادا ومعهم العلمى على دراجته ـ بعد أن أركبهما «التراموى» بعد الساعة الثانية زوالا .

أحسست أنى لم أضع . صاحب الفندق قد يأمرنى بالمغادرة، وليس معى قرش ولا مليم. وان كان جيبى غير فقير من الفرنك، أحسست بفقر المبادرة ـ أو لعلها فى عرفى آنذاك المغامرة ـ كان بإمكانى أن أغادر الفندق لأتعرف على القاهرة، وينتظرون هم إن عادوا . ولكن عيون الفضوليين حاصرتنى ـ حاصرت جلبابى وبلغتى ـ وانا أنتظر بباب الفندق ، فكيف اذا غامرت فى قلب القاهرة، وكلها تحاكى ـ فيما أتصور ـ باب الحديد؟ .

بدأنا نفكر فى الاستقرار، ونحن فى ضيافة العلمى، بيت العلمى كان برج بابل جماعة من الطلبة يقطنون منزلا مشتركا . فيهم مصريون

من الأسكندرية ومن الصعيد، وفيهم الأصدقاء الذين سبقونا الى القاهرة، فيهم من كلية الآداب ومن دار العلوم ومن كلية الزراعة. كل يتحدث بلغته فى الأدب والنحو والجغرافية ودودة القطن.. تجمعهم حيوية الشباب وسماحة الروح المصرية الفكهة والساخرة. لم يألف أحدهم لهجة الآخر، الصعيدى يسخر من نعومة لهجة الاسكندرى وكلماته، يحسبها لغة أنثوية والاسكندرى يضحك ملء فيه من خشونة كلمات ولهجة الصعيدى، وهما معا يستغربان من كلمات مغربية مهاجرة من «سويقن بن صافى» أو «سويقت الذبان» فى فاس، ويستعيد الاسكندرى الكلمة من الأخ العربى بنانى فيضحك حتى تدمع عيناه، ويضحك العربى معه دون عقدة. ويعيد الكلمة مؤكدا انها اكثر عربية من نظيرتها المصرية. ومع فناجين قهوة ما بعد القيلولة أو بعد العشاء تنطلق حنجرة طالب الزراعة كشحرور الوادى بأغنية أم كلثوم : على بلد المحبوب ودينى.. لا أجمل من صوته إلا صوت أم كلثوم وأداؤها . ويعود كل الى غرفته ليراجع دروسه .

انضم إلينا فى عشيتنا تلك الأخ محمد بن عبود، صديق بدأ فى القرويين ومر بكلية الشريعة فى الأزهر لينتهى الى كلية الحقوق فى جامعة فؤاد . كان نعم الهادى المساعد. تواصلت صداقتى معه ـ وقد بدأت فى القرويين ـ استدعانا إلى نزل صديقه عبدالقادر الرباحى فى

الأزهر . نزل من بيوت الطلبة يقطنون فيها إلى الأبد إلا حينما يصبحون من علماء الأزهر الشريف . ولم يصبح الشيخ عبدالقادر من أولئك، وظل الرجل الوطنى الأريحى الذى تشرب حب مصر وروحها، وكون أعز أصدقائه فيها ، يعيش كطالب على كفاف وبعزة نفس وقوة عزيمة حتى أصبح مرافقا لأمير مغربى (ابن خليفة الملك فى الشمال) فقضى معه فترة قصيرة فى الطلب عادا بعدها الى المغرب. كان بيت الشيخ عبد القادر رحبا وسعنا جميعا. ومن الغد كنا نبحث عن منزل فى حى المنيل فى الضفة الجنوبية من البحر «النيل» . وفى الضفة الأخرى (منطقة الجيزة) تقع الجامعة ببنايتها العتيدة وكلياتها المتعددة وحدائقها ، وساعتها التى اصبحت شهرتها فى القاهرة مثل شهرة بج بن فى لندن.

يبدو أنى تخلصت من احراج كبير والأخ العلمى يعيرنى بذلة زرقاء من بذله لأنضو عنى جلبابى ريثما اشترى بذلة اسير بها فى شوارع القاهرة دون أن ألفت نظر الفضوليين و الفضوليات واقترن تفكيرنا فى البحث عن الشقة وأثاثها بالبذلة وخياطها. وبدأنا نتعرف على شوارع القاهرة وأحيائها الكبرى : ميدان العتبة وشارع الأزهر حيث يوجد الأثاث القديم الذى استغنى عنه مستعملوه، فبيع على ابواب المنازل بغير ثمن ولم يعد لأحد فيه مطمع الا الطلبة والمفلسون.. الى ميدان السيدة «أم هاشم» الى قصر العينى والمنيل. تأتى الجامعة بعد ذلك .

على أبواب الجامعة

كان وصولنا الى القاهرة على مبعدة شهر من بداية الدراسة فى الجامعة، ولم يعد فى الامكان الالتحاق بإحدى كلياتها. كان بعض الطلبة الذين سبقونا أسوأ حظا. وصلوا فى فترة سماح استنها العميد طه حسين، بقبول بعض طلبة الازهر والطلبة «الشرقيين» - هكذا كان يدعى الطلبة العرب. كلمة العرب كانت نادرة الاستعمال - فى قسم اللغة العربية بكلية الاداب . وكان صديقانا احمد والعربى من هؤلاء الطلبة العرب الذين قبلوا فى القسم بسهولة نحن - ثلاثتنا - ابينا أن نلتحق بالازهر أو بكلية دار العلوم، فقد كانت الجامعة طموحنا. ولا سبيل اليها . لذلك اخترنا دروسا من هنا وهناك فى كليتى الآداب والحقوق. أغرتنى كلية الحقوق بما فيها من جديد. كانت دروس النحو والبلاغة فى كلية الآداب - باستثناء محاضرات الأدب والتاريخ - غير ذات جاذبية . كانت محاضرات المدخل فى القانون والقانون الرومانى والاقتصاد السياسى والقانون الدولى والقانون الادارى أقوى جاذبية. فيها الجديد مما لم أسمع عنه فى القرويين . فتحت أمامى آفاقا أكثر سعة . عالما جديدا يخاطب الحاضر والمستقبل. وانتقل إلى كلية الآداب - أراوح بين محاضرات هذه وتلك - فأحس بأنى قطعت المسافة بين المستقبل والماضى، لايفصلهما غير ميدان الجامعة .

ولكنى ـ وصديقى ـ ظللنا فى الميدان .. أصررت على مواصلة الدراسة فى كلية الحقوق دون أن تغريهما كما أغرتنى . واصرا على كلية الآداب دون ان تغوينى كما أغوتهما . لا سبيل لهذه وتلك. فشهادة التعليم الثانوى (البكالوريا) ثم امتحان المعادلة يحول بيننا جميعا وبين إحدى الكليات. فترة «السماح» التى سمح بها طه حسين انتهت. تحدى بها «القوانين»، وقد عرف بتحدى القوانين المجبرة. وهو نفسه كان ثمرة التحدى. فقد انتقل من الازهر الى باريس، ودخل السربون دون أن يحمل شهادة الدروس الثانوية، فلم لا يبيح لطلبة الازهر، وقد يكون من بينهم كثير من طه، أن يدخلوا الجامعة من بابها الضيق. والذى يتحدى القانون لا يعيد الكرة، والا وقف فى وجهه تحدى التحدى . وكنا جميعا من الضائعين .

اقفلت كلية الآداب بابها فى وجهنا، أما كلية الحقوق فلم يفتح بابها قط فى وجه الذين لم يحصلوا على البكالوريا المصرية. وذلك لم تكن تضم بين طلبتها طلبة «شرقيين» الا عراقية سمراء كانت بعينيها الحوراوين من أجمل طالبات الحقوق .

وكانت كلية للحقوق قد فتحت فى بغداد قبل سنة أو سنتين. وقد انتدبت مصر بعض الأساتذة منهم الدكتور محمود عزمى للتدريس بها كما انتدبت الدكتور عبدالرازق السنهورى لتقديم خبرته فى وضع بعض

القوانين. أذكر أن أحد الطلبة لم ينجح فى درس الدكتور عزمى فأطلق عليه النار. وعاد الأساتذة المصريون والدكتور عزمى جريحا من بينهم دون أن يستمروا فى أداء رسالتهم العلمية.

لم أكن مأزوما فلم أسع قط إلى نيل درجة جامعية من مصر . كنت أحسب انها لن تنفعنى فى المغرب. لا أعد نفسى لوظيفة أو مركز فى نظام الحماية، يكفينى ان أتعلم واقرأ، وارفع الأمية الفكرية عنى. سبيلى الى ذلك هذه الكلية أو تلك. كل ما يصدر من كتب فى الأدب والتاريخ والفلسفة والقانون. والكليات لم تكن تقفل ابواب مدرجاتها للمستمعين وخاصة فى المحاضرات العامة التى كان يحضرها مئتان أو يزيدون من الطلبة .

كان مما يروى عطشنا إلى المعرفة الجلوس الى كبار أدباء مصر وعلمائها. الأسماء التى داعبت طموحنا ونحن نقرأ لها فى الهلال او الرسالة. ونحن نقرأ بعض ما وصل من كتبها الى المغرب. كنا أكثر جرأة حينما نطلب موعدا مع العقاد او المازنى او نطرق باب هذا او ذاك ممن نحتفل بلقياهم ونستفيد من توجيهاتهم .

مر عام اعتقد انه لم يضع هباء لم نقفز فيه من قسم الى آخر فى الكلية. ولكن القاهرة تفتحت امامنا بكل أبعادها. كان الوضع السياسى الداخلى حافلا بالجدل والمناقشات الحادة. مصر دخلت فى عهد جديد

من استقلال محدود سجلته معاهدة ١٩٣٦. انتقل الجدل السياسى فى مصر من ماهية الاستقلال ومفهومه الى نقاش حاد حول المعاهدة هى معاهدة التحرر والاستقلال عند حزب الوفد - ذى الأغلبية الساحقة - الذى أمضى المعاهدة وهو يحسب أنه حرر مصر من الاستعمار الانجليزى، رغم القواعد العسكرية والتدخل السرى والعلنى فى تسيير شئون مصر. أو لعله اقتنع بأنها الخطوة الأولى وقت كانت نذر حرب عالمية تعصف بآمال الاستقلال الكامل. وكانت المعاهدة شؤما وتكريسا للاحتلال عند حزب الأحرار الدستوريين. وقد كان الحزب المنافس الذى يحقق التناوب كلما أجريت انتخابات من نوع الانتخابات التى يتدخل القصر فى إجرائها. كانت الانتخابات طريق التناوب، يقاطعها الوفد كلما أجريت بغير حكمة، ويقاطعها الآخرون كلما أجرتها حكومة وفدية. ممارسة الديمقراطية كانت عملية سهلة عند الذين يحكمون مصر من وراء ستار، حينما يريدون حكومة وفدية، تطبق المعاهدة وتمتص الغضب الشعبى يعينون او يشيرون بتعيين حكومة يرأسها النحاس، وحينما يضيقون ذرعا «بطغيان» الوفد وجرأته على القصر ، وأحيانا على قصر الدوبارة - مقر السير مايلز لامبسون سفير انجلترا وحاكم مصر غير مدافع - اشاروا بتعيين محمد محمود الصعيدى خريج اكسفورد رئيسا للحكومة ، وكان يمارس السياسة بعقلية متفتحة وبأعصاب هادئة ولغة

«متحضرة» ، ولم يكن أحد منهما يتعايش مع برلمان الآخر «الأغلبية ساحقة» عند كل منهما، ولو أجريت الانتخابات مرتين فى السنة .

هذا الصراع الديمقراطى السياسى كان درسا مفيدا لنا . لا ننفذ الى أعماقه، ولكنا نتابع التفكير فيه من خلال الصحف والمحاضرات والتجمعات الحزبية. كانت الحرية - فى كثير من الأحيان - لا تضيق بهذا النشاط السياسى الذى كان يؤثر فى زعزعة الوضع السياسى. ولم يكن الذين يحكمون مصر من وراء ستار قصر عابدين وقصر الدوبارة يرتاحون لهذا الحكم او ذاك، يدفعهم الى عدم الارتياح الشارع المصرى. الشارع كان يتحكم. الطلبة يقودونه كما تقوده أحيانا الأحزاب الصغيرة، اذكر منها فى البداية «مصر الفتاة» التى أخذ نجمها يتصاعد مع تصاعد النازية فى أوربا، والتحول السريع ضد الانجليز على الأخص. كانوا وطنيين متوقدين فى وطنيتهم خرج بعضهم من معطف الحزب الوطنى الذى اسسه مصطفى كامل ثم محمد فريد . ثم تلاشى بزعامة سعد زغلول لثورة ١٩١٩ وتكوين حزب الوفد .

كان الطلبة يعيشون جدلا مثمرا يبدأ :

- صباح الخير .. أرأيت هذا الخائن محمد محمود أعلن أنه سيسقط حكومة الوفد .

- يسعد صباحك .. أقرأت مقال العقاد ؟

يضحك ملء فيه وهو يضيف :

ـ قال ـ فيما قال ـ لو رأيت النحاس يسير على أربع لما استغربت وما فزعت ..!

يضحكان معا . كل منهما متعصب متطرف . لكنهما يتساءلان ويناقشان بفكر متفتح . يغيب كل منهما فى كليته ليتابع دروسه .

كنا فى حى المنيل ننتقل الى الجامعة على ظهر قارب يقطع النيل بين ضفتيه. قارب صغير يسبح بمجدافيه او شراع . كان يحمل اكثر مما يطيق .

ـ تعال اركب . لا تخف . المسافة قريبة .

ويزدحم الطلبة على جانبي القارب. ولكن البحر «النيل» كان من سعة الصدر بحيث لا يثور ولا يضطرب. هادىء صبور مانح معطى.. ويضج المركب بالنقاش الحاد.. وكأن أحزاب مصر كلها تجمعت فى القارب الصغير. . كان لكل منهم رأى لا يتنازل عنه . الا أنا فقد كنت اسمع وأعى وازداد حيرة، ولكنى أتجه واستفيد من تحليلات طلبة كان يقود النقاش فيها الحقوقيون .

ثورة علي الانتظام

أخذت بالجامعة ـ كما لم أؤخذ بالقرويين من قبل ـ دار علم تعج بالأساتذة. بالأسماء اللامعة، بعضها لم يتردد صداها فى الحياة الثقافية العامة، ولكنها لامعة فى الجامعة لها صداها فى حقول المعرفة، وتقديرها بين الطلاب. تعج بالطلاب والطالبات، يترددون على المحاضرات والدروس، تملأ نفوسهم روح الأمل، يضج بين جوانبهم الشوق الى المعرفة، والى الوظيفة العمومية، يعدون علاقاتهم الجامعية بالسنوات، وسنواتهم الجامعية بالإمتحانات، طالب بكلية الآداب منهم استاذ المستقبل، طالب بكلية الحقوق منهم رئيس حكومة فى السنة الأولى، وفى السنة الثانية وزير. وفى الثالثة وكيل نيابة. وعندما يتخرج يجد نفسه محاميا تحت التمرين، تلاحظ ذلك وأنت تنظر فى وجوههم شباب يافعين. تبدو النعمة والعافية، على وجوه بعضهم والأناقة والرفاة فى ملابسهم. كثير من أبناء الوزراء والموظفين والفلاحين الكبار الأغنياء وأغلب الذين وصلوا إلى مكانة فى الدولة كانوا من الحقوقيين.. يبدو الفقر والحاجة فى وجوه طلبة الآداب وعيونهم. ملابس الكثيرين منهم متواضعة تحسبهم حديثى التعرف إلى البذلة (الفرنجى). الطبقية واضحة سافرة حينما يلتقى هؤلاء بأولئك بميدان الجامعة فى مظاهرة

سياسية أو في قاعة المحاضرات الكبرى في مهرجان ثقافي . أحسب أن طلبة كلية الحقوق كانوا يترفعون على طلبة الآداب. أحسب أن طلبة الآداب كانوا يعتزون بكليتهم التي تجمع مجد المعرفة من اطرافه.. فيهم الفيلسوف.. والأديب.. والباحث.. والمؤرخ.. والجغرافي.. والمتحدثون بلغات العالم: من الفرنسية والانجليزية، حتى اليونانية واللاتينية.. حتى الفارسية والتركية صراع صامت بين الطلبة وأحسبه بين الأساتذة كذلك .

حملت معي من المغرب ثورتي على الانتظام. في القرويين ثرت على الانتظام في سلك الدراسة الذي يسلمني الابتدائي منه إلى الثانوي، ويسلمني الثانوي إلى العالي لأصبح «عالما» بعد سنوات العمر. كنت أحسبه عمرا طويلا، أدركت منذ البداية أن الانتظام في الدراسة المنظمة سيضيع عليّ كثيرا من السنوات مع علوم لست في حاجة إليها أو ظننتها كذلك، ومع اساتذة لن استفيد منهم، مادمت قادرا على أن أحيط بما في الكتاب دون مساعدتهم، قررت في خلدي أن وقتي أثمن من أن أهدره في نظام تعليمي، ولو كان ينتهي بي إلى اجازة، غير ذات أهمية. اخترت دروسا من هنا وهناك. كان بعضها في القسم العالي وبعضها في الثانوي أو الابتدائي. الشهادة التي أريدها هي أن افتح فكري على الثقافة العامة. استفيد من الدرس الذي أمنحه ثقتي. أهجر الدرس الذي لا أتجاوب معه .

الثورة على الانتظام فى القرويين لم تأتنى من استهانة «بالعلم» أو بالعلماء، ولكن من حرصى على حرق المراحل، ثم من عدم تقديرى للمنهج الذى اختاره الذين وضعوا منهج تنظيم الدراسة فى القرويين. ثم، وهذا مهم، جاءت من تأثير بعض أساتذتى الوطنيين الذين كان بينهم وبين بعض ما يدرس، وبعض من يدرس فى القرويين ودٌ مفقود ، كانوا ثوريين، ويريدون أن يبثوا فى طلبتهم روح الثورة، ولو بالسخرية من بعض الذين اختيروا للتدريس فى القرويين دون أن تكون لهم أهلية لذلك. فى الوقت الذى كانوا يلهجون بالتقدير للأساتذة الذين أكدوا وجودهم العلمى وأكدوا احترامهم فى مجتمع العلماء .

نفس الفكرة، فكرة الثورة على الانتظام فى السلك الدراسى ركبتنى فى القاهرة. وزعت وقتى بانتظام بين دروس الأدب والفلسفة والتاريخ فى كلية الآداب. بعض هذه الدروس فى السنة الأولى : تابعت فيها محاضرات فى الفلسفة كان يلقيها الدكتور ابراهيم مدكور ، قبل ان يهجر الكلية إلى مجلس الشيوخ ـ ولم يكن شيخا ـ ثم يعود من السياسة إلى الثقافة والعلم فى مجمع الخالدين .

جاذبية الكليتين

كان إصرارى على الالتحاق بكلية الحقوق دافعا لى على أن أواصل حضور المحاضرات المهمة أو اعتبرها مهمة . «مدخل القانون» درس

يلقيه استاذ شاب جميل الطلعة عبوس صارم النظرة بعينيه الزرقاوين تحت نظارتين سميكتين، كان اسمه «بغدادى» محاضراته صعبة الادراك ولكنها شائقة مشوقة تعود بى إلى ما قرأت من قبل - شذرات هنا وهناك - عن فكرة القانون من أى نبع فكرى أو دينى أو حياتى نشأت. محاضراته كمحاضرات زملائه : عبدالحكيم الرفاعى فى الاقتصاد السياسي، وسامى جنينه فى القانون الدولى ، والرجل الفاره الطول الأشقر الوجه (انسيت اسمه) فى القانون الرومانى، كلها تثير الجدية فى المدرج، لا صوت يرتفع إلاّ صوت الاستاذ . بعضهم غير جهورى الصوت تمتص أنفاس الطلبة وسعة المدرج نبراته. وحتى ينتصر الطلبة على الوضعية غير المريحة فى مدرج واسع، لم يعرف بعد مكبر الصوت، كانوا يكتمون أنفاسهم، ويمنحون كل قواهم لالتقاط الكلمات يسجلونها فى مذكراتهم. فهموا أم لم يفهموا . الأستاذ يحاول أن يشرح، وهم يحاولون أن يسجلوا. أما فهم الدرس فموكول الى «المذاكرة» أى مراجعة المذكرات التى كتبوها اثناء المحاضرة، أو مراجعة كتاب الأستاذ، ولا يحصل عليه إلاّ الذين تسمح امكانياتهم بذلك. استاذ أو استاذان كانا يثيران المدرج بعاصفة من الضحك أحيانا تخفيفا من الجدية الصارمة التى تطبع المحاضرة. أحدهما الشيخ محمد أبو زهرة، وقد كان يدرس الشريعة الاسلامية: جانب الحقوق المدنية والاقتصادية

والجنائية فيها . كان درسه حافلا بالمعلومات، قوى الصوت فصيح التعبير قوى الحجة فى التبليغ والاقناع، درسه يفرض الاحترام والتقدير. ورغم ذلك فهو سريع النكتة سليط اللسان أحيانا يلسع الطلبة بنكتة ساخرة تثير عاصفة الضحك. والطلبة فى المدرج لا يكتمون ضحكتهم المدوية اذا كانت النكتة فى الصميم، وأحيانا لايكتمون ضحكة باردة اذا كانت نكتة الأستاذ «بايخة» . يفهم ذلك فيرد عليهم .

ـ والله ما بايخ إلاَّ انتو ...

ويرتج المدرج بالضحك. ويعود الأستاذ ابو زهرة الى الجد، يتحرك رأسه بعمامته المنسقة وجسمه الضخم بجلبابه الفضفاض. وكان درسه يقنع بطريقة غير مباشرة بأهمية الشريعة الاسلامية فى تنظيم المجتمع الجديد والحفاظ على حقوق المجتمعات المعاصرة.

أستاذ أخر الدكتور سعيد مصطفى السعيد كان يدرس القانون الجنائى. قصير ضخم الرأس على قصر فى العنق يجلس خلف الطاولة وبجانبه أوراقه يرتدى ككل أساتذة الحقوق «روب الجامعة» أسود تزينه أشرطة خضراء تحسب الرجل «أحدب» وماهو بأحدب، فى المحاضرات الأولى أخذ يحلل أنواع المجرمين وصفاتهم الخلقية والجسمية بعد أن قدم صورا لأنواع الجرائم، وكان من بين المجرمين من يشير شكلهم إلى طبيعة الإجرام فيهم . ومن بعض صفاتهم ضخامة الرأس، قصر

القامة، تقوس الظهر، غلظ الشفتين، ظلام الوجه، حدة الصوت. وضجت القاعة بالضحك كما لم يشهد المدرج ضجة ضاحكة من قبل. أجال الاستاذ الدكتور عينه فى المدرح وعلى فمه ابتسامة معبرة :

- مالكم تتطلعون بفضول إلى وجهى.. أنا لا أتحدث عن نفسى.. أتحدث عن أحد منكم. تطلعوا إلى المرآة بعد أن تعودوا إلى البيت.

وضج المدرج مرة أخرى بالضحك .

كنت أحضر المحاضرات وليس لى أمل فى أن أكون رئيس حكومة أو محاميا . فأنا مجرد مستمع مجتهد. أسجل - ما يمكننى - من المحاضرة كلما كانت لغة الاستاذ عربية فصيحة أو قريبة من الفصيحة، ويضيع عنى كثير من العلم كلما تحدث الأستاذ فى الاقتصاد باللهجة الدارجة المصرية التى لم أكن قد أتقنتها بعد. فقد كانت غريبة على مسمعى غرابة اللغة الانجليزية ، وبقدر ما ما كان الشيخ أبو زهرة فصيحا كأزهرى، كان الدكتور الرفاعى عامى اللغة يتحدث بلهجة فلاح أو صعيدى فى الاقتصاد السياسى وفى نظام البنوك وتداول السندات وأعود إلى المنزل مع المذكرات المنقولة وكتب الأساتذة كلما تمكنت من شراء كتاب منها . لم أهمل كلية الآداب في الوقت نفسه فقد كنت اختار بعض محاضرات الأدب والفلسفة والتاريخ .

ومر عام. وليس لى سبيل للالتحاق بالكلية التى كنت أفضلها. وحسبت أن أحد أساتذة كلية الآداب الذين حملت لهم من المغرب تقديرا

فائقا بما قرأت من مقالاته هو الأستاذ الطيب الودود عبدالحميد العبادي. يمكن أن يساعدني على اختراق باب كلية الحقوق . زرت الأستاذ فى منزله دون استئذان لعله فوجئ بهذه الجرأة ، ولكنه كان يعرف المغرب عن طريق تاريخه ، وهو الذى أرشد الأستاذ الدكتور حسين مؤنس ان يقدم بحثه للماجستير عن تاريخ المغرب. فارتبط بتاريخ هذه البلاد وبحاضرها ـ وبالغرب الاسلامى جميعه ـ منذ توجيه العبادى له حتى آخر رمق فى حياته .

فكر الاستاذ العبادى قليلا فى طلبى . وقال فى لهجة الناصح الأمين .

ـ لم اخترت كلية الحقوق. ستدرس فى هذه الكلية القوانين المصرية، وستجد فى بلادك القوانين المغربية. ستكون اذن غريبا فى وطنك. أما اذا التحقت بكلية الآداب فانت مواطن فى بلدك هنا وهناك .

لم يكن فى حاجة إلى كبير مجهود لاقناعى. لم أكن فى حاجة الى عميق تفكير لأقتنع، خرجت من زيارته وأنا مصمم على أن أشارك فى امتحان المعادلة للبكالوريا التى كانت كلية الآداب ستنظمه، حضرت للامتحان ونجحت. والتحقت بأول سنة فى كلية الآداب .

إذا كنت قد قطعت الصلة بكلية الحقوق كطالب، فقد ظلت صلتى كمتابع للعلوم القانونية التى لا تؤهل لرياسة الحكومة ولا للمحاماة ،

ولكنها تؤهل للثقافة العامة. فالحقوقى لا يمكن إلا أن يكون أديبا، وإلا كان ناقص المعرفة بنفسية الذين يعاملهم، قليل الادراك لعقلية القاضى، والمتقاضى على السواء، كثير من الحقوقيين فروا من المهنة الى الأدب. كان منهم المفكر المسرحى الروائى توفيق الحكيم الذى بدأ حياته نائبا فى الأرياف وعادت إليه الروح مفكرا من «القصر المسحور» و«عصفور من الشرق» و«بيجماليون» و«ياطالع الشجرة» وأهل الكهف وعشرات المسرحيات والروايات والارتسامات الفكرية. أفادته الدراسات الحقوقية فى معرفة الحق وصاحب الحق وضائع الحق، وأفاده اتجاهه الأدبى فى تعميق دراسته لنفسية هؤلاء جميعا وغيرهم من الذين تحركوا فى التاريخ، تاريخ اليونان وتاريخ العرب وتاريخ مصر، وواقع الناس جميعا. خسره القانون، وربحه الأدب، ولو واصل مسيرته من نائب فى الأرياف لأنهى حياته قاضيا فى الاستئناف. ولما كان بينهما توفيق الحكيم .

كثيرون غيره هجروا الهندسة (على محمود طه) والطب (أحمد زكى أبو شادى) الى الشعر، أو الى القصة (يوسف ادريس) ولو تابعوا المسيرة لما كانوا اطباء ولا مهندسين ناجحين .

مع طه حسين

فى كلية الآداب التقيت بأساتذة أعرف عنهم اكثر مما يعرف كثير من زملائى الطلبة، كما كان الأمر بالنسبة لكلية الحقوق، كان من بينهم طه حسين. وقد اختار فى سنتنا تلك أن يخالف المألوف فى دراسته الجامعية، كان من عادته أن يتناول فى دروسه مع طلبة السنتين الثالثة والرابعة دراسة الأدب الجاهلى بطريقته التى اتبعها فى كتابه فى «الأدب الجاهلى»، الذى أثار عليه ضجة كانت من اسباب شهرته، ثم الأدب الأموى والعباسى بطريقته التى اتبعها فى كتابه حديث الأربعاء، ولكن بأسلوبه الجامعى المدقق الذى يقف عند الأفكار الكبرى فى الأدب، وليس عند تاريخ الأدب الذى كان يتركه عادة لدروس يقوم بها معيد فى الكلية تحت إشرافه، ويتابع فيها منهجه العلمى. ولكن فى سنتنا تلك إرتأى ان يبدأ دراسته مع طلبة السنة الأولى وبالأدب الحديث، ولم يكن من برامج الكلية دراسة الأدب الحديث. فالمحدثون لم يكونوا ممن يدخلون حرم الجامعة، لأن التاريخ لم يعترف لهم بالمكانة التى اعترف بها لامرىء القيس أو أبى تمام أو المتنبى أو المعرى - وبدأ طه حسين دراسة الأدب الحديث ببداية عصر النهضة، فى مصر طبعا . فالبلاد العربية الأخرى يكفيها أنها عرفت مجد الأدب شعره ونثره فى التاريخ ، أما النهضة فقد بدأت بمصر. وتوقفت عند مصر..

كان طه حسين يدخل حرم الكلية كأستاذ وعميد. كان يشعر بكرسيه الثابت الصامد بعد أن انتصر فى عدة معارك أرسى بها قدمه كأستاذ الجيل، وقدم الكلية كمركز لحرية البحث والدرس والتفكير، كان يدخل باب الكلية وكاتبه الخاص يتأبط ذراعه ويرشد خطواته بصوت هامس فلا يكاد يتعثر او يخطىء حتي اذا اقترب منه استاذ يحييه كان أسبق منه فى ذكر اسمه وتحيته والحديث إليه، كان الطلبة والأساتذة يتوقفون فى سيرهم اذا ما أهل بباب الكلية في قامته المستقيمة وبطربوشه الطويل وهندامه الأنيق. يشعر بأنه يدخل محراب علم ومعرفة يخطو فيه بحذر. يقصد مكتبه ـ عادة ما كان يأتى قبل موعد الدرس بساعة أو اكثر ـ ليباشر شئون العمادة قبل ان يفرغ لشئون الدرس، وينتهى من دروسه ليختلف الى مكتب العميد يباشر شئون العمادة ويتحدث مع الأساتذة في مشكلاتهم ويستقبل زائرا أو مريدا .

لم يتخلف عن موعد دروسه، ولا وصل متأخرا عن موعد.يلقى الدرس فى خمسين دقيقة، وكأن فكره مع الساعة، يبدأ الدرس بربط الصلة مع المحاضرة السابقة ويستمر فى الجديد من القول حتى اذا اقترب موعد النهاية بدأ يلخص الأفكار التى قدمها حتى تكون الخاتمة مع الجرس الذى يعلن نهاية الحصة .

مرة واحدة أخطأ الحساب فقاطعه الجرس وهو يلخص. سكت برهة ثم قال : ولم يكن يخرج عن موضوع الدرس فيما يقول :

ـ اسخف شىء فى دور العلم هو هذا الجرس

وأخذ من فسحة مابين الدرسين دقيقتين أو ثلاثا أنهى فيها حديثه.

كانت محاضرته لا تقبل المناقشة. فهو يملى كما يملى كتبه. لا يناقشه الطلبة ولا يبادلهم مناقشة. ربما كانت هذه السيرة تختلف عن سرية محاضرى الجامعة. أو ما يجب أن تكون عليه محاضرة الجامعة ـ ولكن طه حسين يخلق من نفسه محاورا يلقى الأسئلة والاعتراضات ويناقشها ويجيب، كما لو كان هو الطالب وهو الاستاذ .وهو فى كل ذلك يثير قضايا أساسية حول النظريات الأدبية وفنون الشعر والنثر مرتبطة بحياة الشعراء والكاتبين الذين يدرسهم .

فى الأدب الحديث درس كل الذين ابدعوا منذ نهضة مصر على عهد محمد على . وتوقف عند اسماعيل صبرى والبارودى وشوقى وحافظ. لم يدرس الأحياء فالأحياء من الأدباء لم يكونوا يدخلون حرم الجامعة لا فى الدراسة، ولا فى الرسائل الجامعية .

كان يكلف الطلبة بأبحاث على هامش ما يدرس. واختار احد الطلبة جانبا من شعر شوقى وقدم بحثه للأستاذ كسائر الطلبة. تعرض البحث إلى حادث غرامى مع سيدة من سيدات المجتمع فى عهد شوقى بكلام ربما كان جارحا لكرامة السيدة . تحركت مشاعر الغضب فى الدكتور، وهو يطلب من الطالب ان يقرأ فقرات من بحثه حتى اذا شفا غليله من كلامه الغاضب نهض طالب آخر ليقول بصراحة :

ـ يا استاذ هذا البحث كتبه فلان ومنشور منذ سنوات فى مجلة ...

ما رأيت الرجل اهتز من الغضب وهو يقول بلغته العربية التى لم يتخل عنها حتى فى ساعات الغضب.

ـ وهذه أيضـا .. تسرق البحث وتقدح فى عرض سيدة.. لا .. هذا كثير.. ما أدرى : كيف عالج هذا «الكثير» فى ورقة الامتحانات فالدكتور طه لم يكن يغفر لمن أساء.. يقول هذا الذين عرفوه عن قرب .

لم يكن ليسمح بأن يحدث أو يتحدث الطلبة إليه باللهجة الدارجة. وزاره مرة أحد الطلبة فى منزله (نعمان عاشور) وكان يكتب مسرحياته الجيدة باللهجة العامية، قال نعمان وهو يقدم نفسه :

ـ أنا أحد طلبتك يادكتور

فأجابه طه حسين بصراحته الساخرة :

ـ لا .. لست من طلبتى .

ـ لقد حضرت دروسك ولو أنى خريج القسم الانجليزى .

ـ يا استاذ طلبتى لا يكتبون بالعامية .

كان لا يتحدث إلى زائريه والأساتذة من حوله بغير العربية الفصحى كما لايقبل أن يتحدث لبعض الأجانب الذين كانوا يزورونه بفرنسية مكسرة .

أكبر الذين كان يعتز بالعربية كلغة تملك ثقافة وحضارة وفكرا وعلما. لذلك تحس بأنه يشعر بهويته وهو يتحدث بها ويملى ويحاضر. ويرتفع إلى أعلى قمة السخرية وهو يقرأ لكاتب يلحن أو يستعمل كلمات مرذولة، ولو عبروا عن آراء متميزة. وكانت سخريته لاذعة من الدكتور عثمان امين وهو يطلق على نظريته الفلسفية : «الجوانية» .

كنت أتابع الدكتور طه أينما حاضر أو ناقش أو خطب. حاضر عدة مرات في قاعة «يورث» بالجامعة الأمريكية بالقاهرة في موسم المحاضرات. القاعة تمتلئ كلما حاضر أستاذ متميز، ولكنها لا تسع روادها حينما يحاضر طه حسين. وكان يختار موضوعا أدبيا غير أكاديمي أو جامعي ويأخذ حريته في مناقشة فكرة ما، والرد على خصوم الفكرة، تشعر وأنت تستمع كأنك امام محام ويختلق خصومه ليقنع سامعيه.

ويتميز طه حسين حينما يناقش رسائل الماجستير أو الدكتوراة. ولعله لم يكن يقبل أن يناقش إلا المتميزين من الأساتذة. ناقش سهير القلماوى وشوقى ضيف وعبد الرحمن بدوى وغيرهم كثير . لم يكن يناقش بحدة، ولكن بعمق شديد. وأحسب أنه كان يبذل جهدا في دراسة «الرسالة» وكان يبدو منصفا أكبر ما يكون الإنصاف. يبدأ حديثه بإبراز مزايا البحث وأسلوبه والنتائج التى توصل إليها، حتى إذا أقنع الحاضرين – وكان يحضر مئات من الأساتذة والطلبة في مناقشاته – بجودة البحث وجهد الباحث، توقف قليلا ثم استأنف: إنما .. وتضج القاعة بالضحك فيبتسم. فالحاضرون يتوقعون ما بعد: إنما ... ويبدأ فى توجيه انتقاداته للموضوع والمنهج والأسلوب والأخطاء العلمية واللغوية والنحوية حتى يطفئ كل ابتهاج الطالب وهو يمدحه فى فضاء

رحب من اليأس، وكل الآمال التى عقدها على «الميزة» الممتازة فى بحر من الآلام توقعا «لميزة» عادية ... ولكن الأمر اختلف مع طه حسين فى مثالين اثنين: أحدهما مع عبد الرحمن بدوى الذى ناقش رسالتيه للماجستير ثم الدكتوراة. فقد تحدى بدوى العرف فكتب رسالتيه بالفرنسية عن نظريات فلسفية معقدة هى النظرية الوجودية فكان تقدير طه حسين لشجاعة الطالب وتوفيقه فى البحث ولغة البحث واسلوبه ومنهجه يفوق كل اعتراض. فلم تأت «إنما» أثناء المناقشة لتوحى بأن الدكتور سيهدم ما بنى. وكانت الميزة الممتازة للبحثين معا لتؤكد علم عبد الرحمن بدوى وتفوقه العلمى أستاذا ومؤلفا ومحققا ومترجما. والمثال الثانى كانت «إنما» تتصدر مناقشة الدكتور طه لبحث قدمه طالب لنيل درجة الدكتوراة عن موضوع يتعلق بكتاب قديم فى التربية والتعليم، كان اختيار الموضوع تافها، وكان البحث والمنهج والأسلوب أكثر تفاهة. ولذلك بدا الدكتور طه بمهاجمة موضوع البحث وانتهى بالأسف على رسالة جامعية تقدم فى هذا المستوى.

كانت مناقشة الرسائل الجامعية ثرية بالمعلومات والإضافات التى يقدمها خمسة من الأساتذة. وبالمناقشة الحادة احيانا التى تعطى لحرية البحث الجامعى دلالته، والتى تتيح لطالب الماجستير أو الدكتوراه فرصة مهمة لإبراز شخصيته والدفاع عن عمله تبلغ به أحيانا حد رفض وجهة

نظر الأستاذ متشبثا بوجهة نظره. وكانت هذه المناقشات جزءا مهما من النشاط العلمى فى الجامعة.

وقف طه حسين يرثى الكاتبة الأديبة التى ملأت قلوب المثقفين المصريين حبا وتقديرا وإعزازا فى الثلاثينيات، كلهم توافدوا على ندوتها (صالونها) الثقافية، كلهم تركت فى نفوسهم آثارا من حب بلغ حد الهيام عند بعضهم، وتقديرا بلغ حد الإعجاب عند الكثيرين منهم، وحينما أصيبت بنكبتها فقدت الحياة الثقافية فى مصر الإحساس الناعم الذى كانت تنفثه فيها الفتاة اللبنانية الجميلة المثقفة المتحضرة. بكاها كثير من المثقفين فى محنتها قبل أن تموت. وعادت إلى مصر بعد أن شفيت وأفرج عنها من مستشفى (معتقل) المجانين، فكانت وهى تحاضر فى قاعة يورث مئات الشباب المثقفين زهرة ضائعة بالبهاء والجمال والفكر النير، رغم التاج الفضى الذى كان يجلل هامتها. عرفت ساعتئذ لم أحبها من أحبها من كبار المثقفين؟ لم أعجب بها من أعجب؟ سنة أو بضعة أشهر بعدها كان كبار المثقفين فى مصر يمجدون ذكراها الأربعين بعد أن قضت فى لبنان، فكانت آخر السيدات العربيات اللائى أزهرن الحياة الثقافية العربية بالأدب الرفيع والذوق الجميل والعلاقات السامية. كان طه حسين وهو يرثيها يعتصر الألم الذى أحس به المثقفون ، كلمات نقلت إلينا نحن الحاضرين أى اثر تركته مى زيادة فى

الأدب العربى الحديث والثقافة العربية والحياة الفكرية فى الوطن العربى.

ولعل الصفة التى قدمت طه حسين إلى جمهور الجامعيين والمثقفين فى مصر عند عودته من فرنسا: صفة التمرد على المسلمات فى الأدب والعلم والفكر، لم تخنه بعد المضايقات التى واجهه بها خصوم الحرية الفكرية. ولذلك لم يكن يتحدث أو يناقش أو يخطب إلا ليبدى رأيا جديدا أو فكرة جديدة أو اعتراضا على مسلمة من المسلمات. حضرت مرة محاضرة فى كلية الحقوق ألقاها الاستاذ العشماوى أحد كبار القانونيين فى مصر ووزير للمعارف فى إحدى الحكومات. وكان من رأيه أن البلاد العربية تصرف كثيرا من طاقاتها فى إنشاء الجامعات، والرأى عنده أن تكتفي بالجامعة المصرية التى تفتح أبوابها للطلاب العرب. ولم يكد ينتهى من محاضرته، وقد حضرها عدد من كبار الأساتذة والمثقفين، حتى نهض الدكتور طه دون استئذان ليواجه صديقه العشماوى بكثير من العنف فى لغة محببة، ظاهرها فيه الرحمة، مطالبا بتشجيع كل البلاد العربية على إنشاء مزيد من الجامعات، لأن الجامعة هى بيت العلم والبحث والحكمة والتقدم الحضارى. ولذلك كان طه حسين هو صاحب فكرة إنشاء جامعة الإسكندرية منفذها. وكان يسعى إليها كل أسبوع ليلقى محاضراته على طلابها قبل أن ترسخ أقدام الجامعة الفتية.

أساتذة يفرضون مكانتهم العلمية

من الأساتذة الذين كانوا يملأون الفضاء العلمى فى كلية الآداب أحمد أمين، وأمين الخولى وعبد الوهاب عزام. كان لكل منهم أسلوبه المتميز فى الدراسة والبحث ، إذا كنت قد استفدت من بعضهم علما وثقافة وسعة أفق، فقد كان منهج بعضهم فى البحث والمحاضرة يعتمد على إثارة القضايا الشائكة بعقلية المتحرر وأسلوب المهاجمة. أحمد أمين محاضر هادئ الفكر مسالم يناقش النظريات التى يعرض لها وهو يدرس الحياة العقلية فى تاريخ الإسلام مناقشة هادئة. ينتقل من الفصحى إلى الدارجة فى يسر حتى لتحسبه - وكثيرا غيره من الأساتذة - لا يتحدث فى قضايا ترتفع عن لهجة الشارع. ولكنك لا تملك إلا الاحترام والتقدير للفكر الواسع والعلم الغزير.

دخلت مكتبه مرة - وقد أصبح عميدا - أناقش معه موضوعات ، فما كدت أذكر إسمى حتى فاجأنى:

- أنت الذى أرسلت إلىّ مقالا عن ... لمجلة «الثقافة».

وكانت عنايته بالمقال وصاحبه واهتمامه بقراءته تعويضا لى عن عدم نشره.

كان عميدا يفرض وجوده فى العمادة كما يفرض وجوده فى

الدرس. قليلا ما يناقشه الطلبة لأن مناقشته للموضوع وتمكنه من معلوماته وطريقته المبسطة فى الأداء تقنع الطالب دون مناقشته. ولأن اسلوبه الهادئ لا يستفز الطلاب بقدر ما يدفعهم إلى احترام الأستاذ والموضوعات التى يعرض لها.

الأساتذة والطلاب يعرفون - بتقدير واحترام وشئ من الخوف - أى رجل هذا الذى يحتل المكتب وعلى واجهته كلمة «العميد» أصدر تعليماته للطالبات أن يضعن على رؤوسهن «برنيطة» كما يضع الطلبة الطربوش دون أن يجرأوا على أن يبدو حاسرى الرؤوس. خرج من مكتبه فى طريقه إلى الدرس وقد لاحظ مجموعة من الطالبات تمسك إحداهن «ببرنيطتها» فى يدها تخلصا من الحرارة اللاهبة فارتفع صوته من بعيد:

- أين البرنيطة؟ ألم أقل لكن أن تغطين شعوركن ببرنيطة؟

ولم تعش البرنيطة على رؤوس الفتيات بعد أن انتهت مدة عمادته.

الدكتور عبد الوهاب عزام دائرة معارف لا تكاد تعلن عن نفسها يتحدث عن الأدب العربى فى كل عصوره من الجاهلى حتى عصوره الزاهرة فى العهد العباسى، كما يتحدث عن الأدبين الفارسى والتركى ويتقن لغتهما. ويستشهد بالفردوسى كما يستشهد بالمتنبى، ويقارن بعمرو بن كلثوم وزهير ثم ينتقل إلى المعرى. جمع العلم فى تواضع جم

يلقى محاضراته في بساطة وبعربية فصحى لا تفلت منه كلمة عامية. تشعر في درسه بأنه صديق كبير في الوقت الذي تشعر بأنه معلم كبير. لم يكن يثير مشكلات نظرية بقدر ما كان يثير مشكلات لغوية، ويلجأ في كثير من الأحيان إلى المقارنة بين الكلمات في اللغات الشرقية والغربية التي يتقنها كالأردو إلى جانب الإنجليزية والفارسية والتركية. أنتخب عميدا هو الآخر. وفي درسه القادم إبتدرناه بهذين البيتين على السبورة:

أتتــــه العمــادة منقادة   إليه تجــرر أذيــالها

فلـــم تك تصلـــح إلا له   ولم يك يصلح إلا لها

سر سرورا كبيرا لهذه التحية الكريمة، وبدأ سروره علي وجهه السمح وهو يتمتم بالشكر.

رشحه علمه وخلقه لمناصب غير جامعية. عين أستاذا للأميرة فوزية حينما خطبها ولى عهد إيران، ثم أصبحت إمبراطورة إيران المطلقة فيما بعد، ليعلمها الفارسية حتى لا تجد حرجا في حياتها الجديدة. ولعل دروسه لم تنفع فيما كتب لهذا الزواج من فراق. ثم عين سفيرا في السعودية بعد ، أو قبيل زيارة الملك عبد العزيز لمصر. سألناه:

– أتفضل السفارة على الكلية؟

فأجاب مبتسما يؤكد وجهته العلمية:

- سأنتهز فرصة وجودى فى الجزيرة العربية لأقوم بتحقيق عن الأماكن التى تحدث عنها الشعراء الجاهليون.

وما أظن إلا أنه وفيّ بوعده

قابلته فى السعودية بعد سنوات، لعلها كانت آخر حياته، كان أستاذا فى الجامعة ولم يكن سفيرا يجتمع حوله كثير من الأساتذة كرواد معرفة ثرة وخلق كريم.

كان ، وهو استاذ وعميد، يعتز بعروبته، ويجد نفسه فى مكانة بين الطلبة العرب الذين كانوا يملأون رحاب كلية الآداب من العراق حتى المغرب. واقترح علينا أن نكون «جماعة الطلبة العرب» فاخترناه رئيسا لها، كان ذلك قبل التفكير فى إنشاء الجامعة العربية واختيار ابن أخيه عبد الرحمن عزام أمينا عاما لها. وكانت جماعة الطلبة العرب نواة لبعث التفكير الوحدوى العربى على النطاق الجامعى. وكانت عضويتها بالنسبة لى مفخرة، لأن المغرب بدأ يأخذ مكانه فى الأوساط العربية.

الأستاذ الثالث من هذه الثلة من الأساتذة الكبار: أمين الخولى. شيخ معمم يختلف عن المعممين والمطربشين على السواء. كان أكثر ثورية من كل من عرفت من الأساتذة. دروسه فى البلاغة والقرآن والأدب المصرى تختلف عن كل الذين درسوا هذه المواد. لايدرس علم البلاغة التى يتركها لأستاذ آخر بمقدار ما يدرس نقد البلاغة، فيستعرض كل

النظريات التى كتب عنها البلاغيون الأقدمون، ويضع نفسه فى مواجهتهم يناقشهم وينتقدهم ويشير إلى مواطن الامتياز فى نظرياتهم. لا يفصل البلاغة عن الأدب، عن النقد، عن نصوص القرآن. فى كل درس له جديد، لا تستطيع أن تستعين عليه بالرجوع إلى مرجعية أو كتاب فهو هو الكتاب وهو المرجع . ولا يطالب طلبته بأن يحفظوا ما فى الكتب أو ما يمليه - وهو لا يملى - من محاضرات، وإنما يطلب إليهم أن يفكروا، وأن يبدوا رأيهم، ولو كان غير مستقيم. تبدو جدية الطالب فى شخصيته. وحينما تخالفه الرأى وتبدى شجاعة فى مواجهته يبتسم لك ابتسامة الرضا. وحينما تكرر ما قال مؤلف ما فى كتاب ما، أو ما قال هو فى محاضرة أو درس يعبس (يكشر) لك عبوس الغضب. ينتقل أحيانا من كرسى الأستاذ إلى صفوف الطلبة ويثير مشكلة بلاغية أو قرآنية ثم يأخذ فى الحوار كما لو كان سقراط بين رواده.

ظل يدرس نظرية الإقليمية فى الأدب، تمهيدا لدراسة الأدب المصرى، سنة دراسية كاملة. وفى كل درس كان يثور جدل حاد مع الطلبة العرب، وخاصة السوريين الذين ينكرون هذه الإقليمية كما ينكرون هم والعراقيون أن يكون هناك أدب مصرى أو أدب عراقى. فأبو نواس لم يكن عراقيا والمتنبى والمعرى لم يكونا سوريين. ويضحك وهو يرى الصرح الذى يقيمه فى دراسته ينهار، ويصر على رأيه بحجج يحسبها قوية، ولكنه لا يطمع فى الاقناع بها، ولعله لا يرغب فى أن يحول طالبا عما اقتنعه من نفسه ووصل إليه باجتهاده.

كان يثور على الإبداعيين دون أن يذكر أحدا باسمه. يتحدث يغضب مصطنع أو برضى مصطنع، وليس فى ذلك إلا معبرا، بأسلوبه، عن رأيه. فهو لا يتحمس لرأيه كأنه كتاب منزل. ولكنه يتحمس لحرية الرأى. فالحرية عنده كتاب منزل. يتحدى طلبته أحيانا إلى حد يبيح لهم أن يصحبوا فى الامتحان ما شاءوا من كتب ومذكرات. نقط الامتحان لا تعتمد عنده على حفظ المعلومات، لكن على شخصية الطالب فيما يبدى من رأى، وفى أسلوب المناقشة، ويتعرف على شخصية الطالب من المناقشة التى يثيرها فى قضايا الدرس. وكلما عارضه الطالب بالمنطق والحجة كان عنده طالبا مرموقا.

هكذا يبدو وهو يناقش رسائل الماجستير والدكتوراة قويا عنيفا يحاول والطالب يواجهه حتى إذا وجد فيه مجادلا عنيفا فى جداله - ولو ضد رأيه - كان تقديره ممتازا للرسالة وصاحبها . لم يكن أكثر قسوة، وهو يناقش، كما كان مع تلميذته وزوجته - فيما بعد - الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) لم يرحمها حتى بكت وهى تدافع عن رسالتها عن ابى العلاء . ولكنها كانت ألسن حجة واقوى فى المواجهة . ومن ثمة كان تقديره لها ولعلمها.

أحب طلبته كما أحبوه. وفى جلسات خاصة اقترح أن نكون جماعة أدبية تصدر مجلة وتناقش قضايا لا يتسع لها درس الكلية. فكانت

«الأمناء» وكانت المجلة بنفس الاسم. كان يعتبر العلم «أمانة» ومن ثمة جاء اسم الجمعية والمجلة «الأمناء». قابلته فى العراق - فى مؤتمر للأدباء العرب - بعد ذلك بسنوات فوجدت فيه «الأمين» الذى ظل على أمانته للفكر والأدب والعلم.

لعله لفت نظر العلماء إليه منذ مقالاته، كانت أول لقاء لى مع فكره المتحرر، التى كتبها فى الرسالة عن أثر القانون الرومانى فى الفقه الإسلامى. ما أظن أنه أقنع الكثيرين بهذه النظرية التى اعتبرت شاذة. ولكنه كان بها يحرك السواكن من المعقول المفكرة. وقد كان دائما يبدأ حديثه كلما تحدث فى الإذاعة بهذا النداء المثير: أيتها العقول المفكرة...

مع استاذ آخر عشت مستفيدا ومقدرا هو عبد الرحمن بدوى. لعله كان اصغر أستاذ بقسم الفلسفة فى كلية الآداب. والفلسفة مادة مهمة فى قسم اللغة العربية يدرسها الطالب من أول سنة حتى نهاية المرحلة الجامعية. السنة الأولى كانت تجمع جميع أقسام الكلية ليدرسوا مقررا واحدا فى الفلسفة. الثانية كانت تجمع طلبة شعبة اللغة العربية مع شعبة الفلسفة ليدرسوا المنطق. وكان عبد الرحمن بدوى استاذ المنطق فى سنتنا تلك. لم يكن يدرس المنطق كما عرفته الكلية، ولكنه كان يعود إلى الدراسات اليونانية والأوربية. ولا يتناول من النظريات إلا الجديدة والمعقدة والتى يصعب على الطالب أن يجدها فى كتاب. كانت وقدة علمه تبهر الطلبة ويستعصى عليهم أحيانا فهم ما يناقش، ولم يكن يملى مذكرات. لم يكن يقنع بما يدرس مما هو مقرر، وإنما كان يقترح على

طلبته أن يدرس معهم موضوعا آخر له صلة بالفلسفة والأدب. واقترح علينا - اختياريا - أن يدرس معنا كتاب أرسطو فى الشعر. كان يعتمد على النص اليونانى ويناقش النظريات الشعرية عند ابى الفلاسفة، وكنا نتابعه ونكتب ما يملى بالعربية عن اليونانية مستعينا أحيانا باللغات العديدة التى يتقنها: الألمانية والإنجليزية والفرنسية واليونانية القديمة وغيرها من اللغات.

موضوع البحث الذى طلب منى أن أعده كان عن اثر المنطق فى النحو العربى. وقد اعتبرت نفسى نجحت ايما نجاح وهو يرسم علامة ١٤ على ٢٠ فقليل من الطلبة من كان يحصل على المعدل.

كانت كتبه التى يؤرخ فيها للفلسفة والفلاسفة تملأ اسواق المعرفة فى جميع أنحاء العالم العربى وقليل من المؤلفين العرب من أنتج ما أنتجه عبد الرحمن بدوى فى الفلسفة والدراسات الإسلامية وتحقيق الكتب القديمة وترجمة المؤلفات الممتنعة فى لغاتها الأصلية، ولكنه يقدمها فى لغة عربية مطواع.

الجامعة فى مصر، على حداثة عهدها، كانت خلية ثقافية حافلة بالحركة والنشاط والحيوية. وخاصة كلية الآداب. لم تكن المحاضرات والدروس هى وحدها التى تستبد بنشاط الأساتذة والطلبة، ولا كان الاستعداد للإمتحانات، وهى أسلوب لا يزال ينزل بالتعليم الجامعى إلى التعليم الثانوى، هى التى تملأ الفضاء الفكرى للطلبة، ولكن الكلية

أنشـأت تقـاليد ثقـافـية. فكونت فـيـهـا عـشـرات الجـمـعـيـات، إلى جـانب الجـمـعـيـتين الخـاصـتين اللتين اشـرت إليـهـمـا: «جـمـاعـة الطلبـة العـرب» و«الأمنـاء» كـانت هـنـاك جـمـعـيـة لتنظيم المناظرات التى كـانت تقـتـرح مـوضـوعـات يـخـتلف الرأى فـيـهـا، ويـقـف المتناظرون من الأسـاتذة والطلبة والأسـاتذة من غـيـر الكلية الذين يدعون للمسـاهـمة فى التناظر، يـقـفون مـتـعـارضـين، كل منهم يناصـر وجـهـة نظر بحـجج علمية وتاريخـيـة وفكرية واجتمـاعـية، ومن الطريف أن تقـف سيدة من مثقفات مـصـر المشهورات آنذاك فى مـناظرة زوجـهـا، الذى وقـف لوجـهـة نظرها بالمرصـاد، فكانت الغلبة لهـا رغم قـدرته على «المصـارعـة» الفكرية. وكـانت هذه المناظرات تبعث حـيوية فى النشـاط الثقـافى الجـامعى، واذكر أن رئيسـهـا فى بعض فتراتهـا كـان مـحـمـد حسن الزيات، واسـتـمر رئيسـا لهـا بعد تـخـرجـه، وسيصل الزيات إلى وزارة خـارجية مصـر، ويختاره الله إلى جواره وهو عضو أكاديمية المملكة المغربية.

من الجمعيات التى لا تزال تحفل بها الذاكرة جمعية «الكراموفون»- الآلة التى كـانت آنذاك الوسـيلة لسـمـاع الموسـيـقى المسـجلة على الأسطوانـات . كـانت فى نادى الكليـة آلة بسـيطة يلتف حـولهـا عـشـاق الموسـيـقى الكلاسـيكيـة الغـربيـة من أعـضـاء الجـمـعـيـة، فكانوا يتـثـقـفون موسيقيا، ويستمتعون بالذى يفتقدونه فى الإذاعة.

وكان لكل قسم جمعية لتمتين أواصر التعارف بين طلبته وخريجيه تقيم من حين لآخر أمسية يحضرها بعض الأساتذة، وكان طه حسين وأحمد أمين ممن يحضرون هذا اللقاء الحر الممتع يخرج فيه الطلبة والأساتذة عما ألفوه من علاقة الأستاذ بالطلبة مما لم يؤلف عادة من علاقة الصديق بالصديق والأب بأبنائه.

وجمعية للمسرح يقدم فيها الطلبة أروع المسرحيات الغربية والمصرية. ولا أزال أذكر الصديق الأديب الناقد أنور المعدوى بقامته الفارعة وصوته الجهورى يتحرك على مسرح القاعة الكبرى فى الجامعة وهو يقوم بدور رئيسى فى رواية تاريخية.

الجامعة كانت جامعة. وقد منحت مصر حياة ثقافية حافلة. وحاولت - طالبا فى إحدى كلياتها - أن أكون عقلى وشخصيتى، على قدر ما استطعت فى ظروف الحرب والإحباط والبؤس.

مصر الديمقراطية

مصر من البلاد العربية الأولى التى سبقت إلى تنظيم الحكم تنظيما ديمقراطيا. وقد كانت ثورتها الوطنية موجهة ، فكانت ديمقراطية الحكم ترتبط بالاستقلال. ولذلك الاعتراف الشكلى بالاستقلال يرتبط بحقها فى تنظيم الحكم على أساس ديمقراطى. الإنجليز لم تكن ترعبهم ديمقراطية الحكم ولا الاستقلال بمقدار ما كان يرعبهم الجلاء.

مصر بالنسبة إليهم نقطة استراتيجية، لا يحكمونها لاستيطان الانجليز فيها، أو لاستغلالها الاقتصادى ، الفلاحى أو الصناعى، كما كان المفهوم الفرنسى للاستعمار، وكما جرب فى مستعمراته العربية (المغرب العربى) والأفريقية والأسيوية، ولو أنهم كانوا يستغلون زراعة القطن ويستغلون فقر الفلاح ليفرضوا السعر الذى يريدون وليودوا بالقطن المصرى الجيد المصانع الانجليزية بأبخس الأسعار ولكن الانجليز كانوا يحتلون مصر كنقطة استراتيجية، شريان يصلهم بآسيا، والهند بخاصة. ومركز تعسكر فيه قواتهم للسيطرة على القناة من أن تقع فى أيدى قوة خصيمة.

لهذا لم يكن يضيرهم فى شئ بعد ثورة ١٩١٩، التى لم تكن عسكرية كثورة عرابى ضد الأجانب سنة ١٨٧٢، أن يعترضوا على استقلال مصر، فالمفهوم الذى يمنحه الإنجليز للاستقلال، والذى يعنى بالأساس التحكم فى الشئون الداخلية بالشكل الذى يرتضيه المصريون،

ولم يكن يضيرهم فى شئ أن يؤسسوا نظامهم على أساس دستورى تتباين فيه السلطات ، ويستند فيها القضاء إلى قانون، وتتحكم الدولة فى ميزانيتها ومؤسساتها. ولعل ذلك مما يتفق مع المفاهيم الانجليزية التى تختلف فى الامبراطورية (ولو شكليا) عنها فى الجزيرة البريطانية.

لهذا وضعت مصر دستورها سنة ١٩٢٣ فأصبح هو المرجعية الأولى لنظام الحكم، مهما كانت صورته فى الثلاثين سنة التى تلت ذلك، أى حتى قيام الثورة وانتهاء عهد الملكية سنة ١٩٥٢.

الدستور أصبح الملجأ الذى يلجأ إليه السياسيون، ممثلون فى الأحزاب السياسية، ويجمعون كلمة الشعب حوله فى نضالهم فى الواجهتين الإنجليز والقصر. وفى واجهة ثالثة متفرعة عنها هى واجهة المتسلطين على الحكم ضد الإرادة الشعبية كلما حلا للقصر أن يستعين ببعض السياسيين الذين لم تكن لهم شعبية، فيكون منهم أحزابا ويسند لهم الحكم ضدا على المبادئ الدستورية.

حينما وفدنا ، نحن الطلبة المغاربة على مصر، كانت تدق وعينا السياسى كلمتان أساسيتان: الاستقلال والدستور. وكان الدفاع عن الدستور يسمو فوق الدفاع عن الاستقلال، فقد كانت معاهدة ١٩٣٦ قد ضمنت الاستقلال على نحو ما اصطلح عليه الوفد الذى فاوض والانجليز الذى اعترفوا. أما الدستور فقد كان معرضا للتجاوز من القصر، ومن السياسيين الذين لا تسندهم قوة شعبية، ولذلك كان الدفاع عنه يملأ الساحة السياسية والخطاب السياسى والأدبيات السياسية فى الصحف والكتب.

سابقة خطيرة جعلت الدفاع عن الدستور يطفح على وجه العمل السياسى هى إلغاء دستور ١٩٢٣ ووضع دستور آخر عرف بدستور صدقى يسلب الدستور الأول كل ميزاته الديمقراطية . ألغى دستور صدقى وأعيد دستور ٢٣ دون استشارات شعبية (فى الوضع والإلغاء والإعادة) الحكومة تقوم بالعملية والملك (فؤاد) يصادق وتعود الديمقراطية الدستورية إلى مصر دون كبير عناء.

الدستور كان ينظم الحكم فى مصر على أساس ملكية دستورية، كان حزب الوفد فيها يريدها ديمقراطية انجليزية: الملك فيها يلى ولا يحكم. وكان الملك فيها يضيق بهذه العقلية، ويفرض سلطاته ظاهرا وفى الخفاء ليجعل الملك يلى ويحكم. وإذا كانت معاهدة ١٩٣٦ قد دعمت معنويا الاتجاه الديمقراطى ممثلا فى حزب الأغلبية (الوفد) الذى حقق «الاستقلال بالمعاهد» فإن الملك الذى لم يطل به أجله بعد المعاهدة ظل على موقفه الذى تحول إلى موقف عدائى لتطبيق الدستور، وللحزب الذى يسند قوته الشعبية بالدستور. وورث عنه ابنه هذا الموقف الذى كان طبيعيا بالنسبة لنظام ملكى وجد نفسه محكوما بدستور، وبأغلبية شعبية لم يستطع أن يمتلكها ، لأنه ليس من سلالة مصرية، ولأنه لم يتكون كملك فى مناخ ديمقراطى . ولا تزال سلطات آبائه وأجداده الفردية تتحكم فى عقليته وفى مسيرته فى الحكم.

فى الفترة التى عاشتها مصر بين سنتى ١٩٣٦ و ١٩٣٩ سنة إعلان الحرب العامة ، كان الصراع قويا ليس ضد الانجليز الذين استراحوا على سرير المعاهدة، ولكنه بين القصر من جهة والقوة السياسية الشعبية من جهة أخرى. ورغم أن فاروق اكتسب شعبية من شبابه وقدرة الذين كانوا حوله يديرون سياسة القصر بحذق ومهارة، وكلهم من الأقليات السياسية التى تحمل عداء لحزب الأغلبية ، فقد اشتد الصراع بينه وبين حزب الوفد مما جعل الحكم الدستورى الديمقراطى يصطدم باتجاه الحكم الملكى المطلق ضدا على مبادئ الدستور، ولكن تحت ظلاله.

الصراع أفرغ الدستور من مضمونه. كان دستورا على غرار دساتير ما قبل الحرب يفصل بين السلطات، ويكون البرلمان من مجلسين: مجلس النواب، ومجلس الشيوخ. ينتخب الأول انتخابا مباشرا فرديا على أساس الأغلبية، والثانى خليط بين الانتخاب والتعيين. وكثيرا ما كان المعينون ممن يرشحهم القصر أو يرضى عنهم إذا رشحهم رئيس الحكومة . وكان المجلس الأول يقوم بالتشريع، وبمراقبة الحكومة عن طريق مساءلة الحكومة واستجوابها. ويصادق المجلسان على برنامج الحكومة الذى تضمنه «خطاب العرش» الذى يلقيه رئيس الحكومة عند افتتاح البرلمان بحضور الملك وباسمه. ويعتبر برنامجا للدولة ملكا وحكومة، بمعنى أنه يعبر عن سياسة الحكومة والملك. وذلك مما يقلل من الخلافات بين السلطتين، وهما دستوريا سلطة واحدة.

ولم تكن فى مصر مؤسسات بلدية وقروية منتخبة، ولذلك كان الثقل على الحكومة وهى تنفذ السياسة العامة وترعى المدن والقرى عن طريق الحكام (المحافظين) الاقليميين، ثم لم تكن هناك صراعات انتخابية على مستوى المجالس البلدية والقروية، فالموسم الوحيد للانتخابات هو موسم تكوين مجلس النواب الذى كان يتكون كلما سقطت حكومة لتلى آخرى كما أن مصر لم تكن قد عرفت تنظيمات نقابية ففى الأحزاب السياسية غنية فى الدفاع عن مصالح الفلاحين والعمال. ولعل الحركة الصناعية، التى كانت فى بدايتها، لم تفرض حركة عمالية للدفاع نقابيا عن حقوق العمال ومصالحهم ، ويعود ذلك أيضا إلى قصور برامج الأحزاب السياسية عن الانفتاح على عالم الاقتصاد والاجتماع. السياسة كانت كل اهتمام الأحزاب، حتى برزت بعد الحرب تطلعات اجتماعية عند السياسيين المنتمين بخاصة للوفد. وكانت هذه التطلعات نتيجة لتطور الفكر العالمى بعد الحرب نحو البحث عن مصالح مختلف الشرائح الاجتماعية ، ونتيجة أيضا للعهد الذى عرفه الفكر الاشتراكى بعد الحرب بخاصة وأذكر أن أول تظاهرة عمالية عرفتها القاهرة بعد الحرب تزعمها «نبيل» من العائلة المالكة. وكان لافتا للنظر أن النبيل وقف يخطب فى جماهير محدودة عن الطبقة الفقيرة فى ميدان الجيزة.

تساءلت وأنا أشاهد لأول مرة نبيلا من النبلاء يخطب ، فقيل لى: إنها مناسبة يحتفل بها العمال. ولعل ذلك كان يوم أول مايو (الذى عرفت فيما بعد أنه عيد العمال الذى يحتفلون به فى الدول الشيوعية وفى الدول الأوروبية التى اتبعت فى يوم ما سياسة اشتراكية أو يسارية

عموما) .

عدا ذلك لم أشهد في مصر أزمات اجتماعية، إضرابات أو مظاهرات تدين البطالة أو تطالب بالعمل، أو تطالب بزيادة الأجور وتخفيض ساعات العمل وتحتج ضد الطرد من العمل.

لم أكن أتوقف عند هذه الظاهرات لأن الثقافة الاجتماعية كانت تنقص الفكر السياسي في مصر. والأدبيات السياسية التي كانت تحفل بها الصحف والخطب السياسية لم تكن تتناول القضايا الاجتماعية ، إلا بعض الأدبيات التي تتحدث، عاطفيا أو وصفا عن حالة الفلاحين، وعن وضع العالم القروي والفلاحي . لم تكن هذه الأدبيات تصل إلى الحديث عن التمايز الطبقي في ملكية الأرض أو ظلم العاملين فيها، ولكن المد الاشتراكي أفرز بعض الأفكار التي يتحدث بها سرا، بعض الأساتذة في كلية الآداب بخاصة. ويوحون بها دون تصريح أذكر من بينهم الدكتور لويس عوض الذي فاجأني مرة بعد نهاية الدرس، ونحن نغادر معا حرم الجامعة :

– أرأيت هذا المبنى الضخم؟

لم هذه الفخامة ، كمبردج في بناء عادي ، لو صرفت أموال هذا البناء على تحسين الوضعية الاجتماعية . وينتقل سريعا على عادته ليسألني :

– كم يتقاضى رئيس الحكومة عندكم؟ .

ولأني أجهل كم كان يتقاضى الصدر الاعظم أجبت في غموض :

– كثيرا .. كثيرا .

حرك رأسه فى ابتسامته الساخرة ونحن نركب الحافلة التى قطع وصولها استمرار الحديث.

مفهوم الديمقراطية كان محدودا، يعنى بالجانب السياسى، الشكلى على الأخص: الانتخابات ونزاهتها، الأغلبية والأقلية. الحكومة والمعارضة. إسقاط الحكومة وحل البرلمان. صراع بين الحكومة الجديدة والمعارضة التى تسعى من أول يوم إلى إسقاط الحكومة وحل البرلمان.

فى السنوات الإحدى عشرة التى قضيتها فى مصر تعاقب على كرسى الحكم عدد من المؤسسات البرلمانية والحكومية لا أكاد أحصى لها عدا. مع أن الدستور كان يحدد أجلا للبرلمان. ومفروض فى الدستور أن عمر الحكومة يوازى عمر البرلمان. ولكن الحكومة كانت معرضة للتغيير من الملك وبتغييرها يتغير البرلمان، فى الغالب، إلاّ إذا كون الحكومة أحد أحزاب الأقلية الحقيقية (وهى أغلبية فى البرلمان) لصالح حزب آخر حليف فى البرلمان. وكان حزب الوفد يقاطع الانتخابات التى لا يشرف على إجرائها، أو لا يجريها رئيس حكومة مؤقتة يتفق مع الوفد على أن تكون انتخابات نزيهة، ومعنى ذلك أنه يضمن الأغلبية للوفد، كما حدث فى تجربة «سرى باشا» التى حقق فيها الوفد الأغلبية ، وما أذكر أن أحد البرلمانات قد أنهى مدته الدستورية.

مثل هذه الممارسات كانت تطعن فى ديمقراطية الحكم، وأصبحت من عزلته ولم ينفع في تغييرها احتجاج الأحزاب، ولا أدبيات الكتاب السياسيين ولم تكن تنفد إلى العمق فى تحليل الوضع السياسى، لأنها

كانت ستصطدم مع القصر وهذا ما لم يكن يجرؤ عليه أحد من الكتاب.

عدا هذا فقد كانت مصر تعيش ديمقراطية شكلية ، البرلمان كيفما كان انتخابه يتمتع بسلطاته التشريعية ومساءلة واستجواب الحكومة. والمعارضة كانت تقوم بدورها في انتقاد سياسة الحكومة بعنف، كلما كان في البرلمان معارضون حزبيون أوْ مستقلون. وعرف البرلمان أدبا سياسيا. فقد تعاقب على مجلس النواب عدد من الذين تميزوا بالخطابة السياسية التي كانت من مظاهر الأدب السياسي. وكانت الحكومة تتمتع بسلطاتها في تدبير الشأن العام ، إلا حينما تصطدم مع القصر في موضوع له صلة بسلطة الملك، أو بما يعتبر أحيانا أن الحكومة تجاوزت الحق في ممارسة سلطاتها على حساب سلطات الملك أو رغباته.

كانت مصر الديمقراطية مثالا للحكم في البلاد العربية التي كانت تختلف في سوريا عنها في لبنان وعنهما في العراق وهي البلاد التي عرفت نوعا من الديمقراطية بشكل أو بآخر.

أدين للديمقراطية في مصر بالكثير في ثقافتي السياسية. فقد كنت مأخوذا بديمقراطية مصر، أتابع تطوراتها السياسية وكأني إبن مصر أعد نفسي لأشارك يوما في الممارسة السياسية، وأتابع نشاط قادة الهيئات السياسية زرت بعضهم (النحاس باشا وأحمد حسين مثلا) وتابعت التجمعات الشعبية التي كانت الأحزاب تنظمها.

وعشنا نحن الطلبة المغاربة جميعنا مع الوضع السياسي فى مصر. كان الطلبة المصريون عموما مسيسين ، ولو لم يكونوا منظمين فى اتحاد أو اتحادات طلابية . غير أن الطلاب لم يكونوا يتخلون عن أى موقف سياسى إلاّ كانوا فى مقدمة من يعبر عن الرأى فيه . وكان لبعض الأحزاب مندوب فى كل كلية قد لايهتم بالدراسة بقدر ما يهتم بتوعية الطلبة باتجاهات الحزب وتجميعهم ، كلما صدرت تعليمات الحزب بذلك ، فى مظاهرة داخل الكلية أو خارجها . وكان زعيم الطلبة الوافدين فى كلية الحقوق مزمنا فى «طالبيته» ظل طالبا حتى تجاوز سنه الأربعين ، وخرج من الكلية محاميا ... كنا نتابع الموقف السياسى من خلال الصحف . ولكنا كنا نحضر كثيرا من التجمعات الشعبية التى ينظمها فى أكبر ميادين القاهرة هذا الحزب أو ذاك بمناسبة وطنية ما : ذكرى ثورة ١٩ أو ذكرى سعد ، نتعرف فيها على بعض قادة مصر من خلال خطبهم التى كانت عرضا صريحا للوضع السياسى وبعض مظاهره الخفية . لم تكن الصراحة فقط تطبع هذه الخطب . ولكن كان يطبعها هجوم عنيف على الحكومة وعلى الحزب الخصم ، ولو باتهامات مقنعة بالخيانة . كان التحليل السياسى الفكرى أو الاقتصادى والاجتماعى ينقص هذه المهرجانات التى يحضرها الآلاف فى الهواء الطلق . قليلا ما تصادرها الحكومة أو تمنعها ، ولكنها كانت تفعل أحيانا وخاصة فى سنوات الحرب .

ورغم ما كان ينقص هذه المهرجانات من عمق وما كان يطبعها من صراع شخصي ، فقد كانت بالنسبة إلينا دروسا سياسية تكمل جوانب التحليل الذى لم يكن يطبعه العمق كذلك يكتبه طه حسين أو العقاد أو المازنى أو محمود عزمى أو غيرهم من الصحفيين المحترفين الذين كانوا يكتبون بوحي الحزب وعقلية الجدل السفسطائى فى كثير من الأحيان .

غير أن شيئا واحدا تعلمناه وازداد إيماننا به هو الديقراطية المعتمدة على الحرية فى الاجتماع والتعبير والخطاب المستمد من التاريخ والواقع على السواء . كانت مصر مضرب المثل بين البلاد العربية وبلاد العالم الثالث . مهما يكن ما مارسته بعض الأحزاب ، والوفد منها ، من مصادرة الصحف المعارضة فى بعض فترات حكمها ، فإن القضاء المصرى لم يكن يعرف محاكمات للرأى إلاّ فى فترات محدودات . حوكم العقاد فى إحداهما ، وحاكم الوفد أمينه العام مكرم عبيد بعد أن انفصل عنه ، وأسس حزبا من أحزاب الأقلية لمعارضة الوفد . وكان أن أصدر «الكتاب الأسود» عن عهد النحاس فصودر الكتاب ، وحوكم مكرم عبيد واعتقل ، ثم خرج من المعتقل إلى الوزارة بعد أن سقطت حكومة النحاس . ولكنا لم نعرف قط أن عبد القادر حمزة صاحب البلاغ قد وقف أمام القضاء ولا محمود أبو الفتح صاحب المصرى ، ولا محمد مندور رئيس تحرير «الوفد المصرى» . وكلها صحف مهمة وقفت فى كثير من فترات حياتها موقف المعارضة الشديدة القوية العنيفة .

هل كانت مصر تعيش حقا حياة ديمقراطية ؟

سؤال أجيب عنه من منظورين : المنظور الأول هو أن مصر كانت تتمتع بهامش كبير من حرية التفكير والقول والتجمع والاجتماع . يؤكد ذلك حرية الصحافة ، وحرية الأحزاب فى العمل والتنظيم لصالح الحزب ضد الحكومة، وسعة صدر الحكومة التى كانت الصحف والقيادات فى التجمعات السياسية بمناسبة ذكرى سعد أو أى مناسبة وطنية ، ولو كانت مناسبة عقد بمعاهدة الاستقلال ١٩٣٦، أو مناسبة ذكرى ثورة ١٩١٩ ، كانت الصحف والقيادات تشرح السياسة الحكومية بالإضافة إلى فضح مثالب أعضاء الحكومة أو مثالب خصومها .

المنظور الثانى هو أن الديمقراطية كانت شكلية إلى حد كبير . فلا الأحزاب تعتمد على تنظيمات حزبية تعمق فيها الوعى الديمقراطى ، ولا الدستور كان يحترم من الملك أو الحكومة ، ولا الحكومة كانت تتصرف بحرية وفق برنامج يعطيها البرلمان الثقة على أساسه ، ولا الانتخابات كانت ديمقراطية نزيهة . ولكل حكومة برلمانها الذى تمنحها الانتخابات التى تنظمها الأغلبية الساحقة . وانعدام الديمقراطية ، وخاصة فى فترة ما بعد المعاهدة ، بما فيها سنوات الحرب وما تلاها ، هى التى فرشت أرضية واسعة للفساد الذى اتهم القصر بأنه كان مصدره . وهذا الوضع ، الذى كانت الأحزاب ضالعة فيه ، أحد أسباب الثورة .

نحن الطلبة المغاربة ، والعرب عموما ، كنا مستجيبين لطبيعة مصر المعروفة فى التاريخ ، فما دخلها زائر أو أقام فيها مقيم إلاّ «وهضمته» كما يعبر المؤرخون عن الشعوب التى وفدت غازية على مصر .

كنا نتظاهر مع الطلاب المصريين داخل الجامعة ، ولو لم يرتفع صوتنا بهتاف . واجتمع طلاب الجامعة ، جميعهم من جميع الكليات فى يوم ما من أيام نهاية الحرب فى حرم الجامعة يحتجون على ما تقرر من إعلان مصر الحرب على دول المحور - وهى فى النزع الأخير . كانت سياسة انجلترا وأمريكا أن تجمع «الحلفاء» فى آخر لحظة ليتحدثا باسمهم فى «مؤتمر الصلح» وليفرضا باسمهم الصياغة الجديدة للعالم الجديد . ومصر لم تكن لها فى الحرب ناقة ولا جمل ، ومع ذلك طلب إلى حكومتها - وقد ولت حكومة النحاس التى لم تعمر أكثر من عام ونصف العام - التى كان يرأسها أحمد ماهر زعيم حزب السعديين ، وكان من زعماء الوفد هو وزميله محمود النقراشى فانشقا عنه وكونا حزبا ينتسب إلى اسم سعد . جاء رئيس الحكومة أحمد ماهر بشجاعة نادرة الى حرم الجامعة ووقف خطيبا - وكان من الخطباء البرلمانيين المعروفين - وسط الطلبة لفترة طويلة . وما أظن أنه أقنعنا بسلامة موقف مصر ، وهى تعلن الحرب على المحور .

ما أظن أن الطلبة ظلوا على ميولهم المحورية آنذاك ، ولكنهم كانوا يعتزون بمصريتهم ، ولا يرون فى إعلان الحرب تعبيرا عن موقف مشرف لدولة لم تطلق رصاصة فى حرب عالمية دامت خمس سنوات ، ولو أنها قدمت أرضها ميدانا للحرب ، وغامرت بمدنها - وخاصة

الاسكندرية ومنطقة القناة - التى أصابها طل من قنابل المحور ، وإن لم يكن وابلا .

انتهت قصة أحمد ماهر بإقناع برلمانه بإعلان الحرب على دول المحور وقدم حياته فى سبيل ذلك فقد اغتاله شاب من الإخوان المسلمين على باب رياسة الحكومة . وبدأت باغتياله سلسلة الاغتيالات السياسية. وكان ذلك مظهرا من مظاهر الفوضى السياسية التى انتهت بالثورة . قلما كانت مظاهرات الطلاب تخرج من حرم الجامعة إلاّ إلى الشوارع القريبة منها ، ولكن الحرب التى كانت تجربة خطيرة للكبت السياسى فى مصر بالمصادرة النسبية للحريات العامة ، حققت انفجارا خطيرا للوعى السياسى الشعبى والطلابى والمسيسين من أبناء الشعب فى مظاهراتهم ضد انجلترا ومعاهدة ٣٦ التى كرست احتلال منطقة قناة السويس ، يغادرون حرم الجامعة فى اتجاه وسط المدينة حيث مراكز البرلمان والحكومة والإدارات العامة . وفى إحدى المظاهرات أمرت الحكومة التى كان يرأسها النقراشى ، بفتح قنطرة الجيزة - والقناطر تفتح مرتين فى اليوم لتمر تحتها الفلك ذات الشراعات الكبرى - وأمام اندفاع المتظاهرين سقط بعضهم فى النيل ، فكانوا ضحية عملية إجرامية . ولعلها من الأسباب التى ذهبت بحياة النقراشى الى جانب اغتيال حسن البنا .

إحدى حكومات الأقلية وضعت كتائب من الجيش ترابط على باب الجامعة وحول أسوارها . وانتهى الأمر «بالجيش» المرابط أن أفراده كانوا يشغلون أنفسهم بامتصاص أعواد قصب السكر بدلا من حراسة الأمن ، حتى وصفهم أحد الصحفيين قائلا :

ليسوا حراس أمن ، وإنما هم مصاصو قصب على قارعة الطريق العام .

مصر فى حرب لم تخض غمارها

نذر الحرب تخيم بظلالها على مصر . لم يكن أحد من المصريين - أو غير المصريين - يفكر فى حرب مدمرة على نحو ما كانت تخبىء الأقدار . كان هتلر يحرك الآلة الجهنمية التى ستلطخ وجه أوروبا . فرنسا وإنجلترا وأوربا الغربية الهدف الرئيسى من عدوانه . ولكنها جميعا كانت تستبعد الحرب . جهل كامل أو استخفاف بالاستعدادات العسكرية والتطور العسكرى الألمانى . أوروبا كانت تنقصها فيما يبدو الخبرة والمخابرات ، حتى كونها الحكم النازى بطرق علمية أطلق عليه إسم الجستابو . وكانت إنجلترا وفرنسا معتزتين بقوتهما الإمبراطورية وبانتصارهما فى الحرب الأولى، وبسيطرتهما على طرق المواصلات البحرية . لم تقم للطيران العسكرى المتطور كبير وزن . غارقة فى أحلام الامبراطورية التى لا تغرب عنها الشمس ، وفى غنى الإمبراطورية اقتصاديا وبشريا ، وفقر المانيا ماليا وبشريا . فهى ستحارب إن

حاربت بابنائها لا برجال الإمبراطورية . الولايات المتحدة تقفل أبوابها عليها فى عزلة تسير فى طريق التطور الاقتصادى الأنانى لمعالجة آثار الأزمة الاقتصادية الكبرى لسنة ٢٩ - ٣٠ لا يتوقع الحاكمون فيها ولا يتوقع أمريكى الشارع أن يجر هتلر بلاده المنهزمة فى الحرب الأولى إلى حرب ثانية ، وإن فعل فهى حرب تهم أوربا لا أمريكا .

أى جهل كان يسبح فيه العالم ؟ أية غفلة كانت تتحكم فى مصيره ؟ أية قفزة قفزها العالم فى المجهول مرة ثانية فى نصف قرن ؟ .

عبقرية هتلر أنه وجد فى زمن الجهل والغفلة بالنسبة لأوروبا الغربية ، قبل أن يولد العالم من جديد . عبقريته أنه لم يستطع أن ينفذ إلى عقول الذين كان يخاطبهم منذ استولى على الحكم قبل أن يعلنها بست سنوات . وعبقريته أنه استطاع فى السنوات الست أن يجعل من ألمانيا أداة خطيرة للتدمير مدعمة بالعلم والرأى والإرادة ، فى غفلة عن الذين استهانوا بجهود رسام نمساوى ترامى على السياسة بأفكار مجنونة...! فلم يستطع خصومه تحت تأثير هذا التصور أن يجابهوه إلاّ وهم عصبة أولو القوة .

مصر كانت فى غفلة عن هذا العالم . «لا ناقة لها فى الحرب ولا جمل». لم يحسب الحاكمون فيها ، ولا رجل الشارع ، حسابا للحرب العالمية الجديدة . الوعى بالتفكير الحاضرى والمستقبلى كان ينقص

مصر ، كما ينقص الإنجليز الذين يسيطرون على مقدرات مصر . كل اهتمامهم بمصر أنها تضمن لهم سبيل المواصلات إلى الإمبراطورية الكبرى فى آسيا ، وجوهرتها الهند . قناة السويس تحت سيطرتهم . هم إذن المنتصرون . لأنهم يستطيعون أن يطوقوا أوربا من البحر .

من المؤكد أن الحلفاء المنتصرين فى الحرب الأولى كانوا مطمئنين إلى ثلاث مقولات هى التى تحكمت فى قيام الحرب الثانية والهزائم الخطيرة التى شجعها الحلفاء طيلة السنوات الثلاث من الحرب . وهى تؤكد النقص الخطير فى دراسة الوضعية التطورية التى عرفتها المانيا فى الثلاثينات :

أولى هذه المقولات : أنهم حطموا المانيا إلى الأبد . فقد قضوا على مطامحها الاستعمارية . والمستعمرات فى العقلية الغربية الوسيلة الأولى لكسب أى حرب . ومنعت ألمانيا من تحقيق هدفها القديم فى الوحدة مع النمسا . ثم إن الأراضى الألمانية مزقت بمقتضى معاهدة فرساى فضمت أجزاء منها إلى فرنسا وبلجيكا وبولونيا والدانمارك وليتوانيا . ومنحت فرنسا ، باسم عصبة الأمم حق إدارة إقليم السار . ولم يعد للجيش الألمانى قوة يحسب لها حسابها - سواء فى عدد المجندين أو السلاح البرى والبحرى ، واحتلت قوات الحلفاء الراين لمدة طويلة . وفرضت على المانيا غرامة مالية جرتها إلى الإفلاس بلغت ١٣٢ مليار

مارك ذهبي . وبذلك إنهار الوضع المالي والاقتصادى الألمانى . زاد فى انهياره الأزمة الاقتصادية الكبرى فى نهاية العشرينات وبداية الثلاثينات. وقد وصلت المانيا - لكل هذه الإجراءات - إلى الدرك الأسفل كدولة يمكن أن تنهض بعمل عسكرى ضد أوربا فى أقل من عقدين من السنين بعد الهزيمة .

ثانيهما : لم يقم الحلفاء كبير وزن للفكر النازى واثره فى خلق المانيا جديدة . المفكرون الغربيون - ربما - لم يكونوا على صلة كبيرة بتطلعات الفكر النازى وقدرته على تحويل المجتمع وتعبئته . ولعل المفكرين الفرنسيين والإنجليز لم يكونوا معبئين لتوجيه الدولة وتحذيرها، على نحو ما عبأ النازيون الفكر والمفكرين الألمان . ولذلك كان السياسيون الغربيون معزولين - فيما يبدو - عن خدمة الفكر النازى للدولة .

هتلر : الزعيم الذى لم يستفد من ممكناته

الفكر النازى لم يكن من صنع هتلر بمقدار ما كان هتلر صنيعة الفكر النازى . معظم الفلاسفة الألمانيين البارزين بلوروا الفكر النازى إنطلاقا من فكرة الإنسان السيد أو الإنسان الأعلى «سوبر مان» أى تفوق الجنس الآرى على الأجناس الأخرى ، وانتهى الأمر بهذا الفكر

إلى أن الجنس الألماني هو ممثل الجنس الآرى فى أسمى مراتبه . ثم فكرة أخرى وهى أن الدولة هى سيدة الإنسان . والإنسان يجب أن يكون في خدمتها . هذان المنطلقان هما أساس تقديس الدولة عند هتلر وتجنيد كل إنسان لصالح الدولة ، بعد تطهير الجنس من «فائض الإنسان» أى من كل ما هو ليس بألمانى : السلاف واليهود والمختلطون من أعراق أخرى والسود، ثم الذين لا يفيدون الدولة ولا ينتجون من المعوقين والأقزام وغير القادرين على خدمة الدولة ولو كانوا ألمانيين .

هذه الأفكار العرقية والمعتمدة على تقديس الدولة واحتقار الفرد نجدها عند معظم الفلاسفة الألمانيين ، من إيكهارت حتى روز نبيرج وفيشر وهيجل ونيتشه ونيخته . وحتى الموسيقار فاجنر كان يوظف معارفه لتعميق هذا الفكر النخبوى العدائى للإنسان – وللدول – غير الألمانى . ولم يكن الفكر العرقى ، بما ينتج عنه من نخبوية الجنس مقصورا على الفكر والفلسفة الألمانيتين ، وإنما كان كثير من المفكرين الإنجليز والفرنسيين والأمريكيين من قادة هذه العرقية المقيتة . وقد استفاد هتلر من كتابات هؤلاء ، حتى إن كتابه «كفاحى» ا ستمد كثيراً من عناصره من كتاب لفيشير عن الوراثة والعرق .

هذا الفكر حينما يتحول من نظريات أكاديمية يكتبها مفكرون وفلاسفة فى كتب تنتشر بشكل واسع أو محدود تبقى فى إطار حرية التفكير والتنظير الأكاديمى . ولكن حينما تصبح عقيدة الدولة يعتنقها

زعيم الدولة والعصبة الملتفة حوله ، كان يجب أن تستلفت نظر المقدمين على معاداة هذه الدولة ، وتقدير أثرها فى سير العلاقات معها ومصير هذه العلاقات التى قد تكون حربا .

وهذا ما لا أظن أنه دخل في حساب الحلفاء الذين أقدموا على حرب ألمانيا التى هزموها قبل عقدين فقط .

ثالثة المقولات تتصل بفكرتهم عن هتلر الذى سيطر بسرعة كاملة على مقدرات الدولة الألمانية .

لعل «الحلفاء» لم يكونوا يرون فيه غير مغامر نمساوى خرج من معطف الرسم والفن إلى ميدان السياسة ، ولذلك لم يكونوا يقدرون الأعمال الكبرى التى اهتدى إليها بفضل عبقرية تسندها رغبة الانتقام من الإذلال الذى وجه إلى بلاده وشعبه ، وافكاره العرقية التى انتهت به إلى أن يضع ألمانيا فى قمة العرق الآرى بعد أن اتجه إلى تصفية الشعب الألمانى من كل الشوائب التى فد تكون علقت به من اختلاط غير الألمانيين الخلص به . ثم قدرته على تجنيد شعب المانيا وكل سلطات المانيا، وكل الممكنات المادية والعلمية والتقنية العسكرية لإنشاء أعظم جيش مؤهل ومنظم ومسلح عرفه التاريخ .

هتلر لم يصل إلى زعامة ألمانيا لأنه مغامر ساذج مجنون بالعظمة وحب السيطرة حتى يمكن أن يفشل أو يهزم بسهولة . كان خلاصة الفكر الألمانى العرقى المتشبع بالقومية الألمانية التى تعتمد على : الدم ،

والأرض ، والشعب . ورغم أنه بدأ متواضعا عضوا عاديا فى حزب العمال الذى أنشىء فى المانيا بعد هزيمة الحرب الأولى إلا أن أفكاره كانت أكبر من حجمه السياسى آنذاك . وكانت هذه الأفكار تتجه منذ البداية إلى تأسيس أمة جديدة قوامها الجيش والحكام والمفكرون تستهدف حكم جميع الأعراق فى الدنيا .

من عضو عادى فى حزب العمال استطاع أن يجمع حوله كل الناقمين على الهزيمة والإذلال . والشعب الألمانى كان كله من الناقمين . من هؤلاء الناقمين استطاع أن ينظم الحزب من جديد ويضم إليه نحو مليونى عضو ، ويصبح اسمه «حزب العمال الألمانى الاشتراكى القومى»، تحت رياسته . ووضع برنامجه فى كتابه «كفاحى» . وبدأ الزعيم الجديد يطبع الحزب بطابع نازى . واستغل الأزمة الاقتصادية وتدهور القدرة الشرائية لدى جميع الطبقات وشيوع الفوضى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية دفعته ليعمل للسيطرة عليها . ودعاه طموحه أن يتقدم لانتخابات الرئاسة سنة ١٩٣٢ فانهزم أمام هندنبرج . ولكن هزيمته دفعته إلى العمل لتجديد الحزب وتقوية نشاطه . ولم تمر غير سنة حتى عينه هندنبرج مستشارا (رئيس حكومته) لألمانيا . وتلك بداية الطريق إلى القمة . فقد طرد النواب الذين رغب فى التخلص منهم وصوت البرلمان على منحه كل السلطات . وعن طريق هذه السلطات كان هو الدولة التى أصبح رسميا رئيسا لها سنة ١٩٣٦ إثر وفاة هندنبرج .

وكانت خطته منذ البداية إعادة تسليح ألمانيا وتجنيد كل أبنائها القادرين على حمل السلاح . ومن التجنيد والسيطرة على مقدرات البلاد إلى التفكير فى الحرب للانتقام من أعداء بلاده الذين أذلوها بعد الهزيمة .

هذا الرجل كان بكل إمكاناته مخططا لإشعال نار حرب جديدة . وما أظن أن الحلفاء كانوا مقدرين للعمل التعبوى الذى قام به فى هذه الفترة الوجيزة ، وما أظن أنهم كانوا مقدرين للجهاز العلمى والتكنولوجى فى مختلف مستوياته الذى يستعين به الحزب النازى . وما أظن أنهم كانوا يقدرون القوة العسكرية التى كونها فى أقل من ست سنوات . ولذلك لم تكن سياسة الدولتين الخصمين الرئيسيتين : إنجلترا وفرنسا تديران سياستهما على أساس حرب محتملة ، أو حرب قاهرة ، ونتيجة لعدم تقدير الشخصية التى كان مقدرا أن تسيطر على مقدرات ألمانيا . والتى كانت تغامر ، لا للمغامرة ، ولكن بخطة مدروسة فكريا ونظريا من جهة وعمليا : التعبئة والتسلح . مدعومتين بعداوة مطلقة للدولتين اللتين أذلتا ألمانيا ، وتسيطران على كل مقدرات العالم عن طريق الاستعمار. وألمانيا لم تستطع فى آخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ان تفتح منافذ مهمة لها على العالم المستعمر والمنتج للمواد الأولية .

حرب فرضها علي أعدائه

الحلفاء لم يقدروا المغامرة التى أقدموا عليها حتى أن الرأى العام السياسى كان ضد اتفاقية تشمبرين - هتلر سنة ١٩٣٨ التى حاول فيها السياسى البريطانى أن يتلافى الحرب ، فلعله لم يكن فى استطاعتهم غير ذلك ، وقد صمم هتلر على أن يضم إلى ألمانيا مناطق من أوروبا ، ويستعيد ما سلبته من بلاده معاهدة فرساى . ثم كان ينفث على إنجلترا وفرنسا توسعهما الاستعمارى فى افريقيا وآسيا مما كان يحد من نفوذ ألمانيا الذى خطط له هتلر . الحرب أصبحت ضرورية ، إذا أرادت فرنسا أن تحافظ على مكتسباتها الحدودية التى استعادتها بعد الحرب العظمى الأولى ، وقد اغتصبت منها فى حرب ١٨٧٠ ، وإذا أرادت أن تحافظ على تونس مثلا ، وقد كانت على مرمى العين الإيطالية من ليبيا التى كانت تحتلها ، وإذا كانت إنجلترا تريد أن تحافظ على نفوذها فى مصر ، وقد كان مهددا من ليبيا أيضا . ومع مصر قناة السويس الطريق الحيوى الى الهند وبقية المستعمرات الإنجليزية والفرنسية فى آسيا .

أثر الحرب على مصر

الحرب كان لها تأثير على مصر الرسمية . الحكومة لم تكن شعبية ، بمعنى أنها لم تكن وفدية . ولذلك كان من الضرورى أن تفكر إنجلترا فى المحافظة على أمن مصر ، وقد أخذت تشعر بإمكانات استغلال مركز مصر للجاسوسية الألمانية ولما كان يسمى الطابور الخامس . وكانت إنجلترا تعرف ميول جماعات من المثقفين والسياسيين لألمانيا ضدا على الاستعمار الإنجليزى . ولذلك فرضت الرقابة على المطبوعات والمراسلات وعلى الاجتماعات والتجمعات بمقتضى الأحكام العرفية . وتعدى الأمر إلى محاصرة سياسيين كبار لعلى ماهر الذى تولى رياسة الحكومة عدة مرات ، وعلى عسكريين سابقين كعزيز المصرى الذى قام أثناء الحرب بمغامرة كبيرة مع بعض أتباعه ، فاختطف طائرة حاول بها أن يفر إلى ليبيا فسقطت الطائرة فى الصحراء واعتقل ركابها . ومن ثمة ظل تحت الإقامة الإجبارية . ويذكر أن هذا الضابط الثائر كان مرافقا لفاروق أثناء دراسته ، وكان له أثر عليه فى كراهيته للإنجليز وميوله المحورية . وقد ظل هذا الضابط يعمل فى السياسة العامة . عين رئيس أركان الحرب ثم سحب منه المنصب . وظل على صلة بالضباط الصغار ، يكون منهم خلايا من المتمردين . وأثره على الثورة ٢٣ يوليو لا يغفله التاريخ ، ولو أن اسمه قلما يذكر فى تاريخ الثورة .

لذلك كانت مصر تعيش فى غيبة عن الواقع حتى إذا حالف تشمبرلين هتلر على مصالحة أبدية صدق المصريون ، كما صدق الانجليز ، أطروحة السلام ، وتغافلوا عما كان ينتظر العالم بعد سنة من لقاء برلين .

ولم تكن مصر معنية بحرب ، عدوها أحد طرفيها ، وعدو العدو صديق ، والذين كانوا يفكرون سياسيا أو ثقافيا لم يكن يضيرهم فى شىء أن تنتصر المانيا . كانت تطورات الفكر الألمانى الجديد تجد صداها فى مصر . إغراء بفكر القوة وسيطرة الإنسان المتجبر ، وفلسفة العنف . تجلى ذلك فيما تنتجه أقلام بعض المثقفين من كتب ومقالات . متغافلين عن العرقية والعداء للسامية فى فكر هتلر ، ثم الصورة المبسطة عن الفلسفة الألمانية والفن الألمانى من خلال ما ترجم من الفكر والأدب الألمانى . قد يكون هذا التوجه نابعا من العداء المطلق للإستعمار الإنجليزى . وما من شك فى أن الغزو الفكرى الألمانى أخذ سبيله إلى مصر ، وإلى بلاد أخرى من المستعمرات الإنجليزية والفرنسية . ولكنه ما من شك أيضا فى أن سياسة هتلر لم تكن تعنى بالجانب الفكرى خارج ألمانيا ، بقدر ما كانت تعنى بالإعلام السياسى على نحو ما سنه جوبلز . والإذاعات الألمانية والإيطالية لم يكن يهمها فى شىء عن الفكر والثقافة والفن بمقدار ما كانت تعنى بالدعاية للقوة الألمانية والإيطالية

الصاعدة ، وبمناداة الاستعمار الإنجليزى والفرنسى. ولم يكن الحكم الهتلرى يعنى بالشعوب العربية والإسلامية .

النزعة العرقية ضد السامية ، وضد الشعوب غير الآرية على العموم أعمت بصيرته عن هذه الشعوب . ولم تكن مصر بمناجاة من تسرب الفكر السياسى الألمانى . تأسست جماعات وطنية تقتدى بالتقاليد النازية . حزب مصر الفتاة كان فى مقدمتها . وجد فى بعض شباب مصر قابلية للانضمام إليه ، كون فصيلة شبابية ترتدى «القمصان» الخضر على غرار القمصان الملونة التى ترتديها الميليشيات الهتلرية . وتكونت جماعات أخرى بقمصان ملونة وكأنها ميليشيات (غير مسلحة) مظاهرها تغطى شوارع القاهرة كشبيبة حزبية فى تسامح من الحكومة، حتى إذا احتدت نذر الحرب كان من أوائل قرارات الحكومة إلغاء تنظيمات القمصان الملونة . وبقى حزب مصر الفتاة يعانى اضطهاد حكومات الحرب وما بعد الحرب وابتعاد النخبة المفكرة عنه كفتحى رضوان حتى كانت نهايته مع ثورة ١٩٥٢ . الزمن أيضا لم يكن يسعف هتلر كان في عجلة من أمره . النصر الباهر الذى حققه فى ألمانيا ، وقد تجمع شعبها حوله ، يرى فيه البطل المنقذ . الطموح الذى عبأ به شباب ألمانيا ، وجندهم للخدمة العسكرية ولصناعة الحرب ، جعل منه قائدا عسكريا غير محترف . يحمل فكرة قومية متطرفة . عبأ ألمانيا لبعث طموحها العسكرى وللانتقام من المنتصرين عليها أكثر مما كان يمكن

أن يعبىء كل إمكاناتها كدولة لها مجد فكرى وثقافى وصناعى وعسكرى فى آن .

ثم إن الثقافة الغربية التى مهدت للنازية كانت ثقافة ذات بعد عرقى جنسى . تؤمن - بالسوبر مان - الإنسان الراقى فى الفكر والإنتاج والعمل فى كل ميدان حتى ميدان الحرب . وتحتقر الإنسان «الفائض» الذى لاينتج ولا يحقق ربحا أو نصرا . وانتهى الفكر النازى إلى ضرورة تطهير أوربا من غير الإنسان الأول . وإذا كان قد جرب بنفى الإنسان الثانى عن ألمانيا إلى أوربا الشرقية فكان عليه أن يسير فى التجربة نحو سيادة الإنسان الأول ، وألمانيا هى مقره الأول ، والحرب إحدى وسائل التصفية . ولذلك فألمانيا المنتصرة ستقود العالم فى هذا الاتجاه الذى كرسته الثقافة الغربية وانتهى إلى النازية .

من سوء حظ ألمانيا أن هتلر كان فى عجلة من أمره ، وأنه استعدى خصومه دون أن يستكمل الرؤية المستقبلية ، وأن انتصاراته السريعة كانت أكبر مقاتله . وأنه فتح مقبرة ألمانيا يوم «اهتدى» إلى محالفة ستالين ثم قادته «الهداية» إلى مهاجمته .

قامت الحرب والمصريون بعيدون عن تصور تبعاتها . شىء واحد أشاع القلق فى صفوفهم : الغذاء .

أتصور أن إنشاء وزارة للتموين بث الرعب فى نفوس المواطن المصرى . الإنجليز لم يطلبوا تجنيد المصريين فى صفوف القوات

المقاتلة كما جندوا الهنود وشعوب الإمبراطورية التى لاتغرب عنها الشمس . وما كان لهم أن يطلبوا ووضع مصر الدولى يختلف عن بلاد الإمبراطورية . فهى بلاد مستقلة رسميا منذ سنة ١٩٢٢ تربطها معاهدة استقلال وصداقة ، تحدد حدود النفوذ الإنجليز - رسميا - فى القواعد العسكرية والمساعدة العسكرية ، ولم تطلب إنجلترا منها أن تدخل الحرب حتى اقتربت من نهايتها . ثم هى تخشى على مصر إذا هى شاركت فى الحرب أن تتعرض لهجوم عسكرى عن طريق ليبيا التى تحتلها إيطاليا . وتلك جبهة عسكرية لم تكن إنجلترا ولا فرنسا تقويان على صدها فى بداية الحرب .

كان أمل المصريين الأكبر هزيمة الإنجليز . ولم يكن أحد يفكر فيما بعد الهزيمة الإنجليزية . فهم قادرون على استكمال استقلالهم دون أن يراود أحدا منهم الشك فى أن القوات الألمانية قد تحل محل القوات الإنجليزية . والتفكير فى هذا المصير لم يكن يرقى لمقام التفكير السياسى .

الشعوب التى تتحكم فيها الشائعة تثور فيها الفتنة من حيث لا تحتسب . التموين بالغذاء أصبح هاجس كل مصرى ، وبسرعة ندرت الخضر والخبز من السوق . أحد الطلبة المغاربة «اهتدى» إلى أن يشترى «زكيبة» بصل، وقفة بطاطة . كان سعيدا وهو يسخر من نفسه بأنه ضمن الحياة فى حرب تنتهى بعد أيام .

الإنجليز عادوا إلى الحكم المباشر

هموم الحرب دخلت مصر من أبوابها . البوابة الكبيرة هى «قصر الدوبارة» مقر «السفارة» الإنجليزية . أصبحت أكبر قوة تتحكم فى مصر .

كان الإنجليز يستندون فى حكمهم المباشر على معاهدة «الشرف والاستقلال» التى وقعت بين البلدين سنة ١٩٣٦ ولعل إنجلترا كانت تنتظر الحرب ، أو تتوقعها ، فاشترطت بقاء جيوشها فى القواعد الاستراتيجية ، وخاصة فى الموانىء وعلى ضفة قناة السويس. واشترطت أن تكون مصر عونا لإنجلترا فى أى حرب تمكنها من كل الممكنات التى تخدم الحرب . والمعاهدة كانت مصاغة بعقلية إنجليزية وبأسلوب إنجليزى مرن يمنح مصر كل مظاهر السيادة . ويسلب من مصر حقيقة السيادة كلما تطلبت الظروف ذلك .

وجدت مصر نفسها فى قبضة إنجلترا ، عندما أنذرت نذر الحرب ، بمقتضى إتفاقية الشرف والاستقلال . ولم تطلب إنجلترا من مصر أن تعلن الحرب على المحور ، لأنها كانت فى حاجة إلى مصر كمركز إستراتيجى حربى ، وليست فى حاجة الى الجندى المصرى – كالجندى الهندى والنيوزيلاندى – حتى لا يكون عبئا على الاستعداد العسكرى . وحتى لا تتعرض مصر إلى هجوم سريع ، وقد يكون ساحقا باعتبارها

دولة محاربة . وحينما احتاجت إلى أن تحشرها فى الحرب بعد أن اتضحت معالم النصر لتقوية عدد الحلفاء التابعين لانجلترا فى مؤتمر الصلح طلبت منها أن تعلن الحرب . وقدم رئيس الوزراء أحمد ماهر حياته ثمنا لإعلان الحرب فاغتاله شاب لم يكن من رأيه .

الحكم الإنجليزى المباشر الذى استند على معاهدة ١٩٣٦ قضى على كل مظاهر الحرية السياسية والديمقراطية . فرضت الرقابة على الصحف والمطبوعات والرسائل والطرود البريدية . فتحت أبواب المعتقلات ، «هيكستب» ليس أبرزها ولا أخطرها . وبدأ الشعب المصرى يألف الرقابة على الصحف والكتب وكل المطبوعات - وهو شعب متنوع القراءة - فلم يعد يقرأ إلا ما تجيزه الرقابة من أخبار الحرب وتحليلات المواقف السياسية والعسكرية من وجهة نظر إنجليزية . ولا تصله الرسائل إلا بعد أن تمر على الرقيب .

الشعب المنتمي ضد الإنجليز

فكر الشعب المصرى ليتحرك ، ولو فى غيبة الحقيقة . المصرى لا يعرف «اللانتماء» . وكما أن كل مصرى مع الوفد أو ضد الوفد ، مع النحاس أو ضد النحاس ، فكل مصرى كان مع هتلر أو تشيرشل . وقلما تجد مصريا لا يدين بالاحترام والحب للنحاس ، ولو كان قبليا أو عائليا من حزب آخر ، وقلما تجد مصريا لا يدين بالحب والود والتقدير لهتلر ، ولو كان يرغب فى انتصار الحلفاء . لأنه يكره الإنجليز، ولم يكن

لينتظر منه أن يحتفظ بالكراهية جانبا ليفلسف الحرب لصالح النظم الديمقراطية وحرية الشعوب . الشعوب تبدأ من مصر . ولم يكن ينتظر من الإنجليز أن يمنحوها حريتها .

في جماعتنا الطلابية المغربية أصبحنا مصريين بعضنا يعتبر النحاس زعيم مصر الأوحد ، والمظلوم الأول حينما يقيله فاروق من الحكومة ، وبعضنا يعتبر النحاس طموحا ، إلي حد اللامعقول إلى السلطة، ومن الأحزاب من لا يقل عنه قدرة على حكم البلاد وإدارتها ، ولا يقل عنه شعبية ووطنية . وجاءت الحرب فأصبح يعتبر هتلر الرجل الذى أذل فرنسا والدول الإستعمارية الأخرى فى أوروبا ، فهو الجدير بالانتصار . ولا شيء يبعثنا على الإيمان بغير ذلك . ومنا من يعتبر إنجلترا (لا فرنسا طبعا) سيدة الموقف . وهى التى ستغير مجرى التاريخ بانتصارها المنتظر والحتمى .

كنا ، كشباب مصر ، تعمر أفكارنا ومشاعرنا البطولة : هتلر كان رمزا لبطولة العالمية كما كان أرسين لوبين البطل المغامر فى الفيلم الأمريكى . وكان موسولينى البطل الفاشل الذى تميز بكل صفات البطل الثقافية والسياسية وميزة السبق فى الفكر السياسى الفاشى ، ولكنه – وهو يخوض المعارك بجيش فاشل ، أو يشن غارات جوية فاشلة على الإسكندرية والقاهرة . تدنى حظه من البطولة حتى الصفر فى نظر الشعب المصرى ، ونحن منه .

جاء تشيرشل ليقود حرب الصمود فى إنجلترا ضد الهجوم الجوى الذى لم يعرف التاريخ له مثيلا ، وهو يعلن لشعبه أنه لا يملك له إلا الدماء والدموع والعرق المتصبب . جاء تشيرشل ليعطي للبطولة مفهوما آخر غير بطولة السلاح . بطولة الصمود النفسى والمعنوى ضد الهزيمة، وليعطى للعالم صورة معاكسة للانهيار العسكرى والنفسى والسياسى عند بطل من أبطال الحرب الأولى : المرشال بيتان . ليسرق مشعل البطولة من هتلر ، وهو فى أوج إنتصاراته . وكانت أفكار الشعب المصرى عن البطولة تنطلق من قوة التأثير الإعلامى . تجندت الصحف والإذاعة للتعبير عن الاتجاه الوحيد والرأى الفريد . أصبحت نسخة من الإعلام الإنجليزى بالطابع المصرى الذى يضخم الحدث ويعرف كيف يبرز الجانب المضىء فى الهزيمة الإنجليزية ، حتى أصبحت عبارة : انسحبنا بشرف .. من العبارات الساخرة التى يرددها الشعب الساخر، ولو كتبتها الصحف بأحرف بارزة كلما انسحب جيش الإمبراطورية بشرف .. وكانت خطب تشيرشل فى البرلمان البريطانى ، ولم يكن يمر اسبوع دون أن يخطب ، تتصدر الصحف مترجمة أروع ترجمة وأدقها . كانت حقا دروسا فى السياسة والحرب من وجهة النظر الإنجليزية .

خلفت الحرب فى مصر بؤسا وفقرا وغنى فاحشا وحركة إقتصادية مصطنعة . لم يجع الشعب إلا فى فترات محدودات . عانى من نقص فى

الخبز والشاى و «غاز» الوقود . ولكنه كان غير عابىء بالحرية وكأنها شىء لا يهمه ، يسمع أخبارها ويقرأ عن المعارك، وقد ألفها ، بلا مبالاة باستثناء مناطق القناة والإسكندرية كانت مناطق يتركز فيها الجيش الإنجليزى والبحيرة الإنجليزية . ولذلك كان الطيران الألمانى والإيطالى يستهدفها من حين لآخر . ولكن مصر الشعب غير مصر النخبة والسياسة والإعلام .

المثقفون والحرب

المثقفون كانوا فريقين : كثير منهم كان يأسى على فرنسا ويبكى على مدينة النور والحرية ، ويعتبر إنهزامها انهزاما للثقافة والفن والإبداع والعلم . أكثر هؤلاء ممن درسوا فى فرنسا أو كانوا قريبين من الثقافة الفرنسية . كثيرون آخرون كانوا يشمتون لأن فرنسا طاغية الاستعمار فى سوريا ولبنان و «شمال إفريقيا» . ولعلهم يخفون وراء هذه المقولة – التى كانت الرقابة تجيز النقاش فى المجلات الثقافية حولها – بغضهم للاتجاه الاستعمارى عند دول الحلفاء جميعها ، وفى مقدمتها فرنسا . لا يستطيعون أن يهاجموا إنجلترا ويشمتون بمعاناة الشعب الإنجليزى تحت وابل «قاذفات اللهب» الألمانية ، فيراوغون الرقابة ليحدثوا عن فرنسا المنهزمة ، وكأنهم يهجون جثة هامدة . بعض المثقفين كانوا يعبرون عن آرائهم السياسية عن طريق تحليل الأدب والفن والفلسفة الألمانية أو الفرنسية أو الإنجليزية . بعض دور النشر

كانت تنشر كتبا عن الديمقراطية فى مظاهرها التنظيرية أو التنظيمية حتى لايتهم كتابها بأنهم مع دول الاستعمار، وجمهور الشعب والقراء كانوا يشمتون بفرنسا أو إنجلترا ، ولو لم يجهروا بتقديرهم لهتلر ، إلا حينما تنتصر النكتة على الحذر فلا رقابة على المنكتين . بعض الكتاب ، العقاد فى المقدمة ، كتبوا كتبا ضد الدكتاتورية الهتلرية . وكان كتاب العقاد من أجود ما كتب فى تحليل شخصية هتلر ، ولو أنه سلك فيه - كعادته حينما يكتب ضدهم - سبيل الهجو حتى إذا اقترب جيش رومل من الإسكندرية كان أول المهاجرين (الفارين) إلى السودان . وكانت رحلته الأولى خارج مصر لم يعرف بعدها رحلة أخرى إلا إلى الديار المقدسة إستجابة لدعوة . كتب كثيرة نشرت عن الديمقراطية والفكر الديمقراطى وآفاق مستقبل الشعوب بعد الحرب . ولكن المتشبعين بالفكر الألمانى - عبد الرحمن بدوى مثلا - نشر كتبا علمية عن أعلام الفلسفة الألمانية : شوبنهاور - نيتشه - شبنجلر ... ولكن الصحافة - وكانت معظمها غير ذات صلة عضوية بالحكومة . كانت تناصر الحلفاء، وتشيد بانتصاراتهم ضد المحور إلا حينما يحقق المحور إنتصارا ساحقا فمصادرها قنوات الحلفاء ، وتحليلاتها مقتبسة من تحليلاتهم .

الكتاب جميعهم حتى الذين لم تكن لهم مواقف سياسية كانوا يكتبون لصالح الحلفاء . وحتى دور النشر العلمية الجادة أخذت تنشر كتبا لصالح «الفكر الديمقراطى» الذى يدافع عنه الانجليز .

هل كان ذلك مدفوع الأجر ؟ .

السياسيون لم يكونوا يمثلون اتجاهات فكرية ، أغلب الظن أنهم كانوا يفكرون فى مستقبل مصر ، الأحزاب السياسية التى كانت له ترة مع إنجلترا عاشت معظم فترات الحرب مبعدة عن الحكم . وكان يرأس الحكومة - فى الغالب شخصية غير ذات وزن سياسى شعبى ، ولو تمتعت بلقب الباشوية . والصحف الحزبية ، والبرلمان أيضا ، لم تشغل بالسياسة الداخلية إلاّ حينما يتعلق الأمر بالصراع الحزبى أو حينما تقحم مصر فى موقف عسكرى . ولكن الرقابة كانت لها بالمرصاد . السلطات الانجليزية اتخذت من بعض السياسيين موقفا حذرا أو عداو لما اشتهر عنهم من ميول ألمانية أو دكتاتورية ، أو ميول عداوة مطلقة لانجلترا .

الملك وحادث ٤ فبراير ومعركة العلمين

الملك نفسه كان متهما بميول إيطالية لأسباب ، ربما تعود إلى أصل العائلة ، أو لأن القصر كان يتحرك فيه عدد من الأصدقاء «الخصوصين» للملك ، وكانوا إيطاليين يخدمونه ويوجهون فكره . ولم يكن ذا فكر سياسى بقدر ما كان ذا ميول مصلحية ومزاجية. والإنجليز لا يثقون فى إدارته للحكم فى مصر . ولذلك كانوا يفرضون وجودهم فى السياسة والحكم ، حتى إذا اختنق الوضع العسكرى فى الصحراء الغربية فرضوا وجودهم العسكرى «لصالح الديمقراطية» فى مصر . وخوفا من زيادة الوعى بالعداوة للإنجليز يتحالف فيها القصر والشعب والإعلام والدعاية المحورية .

كـان ذلك فى حـادث ٤ فـبـراير ١٩٤٩ مـعـركـة خـاضـتـها الدبابات والسيارات المصفحة الإنجليزية فى ميدان عابدين حيث يوجد القصر الملكى . مـعـركـة أخـرى «مـوازية» كـانت على أبواب الإسكندرية. كـان الجنرالان رومل ومـونتـجـومـرى يخـوضـان مـعـركة النصـر والهزيمـة فى الصحراء الليبية المصرية: ليبيا تحت النفوذ الإيطالى. إيطاليا لم تستطع الدفـاع عن ليـبـيـا والزحف على مـصـر لتـحـقـيق أحـلام الإمـبـراطورية الرومـانيـة باحـتـلال مـصـر - التى راودت مـطامح جـمـيع المغـامـرين فى التاريخ الإنسانى - وكانت مصر بالنسبة لإنجلترا شريان الإمبراطورية. لو فقدتهما فقدت معركة لندن، وفقدت أولا إمداداتها من الهند وإستراليا ونيـوزيلاندا، وفـقـدت مـناطق البـتـرول وهو قـوة الحـرب، فـفـى إيران والسعودية التى كانت البداية تبشر بالفيض.

هتلر لم يعـتـمـد على الجـيش الإيطالى «الفـاشل» فى قـيـادة مـعـركـة الصحراء فنقل إليـها جيشـا قـويا فى مـغامرة خطيـرة باجتيـاز البحـر الأبيض، الذى كـانت تجوبه الغواصـات الإنجليزية. واخـتـار لقيادته أعظم ضـبـاطه (الجنرال رومل) بعد تجارب غـيـر مـجدية. وانجلترا نقلت إلى مـصـر أعظم جـيـوش الإمـبـراطورية «الجـيش السـادس» من الهند ونيوزيلاندا الجديدة وأسـتـراليا وقليل من الإنجليـز، واخـتـارت قـائداً إثر آخر، معظمـهم انهزم فى مـعارك تجـريبـيـة بين طبـرق وبنغـازى حـتـى إذا

تبينت معالم المعركة الكبرى وقع الاختيار على الفيلد مارشال مونتجومرى وكان الند القوى لرومل، معارك طاحنة عرفتها حرب الصحراء لما تتبادل فيها القوتان إلا النصر الساحق أو الهزيمة الساحقة. كان رومل فيها يقف على أبواب الإسكندرية فتستعد السلطات الإنجليزية للرحيل عن القاهرة بعد أن تحرق سفنها - حتى وثائقها - وكان مونتجومرى يقف فيها على أبواب بنغازى فتستعد السلطات الإيطالية للرحيل عن البلاد التى طالما داعبت إمبراطورية روما. وكانت معركة العلمين «١٩٤٢ معركة الفصل فى حرب الصحراء».

الشعب المصرى يتتبع المعركة بكثير من الوعى هذه المرة. لم يعد يسخر من الغارات الفاشلة على القاهرة التى لم تكن تثير الرعب إلا فى النساء فيلجأن إلى المخابىء التى لعلها لم تكن لتقى شظية من قنبلة، وكانت كذلك ملتقى للساخرين والذين ينفجرون ضاحكين - لا مرعوبين من النكت اللاذعة والبارعة التى تثيرها ظروف الحرب وفرار جيوش الحلفاء من جيوش المحور . كانت النكته يلقيها الرجل فى ظلام المخبأ فتنتزع الرعب من قلوب الخائفين والخائفات، وتصبح بعد ذلك حديث المجالس. أخذ الشعب يشعر بجدية المعركة. وبلغ ضغط الحرب شدته. المال سالت موارده عند بعض المحظوظين القائمين على الخدمات العامة، مما ينفق الجنود وعمال المصانع الصغيرة، لعل بعضها كانت

تنتج قطعا حربية. والغذاء قل فى الأسواق، رغم أن السلطات الإنجليزية كانت تؤثر مصر بالكثير مما يأكل الناس. والثياب مما تنتجه بعض المعامل. والخياط يستطيع أن يقلب البذلة ظهرا لوجه بعد أن يحيل الوجه فلا يستر وجها..

وقد عانت القاهرة والإسكندرية على الأخص من عربدة الجنود الإنجليز والنيوزيلانديين «والهنود بدرجة أقل» كانوا يقضون عطلاتهم فى المدن وضواحيها. ولا يكاد يستقر بهم مقام حتى «يزحفوا» على وسط المدينة معربدين يترددون على المقاهى والمقاصف ودور السينما، متجولين فى الشارع يعاكسون النساء ويستهترون بالرجال ولا يراعون كرامة المجتمع. كان أحدهم - مثلا- يدخل دكان أحذية ويصر على أن يقيس لسيدة محترمة الحذاء بنفسه ليقوم بما لا يتفق وكرامة المرأة. وكان الرجل المحترم يسير فى الشارع فلا يلبث أن يختطف جندى معربد طربوشه أو يؤذيه بما لا يقبله رجل محترم. اختطف أحدهم طربوش الرئيس بورقيبة، وهو يسير على قدميه فى شارع عمومى. وقد تأذت المدن بأخلاق الفسق والعربدة التى نشرها الجنود بين بعض طبقات المجتمع. ورغم دوريات شرطة الجيش الإنجليزية التى لم تكن تزيد على نقل سكير وقع أرضا، وقد فقد وعيه. إلى القاعدة العسكرية، رغم هذه الدوريات، فقد كان الجيش الإنجليزى يتجاوز حدود اللياقة،

وهو يعرف ألاسلطة لأحد عليه إلا سلطة الضابط الإنجليزى، الذى قد يكون من بين السكارى الذين يهددون الأمن العام فى شوارع القاهرة والإسكندرية وبورسعيد والإسماعيلية وغيرها من المدن.

فى هذا الجو الذى كانت أخبار معارك الصحراء تزيده توترا، وأخبار الذين تختطفهم سلطات الحكم - بأمر من السلطات الإنجليزية من سياسيين ومناضلين - وعرب غير مصريين فتزج بهم فى معسكرات الاعتقال فى الصحراء - فى هذا الجو المتوتر بدأ الناس يبحثون عن الخبز والزيت والسكر والشاى، والغاز فلا يجدون إلا ما يسد الرمق، وحينما اتضحت معالم الهزيمة الإنجليزية، وروميل يدق أبواب الإسكندرية خرجت مظاهرات إلى الشوارع يقودها الطلبة والعمال والمغامرون تهتف بحرارة:

- إلى الأمام ياروميل

ولم يكن الهتاف وحده هو الذى أطار صواب السلطات الإنجليزية. الإنجليز ألفوا تظاهرات المصريين فى الأيام الحرجة، حرب عرابى، الثورات الوطنية الدامية فى عهد مصطفى كامل ثم بزعامة سعد زغلول سنة ١٩١٩، وألفوا الثورات السلمية ضد هذه الحكومة أو تلك التى تبتدى بالهتاف وتنتهى بالهتاف، ولكن هذه المظاهرات كان وراءها ما يجعل منها تحذيرا ونذيرا. فقد أكدت أن الشعب المصرى قد يكون كله مع روميل لو احتل الإسكندرية.

وما من شك فى أن الهاتفين لروميل لم يكونوا يفكرون بما يمكن أن يصنعه هتلر لو احتل مصر بالشعب المصرى ، كانت السياسة العنصرية التى يمارسها هتلر فى البلاد التى احتلها بولندا مثلا، وحتى فرنسا، ضد الشعوب غير الآرية مما تخفى معالمه على الشعب المصرى، بل حتى على الشريحة المثقفة من الشعب، وما نظن أن شعب مصر كان سيعرف حرية أو احتراما وتقديرا من الحاكمين الألمان.

والنداء لرومل الجنرال الذى كان يثير الرعب فى الإمبراطورية البريطانية كان مما بعث السلطات الإنجليزية ومن ورائها السلطات المصرية إلى التفكير فى الذين كانوا خلف هذه الدعوة الجريئة. الإنجليز لم يكونوا يستبعدون أن تكون المخابرات الألمانية قد تسربت إلى قلب مصر لتخريب الصفوف الخلفية للحرب المصيرية. ثم هم لم يكونوا يستبعدون أن يكون لعملاء القصر - وكان متهما بالميول المحورية والعداوة للإنجليز - يد فى إثارة المظاهرات التى تهتف «إلى الأمام يارومل».

وفى هذه المرحلة الدقيقة شعرت السلطات الإنجليزية بالحرج. كان التهديد قويا حتى أن «السفارة الإنجليزية» - وهى التى كانت تبسط نفوذها على مصر - أخذت، والسلطات العسكرية تفكران فى الرحيل، وشهد المواطنون أعمدة من الدخان تنطلق من مداخن السفارة التى كانت تحرق كثيراً من الوثائق التى كانت تخشى من وقوعها بين يدى

الألمانيين. وما من شك فى أن السفارة الإنجليزية كانت تتوفر على كثير من الأسرار التى لا ينبغى أن تقع فى يد العدو: وثائق مدنية وعسكرية تتعلق بالشرق الأوسط جميعه. ومصر كانت عاصمة المنطقة التى تسيطر عليها السلطات الإنجليزية.

السؤال الذى طرح نفسه بحدة وخوف فى نفس الوقت هو: هل ستدافع إنجلترا - حربيا - عن مصر؟ هل ستقع معارك داخل المدن المصرية كما حدث فى مدن أوربا التى دمرت وقتل معظم سكانها؟ كثير من العائلات المصرية أخذت تنتقل إلى الأرياف تحسبا للحرب. والسؤال لم يكن ليناقش على المستوى المصرى، وبالتالى على مستوى عموم الشعب فى الصحف ووسائل الإعلام، والسلطات الإنجليزية كانت تنتظر احتلال الإسكندرية أكثر مما تنتظر عملا ضد الزحف الذى اكتسح الصحراء. ويبدو أن الدفاع عن الإسكندرية سيكون خفيفا مما لا يؤدى إلى تدمير المدينة. أما القاهرة فيبدو أنها كانت ستعلن مدينة مفتوحة،. ولكن الدفاع كان سيتركز فى منطقة القناة. فى هذا الشريان والمدن المتراصة حوله ستكون المعركة الفاصلة للدفاع عن مصر. وهذا التخوف هو ما دفع كثيراً من الأسر للهجرة إلى الريف.

الحكم «الوطنى» فى مصر - إبتداء من الملك حتى الحكومة - كان مما لا يعتمد عليه فى مواجهة وضعية متأزمة كهذه ولا فى مواجهة

مظاهرات تعادى الإنجليز وتهتف لرومل والقوات الإنجليزية لا يمكنها أن تتدخل مباشرة لصد التيار العدائى للشعب المصرى ضد الإنجليز. وتفتقت عبقرية الإنجليز فى الاعتماد على قوة سياسية شعبية عرفت فى «التاريخ الحديث» وفى وعى المصريين بعدائها للإنجليز، ولم تكن هذه القوة غير الوفد المصرى بزعامة مصطفى النحاس باشا.

المشكلة الأساسية أن النحاس كان مبعداً عن الحكم بإرادة الملك، وأن الشعب الذى كان يكره الإنجليز ويبارك هزيمتهم لم يكن ذا صلة بالملك، كما لم يكن الملك ذا صلة بشعبه. كان يعيش حياته، رغم الحرب. ولعله كان يأمل فى أن يجد تأييدا من قوات المحور لو انتصرت على القوات الإنجليزية، ولعلها كانت ستحرره من ضغط الأحزاب السياسية، ومن الاختيار «الديمقراطى» الذى «باركه» الإنجليز فى وضعه المهزوز منذ دستور ١٩٢٣. ورغم تغيير الدستور، وعودته والانقلابات البرلمانية المتكررة، قد كان الملك غير مختار بأن يحكم بواسطة «انتخابات» يختارها أن تكون مع «اليمين» كما يختارها أن تكون مع «اليسار». فلا يمين ولا يسار؟ وإنما هناك حزب وطنى يسير مع الملك فى تنفيذ رغباته، ولا أقول سياسته، كلما سار معه الملك، وقد تسوء العلاقات بينهما فيرفضه الملك ويقيله من الحكم، ويحل البرلمان الذى يتمتع فيه بالأغلبية، وهناك حزب أو أحزاب أخرى ومستوزرون غير منتمين، ومستعدون

للانتماء كلما أرادهم الملك يملأ بهم الفراغ فى الحكم والمؤسسات «الديمقراطية».

كان الإنجليز يعرفون نقط الضعف فى الملك وفى الوضع السياسى عموما. وكانوا يؤكدون لأنفسهم أن مواجهة العدو عسكريا فى الصحراء الليبية - المصرية فى حاجة إلى حماية من الداخل بامتصاص ظروف التوتر، هم غير قادرين على ذلك سياسيا وعسكريا. الملك غير قادر على ذلك، ولو استعان بالأحزاب التى يعتمد عليها. الود مقطوع بينه وبين الوفد، فلا سبيل إذن لامتصاص التوتر الشعبى إلا بواسطة الوفد وزعيمه النحاس، هم يعرفون أن النحاس لا يملك القدرة على تنفيذ برنامجه. فهو الآخر حزب بدون برنامج إقتصادى أو اجتماعى غير بعض المظاهر والشعارات الشعبية. ولو كان له برنامج لما استطاع أن يغير من وضع مصر، ولما استطاع أن يصد تيار «الولاء» الشعبى ضد الإنجليز ولصالح المحور لو احتلت الإسكندرية.

لم يكن فى يد السياسة الإنجليزية إلا أن تفرض الوفد فى الحكم ضدا على إرادة الملك.

وما من شك فى أن «قصر الدبارة» وضع السيناريو باتقان مع النحاس. فقد كانت أسلاك الاتصال محكمة بين «السفارة» الإنجليزية والهيئات السياسية. وصلة الوصل مع حزب الوفد كان هو السيد عثمان

أمين – أحد خريجي المدرسة الانجليزية الذى سيصبح وزيرا للمالية فى حكومة النحاس – وما من شك في أن الملك والأحزاب الأخرى فوجئت بالمخطط الإنجليزى فى الساعات الأخيرة من عشية يوم ٤ فبراير، حيث طلب السفير سير مايلز لامبسون مقابلة عاجلة مع الملك، وسلم إليه إنذاراً – فى مظاهرة عسكرية – عرفها ميدان قصر عابدين، مقر الملك يقول:

– إذا لم أتلق قبل الساعة الثامنة مساء، أن الملك عين النحاس باشا لتشكيل حكومة جديدة فإن الملك يتحمل عواقب كل ما يحدث.

الإنذار المكتوب كان – بالطبع مصحوبا بإنذار شفوى واضح يعنى عزل الملك وتعيين ولى العهد محمد على ملكا على مصر وهو شيخ طاعن فى الثمانين أو قريبا منها. ولم يكن لفاروق آنذاك عقب ذكر.

فوجئ الملك بجرأة الإنجليز وبضعف قوته على مواجهة الإنذار. ولم تكن لها حيلة إلا أن يلجأ إلى السياسيين من رؤساء الأحزاب والحكومات السابقة علهم ينقذونه من هزيمة لم يتوقعها.

كان الإجتماع تاريخيا وحافلا فى القصر الذى لم يعرف اجتماعا سياسياً مثيلا له. وكان لفاروق رئيس ديوان يملك كل الصفات الحربائية التى تجعل منه مدير ديوان ملكى فى الظروف السياسية التى عاشتها مصر فى منتصف الثلاثينات. يبدو أن أحمد حسنين باشا – وهذا هو

اسمه – وجه السياسيين إلي لعبة سياسية غير جديدة، ومن شأنها أن تحفظ ماء وجه الملك، ولا تلبى الإنذار الإنجليزى حرفيا، هكذا طلب رؤساء الأحزاب والسياسيون من النحاس أن يستجيب لطلب الملك بتأليف حكومة اجماع وطنى برئاسته، وليكن للوفد فيها حظ الأسد. وكان النحاس عند رأيه الذى لايتنازل عنه وهو رفض كل حكومة ائتلافية، ولو تحت رئاسته. وترجاه الآخرون – كادوا يقعون تحت قدميه ووقت تنفيذ الإنذار يقترب – وهو يرفض لأنه كان قويا بصلابته أولا، وبالإنذار الإنجليزى ثانيا.

خرج النحاس من القصر رئيسا للحكومة. وقال خصومه: إنه حكم تحت حراب الإنجليز.. وقال: إنه حكم بإرادة الشعب، وكان الخاسر الأول فى المعركة هى كرامة مصر. وكان الخاسر الثانى طبعا هو الملك.. ورغم أن النحاس إصطنع كثيرا من مظاهر الطاعة والامتثال لصاحب السيادة. واصطنع مثيلا لها لصاحب الفضل فى فرض حكومته، إن العلاقة بين الحكومة والملك لم تعرف انسجاما حتى انتهت الحرب أو كادت بوضوح النصر النهائى، فلم يعد للإنجليز رغبة فى «وضع ديمقراطى» يعتمد أغلبية برلمانية وفدية وحكومة نحاسية. فذهبت حكومة النحاس ببرلمانها.

لم يعلم الشعب المصرى بشئ اسمه إنذار ٤ فبراير. ولم يكتشف سر التعيين المفاجئ للنحاس على رأس حكومة مصر فى تلك الليلة إلا

بعد اقتراب نهاية الحرب وإلغاء الرقابة على الصحافة وظهور صحف جديدة لخلق جو سياسي جديد يساير مخطط صدقي في محاولة تعديل معاهدة ٣٦. وقد كتبت هذه الصحف ذات الانتماء للقصر والحكومة ما سمته قصة ٤ فبراير. وأعطت عن النحاس صورة لم تستطع أن تغير من ثقة أغلبية الشعب المصري فيه.

وزارة النحاس استطاعت أن تمتص كثيراً من التوتر الشعبي. ولاشك أن أزمة الخبز حلت فالإنجليز كانوا قادرين على أن يصطنعوا الأزمة وأن يحلوها. ولكن شعارات النحاس ولهجة خطبه المتفائلة التي تستعيد دائماً التاريخ، وتعتمد على أسطورة الثورة المصرية على عهد سعد زغلول ومعاهدة الاستقلال «التي أكدت الظروف أنها لم تكن معاهدة استقلال»، كان كل ذلك قادرا على استعادة الثقة في المستقبل.

غير أن الأثر الأكبر لعودة الروح إلى مصر أن مونتجومري استطاع أن يدحر رومل في العلمين. وأن جيوش المحور بدأت ترحل عن الصحراء. مما مهد الطريق لطردها من ليبيا واحتلال الإنجليز والفرنسيين لها.

وكانت تلك المعركة بداية النهاية للحرب.

الخماسين السياسية عواصف على مصر

لم تشارك مصر فى الحرب العظمى إلا قبيل إعلان السلام بأيام استجابة لطلب الحلفاء وإغراء بحضور مؤتمر السلام أو المشاركة فى تأسيس الأمم المتحدة. وظن الدكتور أحمد ماهر - رئيس الحكومة - أنه يقدم لمصر هدية ثمينة دون كثير من الضحايا البشرية، فقدم حياته ثمنا، وهو يحاول أن يقنع الرأى العام فى مصر، وعن طريق خطبه الرنانة في البرلمان وفى حرم جامعة «فؤاد». وكان القصر الملكى والرأى العام - والطلبة فى المقدمة يكره الإنجليز ولا يقبل أن يندمج فى حرب معهم، ولو بإغراء مؤتمر الصلح. وعبر عن هذه الكراهية برصاصة فى قلب رئيس الحكومة .

وكانت بداية العاصفة.

ظروف الحرب القاسية لم تختف فى مصر بإعلان «السلام» لم تعان مثلها إلا البلاد التى لم تخض غمار الحرب، وكان موقعها فى مثل موقع مصر الاستراتيجى والتاريخى. وبنهاية الحرب بدأت مشاكلها تثمر فى منطقة الشرق العربى ومصر على رأسها. كانت مصر - شعبا وحكومة - تفكر فى جلاء القوات الانجليزية التى وفرت لها من مواقع مصر أكثر مما فرضت معاهدة ١٩٣٦. وكانت تعتقد أن الظروف أصبحت مواتية

لتغيير المعاهدة وإعلان الاستقلال الكامل والجلاء المطلق دون قيد ولا شرط وانهاء الحلم المزدوج ، وضعت على رأس لجنة المفاوضات عجوزا - نسيت اسمه - يبدو أنه اختار أن يقضى بقية حياته فى مصر متنقلا بين القاهرة، فى الشتاء والاسكندرية فى الصيف يقدم للحكومات المتعاقبة مشروعا بعد مشروع، وكان قادة هذه الحكومات - من صدقى حتى النقراشى - يصرفون جزءاً كبيراً من ولاياتهم فى فك رموز المشروع، وينتهى بهم الأمر إلى أنه كسابقه. وأدرك شعب مصر - والطبقة الواعية من المسيسين فيه بخاصة - أنهم أمام «لعبة إنجليزية جديدة» ولكن رجال الحكم كانوا يشغلون أنفسهم. ويرغبون فى أن يشغلوا الرأى العام معهم بأنهم «يجاهدون» الانجليز للخروج من مصر. واندفع رئيس الحكومة «السعدية» محمود فهمى النقراشى ليرفع الأمر إلى الأمم المتحدة فكسب -«شكليا»، وإلى حين - الرأى العام وخسر الدعوى ضد إحدى صانعى الأمم المتحدة.

وبقى الإنجليز فى مصر، جيشا وسلطة قرار، رغم إرادة الشعب والملك والحكومات المفاوضة.

ركزت الحكومات على العمل السياسى، تعديل المعاهدة، الجلاء، تحقيق الاستقلال الحقيقى، قضايا تشغل الرأى العام الشعبى عن مشاكله الحقيقية.

كانت تجد نفسها عاجزة عن معالجة المشاكل الكبرى التى تعانيها مصر. والتى ضاعفت الحرب من سيئاتها، وكان الفشل فى القضية الكبرى «الجلاء» يزيد من تنامى المشاكل وخطورة الفشل فى حلها. المشاكل الاجتماعية كانت فى المقدمة. انسحبت الحرب من حل بعض مشاكل التشغيل. وانسحبت الأموال المتدفقة من مصاريف الحرب التى كان يعيش عليها الكثير من العمال، وبدأت البطالة تتكشف عن مضاعفاتها الخطيرة وتناميها أمام عجز الحكومة عن تشغيل العاطلين وعجز الفكر السياسى عن أن يتحول فكرا اقتصاديا، بإيجاد مشاريع اقتصادية تعوض عن مشاريع الحرب. المساعدات الغذائية انسحبت كانت تفد على مصر لتعوض عن نقص الغذاء، والكساء والمال، اعتاد الكثيرون من مختلف الطبقات أن يتلاعبوا بالمال «حتى سموا أغنياء الحرب» فى لحظات معدودات انسحب المال من أيديهم فانضافت فئة فاسدة مفسدة، إلى المجتمع المصرى الطيب، مؤهلة بكل سيئات المال الحرام.

لم تشعر مصر أثناء الحرب بالزيادة المهولة فى السكان. الحرب كانت تشغل المجتمع عن الاهتمام بهذا الموضوع المهول. انتهت الحرب فبدأت أفواه أطفال الحرب تطلب القوت والكساء والتعليم والاستشفاء والعمل ثم السكنى، وهى من أخطر ما واجه الشعب حتى أن الكثيرين فضلوا أن يسكنوا مع الموتى فى القرافة «مدينة القبور».

أخلاق الحرب استبدت باهتمام الراصدين دينيا وخلقيا واجتماعيا، فظهر شباب الإخوان المسلمين يناضلون فى الجبهة الاجتماعية، ولو كانت موجة يركبونها للنضال فى الجبهة السياسية، ضد الإنجليز لا ضد الحكم الوطنى «المسئول» عن المشاكل الاجتماعية والفاشل فى إخراج الإنجليز من مصر.

لم تكن فى مصر قوة سياسية تستطيع أن تحول وجهتها نحو مقاومة الخطر الداخلى الزاحف، إلى جانب القضية المزمنة: قضية تغيير المعاهدة بالجلاء، وهو المظهر الوحيد الذى تجلى فيه الوجود الانجليزى فى مصر. لم يكن هذا باديا فى الاقتصاد أو فى التوجيه السياسى، فقد اعتبر المصريون الجلاء عنوان استقلالهم لأنهم عانوا من الاحتلال العسكرى - ربما - أكثر - من شعورهم بالمعاناة من الاحتلال السياسى والاقتصادى ، والوجود العسكرى كان يفرض الوجود السياسى ويحمى حكم «قصر الدوبارة» مقر السفير الإنجليزى الذى كان الحاكم الحقيقى لمصر هكذا كانت الأحزاب السياسية تعالج قضايا مصر. ومن هذا المنطلق كانت تنصرف عن القضايا الاقتصادية والاجتماعية الأساسية حتى تكشفت - بعد لأى - عن الخطر الكبير الذى هدد مصر فى كيانها.

نزعات سياسية دينية يسارية

ولكن التفكير فى القضية الكبرى الذى استبد بالأحزاب السياسية، ووضعها في قمة المزايدة، وفى منطقة التنافس مع القصر، لم يمنع من ظهور نزعات سياسية دينية اجتماعية تفكر فى وضعية الحكم وفى الوضع السياسى والاقتصادى والاجتماعى الذى تردى بسبب الحرب: نزعة سياسية إسلامية اجتماعية تجلت فى «الإخوان المسلمون» التى انتهزت فرصة الحرب فجددت نشاطها تحت شعار الاسلام، واستيقظت جماهير من شباب الجامعات والمعلمين والأساتذة، ولعبت دوراً مهما وقويا بعد الحرب ضد الانجليز فى القناة. وضد الطبقة الحاكمة التى اعتبرت بعض رجالها متخلفين عن الركب الوطنى، وانتهى بها الأمر إلى ركوب موجة معاداة القصر، فبدأ بتصفيتهم والإطاحة برؤوسهم. كانت الدعوة سبيلها فى البداية. وكان حسن البنا من أقوى الدعاة، وأكثرهم قدرة على التأثير، وأسلمهم منطقا وأقومهم أخلاقا وتواضعا. وكان يؤمن بقضيته كما يؤمن بأسلوب الوصول. جلست إليه عدة مرات فلم يلح علىّ فى الالتحاق بالجامعة، ولكن أقنعنى بأنه زعيم قضية قادر على الاكتساح. والصحيفة اليومية التى أنشأتها الجامعة - بعد المجلات الاسبوعية المتعددة - وجدت مكانها فى الصحافة اليومية إلى جانب

الأهرام والمصرى والوفد المصرى. وكانت الجماعة مؤهلة لمواجهة التيارات اليسارية العلمانية، التى بدأت تتحرك بعد الحرب انطلاقا من الجامعة، لولا أن الإخوان اصطدموا بالحكم عن طريق الجناح المسلح الذى بدأ يغتال رؤوس السياسة، وكان فى مقدمتها أحمد ماهر، ثم النقراشى بعد أن دخل مع الإخوان فى معركة الابادة. ثم مع حلف ابراهيم عبد الهادى وانتهى الأمر فى صراع دائم مع الحكم حتى مرحلة ما بعد الثورة.

فى مقابل هذه النزعة كانت النزعة اليسارية التى لم تجد لها أرضية قوية رغم أن الوضعية الإجتماعية كانت تمنحها قوة الانطلاق «ومشروعية» العمل فى الأوساط المثقفة على الأخص، كانت الجامعة ميدان - غير خصب - لنشاط هذه النزعة. ولكن يبدو لى من خلال رؤية بعيدة ومضببة أن هذه النزعة لم تكن منظمة، ولا مؤهلة إيديولوجيا للقيام بنشاط ملحوظ. بعضهم كان يحاول العمل فى ظل الأحزاب فالتحق محمد مندور بالوفد - وترك الجامعة - ليحاول أن يستغل أفكار الوفد الشعبية، ولو أن الوفد لم يكن له برنامج ولا سياسة اجتماعية واقتصادية يسارية - وأخذ يكتب افتتاحيات فى «المصرى» - وكانت وفدية - قبل أن يختلف مع صاحبها محمود أبو الفتح، لينتقل إلى «الوفد المصرى» المعبرة رسميا عن رأى الوفد - فيجد فيها الحرية

المطلقة للتعبير عن آرائه «الاصلاحية» وعن توجهاته الاجتماعية بقدر ما كانت الحكومات الملكية آنذاك. تسمح فى الجامعة كان قليل من الأساتذة الصغار - معيدين ومدرسين - يتركون الدرس أحيانا للتبشير ببعض الأفكار اليسارية العدائية للسلطة بكثير من الخوف والحذر، كان أستاذ اللغة الإنجليزية يرتاد معنا كثيرا من آفاق اللغة التى كان علينا أن نتعلمها لنمتحن فيها. وكان الدكتور لويس عوض - قبل أن يترك الجامعة - يطلب سيجارة من أقرب طالب إليه ويترك شكسبير مع الملك ليرى وروميو وجولييت ليحدثنا عن الوضع الاجتماعى المتردى ، سألنى مرة: كيف ترى هذه البناية، بناية الجامعة؟ أظهرت إعجابى. ليس أكثر تكريما للعلم من بناية كهذه.

ضحك ضحكتها الطفلية وهو يقول: العلم فى حاجة إلى صرف المال فى هذه الأحجار. أكسفورد ليس فى هذه الضخامة.

وسألنى مرة: كم يأخذ كبار الموظفين عندكم فى الغرب؟

أجبت: كلهم فرنسيون يأخذون بقدر ما تسمح لهم امتيازاتهم والشعب يموت جوعا.

مصر تنافس كل العرب

نوع من التفكير الوطنى لا تلام عليه أحزاب سياسية نشأ - معظمها - فى غمرة النضال ضد الوجود الانجليزى.

مصر كانت مؤهلة لقيادة العالم العربى فى مرحلة ما بعد الحرب، ولو أنها كانت منصرفة عن هذا العالم منذ عهد محمد على. لكن الحرب ربطت المنطقة بما سمى «الشرق الأوسط» وانجلترا اقترحت تكوين جامعة للدول العربية لتمتص النقمة التى تجلت فى الحرب ضد الانجليز والفرنسيين، ولتربط النضال الموزع من أجل قضايا أساسية: الجلاء عن الحبانية فى العراق وعن قناة السويس فى مصر وعن فلسطين «بما تتضمنه القضية من استمرار فى عملية تسليم هذه «المستعمرة» للصهيونيين وعن استقلال ليبيا وتوحيدها، تربط كل ذلك بهيئة واحدة تسمى «الجامعة العربية»، تشغل بها الحكومات، وتجعل منها المشجب التى تعلق عليها الحكومات كل عجزها وضعف حيلتها فى مواجهة عالم ما بعد الحرب.

وكانت مصر المتنفس الأكبر لكل العرب المناضلين فى سبيل قضاياهم، والتى أصبحوا يلخصونها - بعضهم على الأقل - فى قضية الوحدة. ولا حديث عن المشاكل الاقتصادية والاجتماعية كأنما تكفلت بحلها دول أخرى غير الدول المعنية.

وفى مصر تجمع الاهتمام بالقضايا العربية، سواء من خلال الجامعة، أو من خلال خلايا الهيئات السياسية الجديدة، أو من خلال الجماعات الاسلامية التى أصبحت تهتم بكل ما يتصل بالعرب والمسلمين. وفى مصر تجددت الدعوة لمعالجة قضية فلسطين، بدأت منذ المؤتمر الإسلامى الكبير الذى عقد سنة ١٩٣٨ ثم استأنف المناضلون الفلسطينيون - منذ لجوء مفتى فلسطين، الحاج أمين الحسينى، إلى مصر بعد الحرب - الدعوة للاهتمام بالزحف الصهيونى على فلسطين - اهتمت الجامعة بالقضية واهتمت بها الدول العربية عن طريق مصر. وأصبحت القرارات الكبرى تتخذ فى القاهرة. وازداد اهتمام العرب بتنامى العمل الصهيونى العالمى فى الخارج وفى فلسطين نفسها، التى ساد فيها العنصر الصهيونى بالهجرات الكبرى التى ساعدت عليها انجلترا والولايات المتحدة على الأخص، إنجازا للوعود المتكررة، منذ وعد بلفور ١٩١٧ حتى الوعود السرية العسكرية والمالية والسياسية وتنظيم الهجرة التى بذلت للزعماء الصهيونيين أثناء الحرب.

فلسطين تحول مجرى التاريخ

بدأ شبح الدولة الصهيونية يهدد الوجود العربى، وبدأت الدول العربية تعالج، كل منها، القضية بحسب ما تمليه مصلحتها، وما تستطيع أن تلبى به رغبات شعوبها وربما بقدر ما يوحى به عجزها عن

معالجة القضايا الوطنية التى أخذت تزداد حدة . بعد الحرب الشعوب كانت تعبر عن آمالها المكبوتة فى القضية التى لا تجد من يعترض عليها: قضية فلسطين التى تجمع فى طياتها العداء للاستعمار والعداء للصهيونية، وأحيانا العداء للحاكمين كلما بدا منهم تهاون أو عجز فى معالجة القضية، أو تآمر مع الانجليز ومع الزعماء الصهيونيين.

وبدأت قضية فلسطين تحول مجرى التاريخ فى مصر والبلاد العربية.

ويظهر التاريخ على حقيقته. فالبلاد العربية التى وحدتها الجغرافية واللغة والدين والتاريخ المشترك - منذ ما قبل الإسلام - حتى الغزو الأوروبى على يد نابليون ثم الانجليز، هذه البلاد لا يمكن أن تصوغ مستقبلها منفردة. ولذلك كانت صيغ الوحدة التى عرفتها الخمسينيات والستينيات من هذا القرن تعبر عن الاتجاه التاريخى الجغرافى الثقافى الحضارى، رغم الفشل الذى منيت به وكان طبيعيا لأن الذين نفذوا الوحدة وسعوا إلى الانفصال ، والشعوب الذى تحققت فى عهدها، لم يكونوا جميعا فى مستوى التحول الذى يفرضه التاريخ.

ومن المؤكد أن النظم العربية بعد الحرب لم تكن تتصرف بإرادتها، وأن كل القرارات التى تصدر عن القاهرة وبغداد أو دمشق أو عمان أو غيرها من العواصم لم تكن قرارات عربية وبالتالى لم تكن مصرية ولا

عراقية ولا سورية ولا ... انجلترا كانت متمكنة من المنطقة وقبل أن تسلم المسئولية لأمرها وكانت تتمنى من إيران على عهد الشاه سبيلا لمحاصرة المنطقة التى تزخر بالبترول من الشرق. ولكن انجلترا وأمريكا لم تكونا لتفكرا في مشكلة كمشكلة فلسطين لولا مركزها الاستراتيجى ولولا أنها تحقق أهدافا أساسية: شغل البلاد العربية وحكوماتها عن القضايا الأساسية، وتحقيق هزائم متكررة لمدى عشرات السنين حتى تضمن السيطرة على أعظم ثروة بترولية في العالم. وزرع دولة عبرية تضمن الهدفين السابقين. وتكون الأداة الكبرى للتهديد والإشغال، كما تكون الاداة الكبرى للوجود العسكرى والاقتصادى الدائم فى المنطقة.

وكان لهما ما أرادا.

أخذت الحكومات العربية تنوب عن الشعوب فى النضال ضد الصهيونية العالمية الزاحفة على فلسطين وكل المحاولات التى حاولتها الحكومات العربية مع الانجليز لوقف الزحف الصهيونى باءت بالفشل، حتى إذا تبين الفشل اقترح على الدول العربية المجاورة أن تقوم بحرب ضد الصهيونية، التى تستعد لإنشاء دولة، والتى بدأت تسيطر على مناطق من فلسطين وتطرد العرب منها.

وكان قرار الحرب أخطر قرار تاريخى تتخذه دول لا تشعر بالمسئولية ولا تقدر الظروف السياسية والعسكرية التى تحيط بالمنطقة،

ولا تعرف ممكناتها العسكرية والمالية وإذا كانت حكومة مصر التى تزعمت العرب آنذاك أضعف من أن تقوم بنصيبها فى حرب غير مدروسة، ونتائجها غير مضمونة، فإن حكومات الدول العربية الأخرى كانت أكثر ضعفا وأقل كفاءة. وما من شك فى أن ملوك ورؤساء هذه الدول آنذاك كانوا ضالعين فى اتخاذ هذا القرار الخطير الذى لا يشك التاريخ فى أنه قرار غير عربى - ليس فقط لأنهم كانوا يجهلون عمق المغامرة التى يقومون بها، ولكن لأن بعضهم كان يغامر - عن عمد وسبق إصرار- لتحقيق أهداف خاصة، شخصية له أو لبلاده من وراء قضية كان يعرف أنها خاسرة وأن مصيرها تقرر سابقا فى لندن وواشنطن.

الجيوش العربية والشعوب العربية كانت ضحية تعتيم، وضحية حملة تسميم حماس قوامه الجهل المطلق بمدى خطورة الوضع. وبخطورة المغامرة، كنا نحن العرب المقيمين فى مصر نعيش ضحية سحابة الجهل الغامرة التى كانت تظلل الشعوب العربية، وكنا نظن - كما يظن كل المواطنين - أن الجيوش العربية المتعددة ستقضى على «عصابات» الهاجانا وشتيرن فى أول صدام، ولم نكن نقيم كبير وزن لأن جيش الأردن «الزاحف» على فلسطين كان يقوده جنرال إنجليزى . «فالثقة» فى الجيش أقوى من الشك فى قائده. وكنا نهتبل للقيادة العليا التى تقلدها الملك عبدالله .

ويوم أعلن عن دخول الجيوش العربية الى حدود فلسطين وكان محضرا له بفضل الحملة الإعلامية الكبرى المضللة - اعتبرناه يوم عيد النصر . أذكر أنى قابلت صدفة صديقى الشاعر على أحمد باكثير فى ميدان الجيزة فاحتضنته وقبلته على غير العادة وأنا أهنئه ، فنظر إلى نظرة استغراب وهو يسأل :

- على ماذا التهنئة ؟

- الجيوش العربية دخلت فلسطين .

بأعصابه الهادئة وابتسامته الطيبة أجاب فى عبارات مقتضبة : بالأمل في تحقيق النصر .

أخذنا بالمعارك التى خاضتها الجيوش العربية. وكانت الصحف تنشر تقارير عن بطولة الجيش المصرى وعن الشهداء الذين خضبوا بدمائهم أرض فلسطين . أيام اعتبرتها مجيدة فقد كنت مع شعب مصر أعيش على ما أسمع فى الإذاعة وأقرأ فى الصحف وليس فيما أقرأ وما أسمع غير المجد الذى يحققه الجيش المصرى وبقية الجيوش العربية . والحقيقة أن الجيش وضباطه قاموا بتقديم تضحيات جلى ، سقط فيها عشرات الضباط ومئات الجنود، ولو أنهم كانوا يحاربون بأسلحة فاسدة.

وإن جنحوا للسلم فاجنح لها .

أيام والقارىء يرتل فى الإذاعة فى انتظار بلاغ مهم، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله .

ولم يقرأ القارىء: فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الأعلون والله معكم .

تساءلت تحت مظلة الجهل الغامر بكل ماوراء الآية القرآنية يرتلها القارىء بصوته العذب والبلاغ المهم يقرأه المذيع فى لهجة بلاغات الحرب.

وكان الجواب أبسط من أن يقنعنى حتى تحت مظلة سحابة الجهل. أليست الهدنة خدعة تتيح للعدو أن ينظم نفسه أكثر؟ من فرض الهدنة ؟ كيف قبلتها كل الدول العربية؟ ماهى الضمانات؟ ماذا بعد الهدنة؟ أخذت الاسئلة تتردد بعنف على فكرى فيستيقظ، كما تتردد على أفكار كل المصريين فيستيقظ الواعون منهم من غفلة كانت تغمرهم .

لم يكن أحد يستطيع أن يتحدث بالحقيقة . على كثرة الصحف والصحفيين المقتدرين والمطلعين. لم يكتب أحد عن حقيقة الوضع السياسى والعسكرى الداخلى قبل المغامرة . لم يصدر أى كتاب يبصر بالواقع . السحابة كانت تظلل الصحفيين والكتاب أيضا. القضايا العسكرية محرم معالجتها بغير ماتنطق به البلاغات الرسمية؟ هل هى مؤامرة الصمت كانت هى الأخرى سحابة تظلل الأفق؟ .

ولم تأت اتفاقية الهدنة بالنتيجة التى عقد عليها المسئولون كل الآمال، فاستؤنفت الحرب بعد أيام . ولكن كل شىء كان قد انتهى فى

فترة الهدنة الأولى. وكان استئناف الحرب بداية للهزيمة المطلقة التى كرستها الهدنة الثانية . ولم يقرأ القارىء و «إن جنحوا للسلم فاجنح لها..» ولعله كان عليه أن يقرأ : « ... ويوم حنين إذ اعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين» .

وأعلنت دولة إسرائيل وكان التنافس بين رؤساء الدول الكبرى على أسبقية الاعتراف بالدولة العبرية .

التاريخ يبدأ من جديد

عادت فلول الجيش المصرى الى مصر ليبدأ التاريخ مرحلة جديدة وهو يحول مجراه .

منذ وطئت قدماى أرض مصر وأنا أحتفل مع المصريين بأعياد النصر . والشعب المصرى يعرف كيف يحتفل بالأعياد ، وكيف يجعل غير المصريين يشعرون بالعيد ، ولو كان عيد زفاف الملك فاروق بالملكة فريدة . ولكن شعب مصر لم يحتف بالمأساة التى عرفها جيشه البطل فى مواقع فلسطين إلا بقدر ماتملكته وتملكتنا نحن العرب المقيمين فى القاهرة خيبة الأمل التى عقدناها على الدول العربية، وهى تقف مجتمعة فى وجه الغزو الصهيونى فمثلا فى «عصابات» ؟ غير أن شعب مصر يعرف كيف يكتم مشاعره المأساوية خلف ابتساماته وضحكاته وخفة دمه . كانت الطبقة الواعية تشعر بالخيبة الثانية بعد خيبة تحقيق الجلاء.

وعاد الأبطال الذين لم يكن الكثيرون يعرفونهم من حرب فلسطين وجروحهم الغائرة تنزف ألما وحقدا على الذين سببوا الهزيمة . فتحوا أعينهم على العالم السياسى ، وكانوا، كضباط ، لا يفكرون سياسيا بمقدار ما يفكرون عسكريا. أدركوا حقيقة الوضع الذى يحرك أعماق مصر، ولا تطفو منه على السطح إلا المآسى .

قبل الهزيمة بكثير وبعدها بقليل كانت مصر تهتز من جراء حملات صحفية صاخبة أو هادئة انطلقت بعد تخفيف الرقابة المشددة التى فرضتها الحرب. وكانت البداية - فيما أحسب - من صدور صحف متطورة فى الشكل وفى الأسلوب الصحفى . لم تنشأ هذه الصحف تلقائيا ولكن القصر والحكومة - حكومة صدقى باشا - كانا وراء ها . خرجت قوية نافذة مؤثرة، وبدأت بالهجوم العنيف على الوفد وزعيمه مصطفى النحاس لموقفه في حادث ٤ فبراير ١٩٤٢ حينما فرض «السفير» الانجليزى «مايلزلامبسون» على الملك فاروق النحاس كرئيس حكومة. وكان من المغضوب عليهم من الملك - فرضه لأن النحاس بشعبيته يستطيع أن يمتص الغضب الشعبى ضد الانجليز، والمطالبة الشعبية بالخبز والشاى وغاز الطبيخ ويستطيع اعترافا بجميل الذين أعادوه الى الحكم - أن ينفذ كثيرا من «التعليمات» التى لا تستطيع حكومة أخرى من حكومات الأقلية أن تنفذها . وحاول الزعماء الذين

اجتمعوا حول الملك - والقصر مطوق بالدبابات الانجليزية لتنفيذ الانذار الانجليزى - أن يقنعوا النحاس بتشكيل «حكومة وحدة وطنية» إنقاذا لماء وجه الملك ، فأبى النحاس إلا أن يشكل «حكومة وحدة وفدية» أو ليفعل الانجليز بالملك مايشاء ون .

لم يكن الشعب - الذى اهتبل لعودة الوفد الى الحكم - يعرف هذا الحادث الكبير شاعت بعض الأخبار فى فبراير المشئوم وغطاها انتصار الشعب بعودة الفاسى ولكن تفاصيل الحادث، والصورة المأساوية عنه لم يعرفها الشعب والعالم الخارجى إلا من خلال الصحف التى تنتمى للقصر، والتى كان من مهمتها تحطيم صورة الوفد لدى الشعب المصرى.

ليس المهم من الضجة التى أثيرت ضد الوفد قبيل نهاية الحرب هو دم الوفد، ولكن المهم هو الأزمة التى أحدثتها فى المفاهيم السياسية والاخلاقية ، الوضع السياسى اهتز من أساسه بعد أن كشفت الحرب أخطاء السياسيين وانعدام قدرتهم على الفعل نتيجة للتطور الذى عرفه العالم فى الحرب والتطورات المنتظرة بعدها . مصر أصبحت بدون طبقة سياسية جديدة تخلف الجيل الذى أفرزته ثورة ١٩١٩ . وبذلك اصبحت غير قادرة على رتق الشروخ التى تهدد مصر بالفيضان .

وأخذت معاول الغاضبين والمتذمرين تزيد النار اشتعالا والسفينة تزيد اهتزازاً فوق مياه نيل غاضب . أخذت الرياح تجرى بما لا يشتهى

القصر. فالملك فاروق كان قد بلغ نضجه فى تحقيق متعه الحياتية . وحادث السير و هو فى طريقه الى إحدى منتجعاته القصاصين فسر تفسيرا سيئا . وصدرت فى الصحف مقالات فى رثاء بعض الذين أدركهم الموت الفجائي - بعضهم كان شهيرا فى ميدان من ميادين العلم - والسياسيون القدماء وجدوا أنفسهم عاجزين عن ممارسة نفس الأساليب السياسية التى مارسها بعضهم فى عهد فؤاد، ثم مارسها جميعهم - بالتناوب فى عهد فاروق .

السفينة التى كانت تضطرب فى خضم النيل الغاضب تلقت عاصفة أخرى ككارثة جاء ت بها الرياح هذه المرة من فلسطين وكثيرة هى الكوارث التى هبت على مصر من الشرق . ليست كارثة ٦٧ ولا كارثة اليمن بغريبة عنها .

فضيحة الاسلحة هزت مصر

الضباط الذين عادوا سالمين من فلسطين لم يكونوا يتحدثون عن قوة العدو وضعف الجيوش العربية .ولا عن سحابة الجهل التى ظللت الأجواء العربية قبل خوض المعركة، ولكنهم تحدثوا هذه المرة عن الأسلحة الفاسدة، التى استوردت للجيش المصرى ووضعت فى يد الضباط والجنود فكانت من الأسباب الظاهرة التى كسبت المعركة لاسرائيل وحققت الهزيمة للجيوش العربية وللجيش المصرى بخاصة .

فضيحة الاسلحة الفاسدة لم تترك رأسا من الرؤوس الكبرى التى لعبت دورا فى الحرب العربية الإسرائيلية إلا لوثته بفسادها.

من يبيع الأسلحة ؟ من يشترى ويزود للجيش ؟ من يستعمل ؟

مصر لم تكن تنتج اسلحة . هى إذن تشترى . وفى مثل هذه المناسبات يبرز السماسرة ، حتى الذين ليس من صناعتهم ولا من اختصاصهم سمسرة السلاح ولا معرفة لهم بأنواعه ولا شك إذن أن وراء الصفقات الكبرى من السلاح تجار الموت ، وتاجر الموت لا يميز بين من ستصرعه البضاعة بل إن بعض تجار الموت كان من مصلحتهم أن تعود الرصاصة الى صدر حامل السلاح، وهو مصرى لا إسرائيلى على كل حال ، والذين عاد الرصاص المصرى الى صدورهم شعروا بالعار والخيانة، والمؤامرة الكبرى ضد مصر وجيش مصر وشباب مصر . وغرقت شجاعتهم وتضحياتهم وحماسهم فى بؤرة الخيانة والعار. وكانوا لذلك من الناقمين .

وكانت الفضيحة على رؤوس الاشهاد تناولتها المحاكم والصحافة والقضاء المصرى مشهود له بالنزاهة والمقدرة ، والصحافة فى مصر مشهود لها بالصراحة والجرأة. ولذلك كان الرأى العام مرتاحا للنتيجة قضائيا وإعلاميا، غير أنه لم يول «القضية» ما تستحق من اهتمام ، نظرا لخطورتها على نتيجة الحرب، وعلى سمعة مصر ، وعلى الرؤوس

التى لوثتها المتاجرة فى أرواح أبناء مصر. وككل قضية تشهر بها الصحافة تنوب مع الزمان كما تصاعد مع الزمان . والصحافة التى ترفع من شأن بعض القضايا بالضجة حولها تهيل على نارها المتأججة رمادا يجعلها تخبو. ثم تخبو ، ثم تموت ...

ولكن الذين اكتووا بنار الأسلحة الفاسدة لم تخمد جمرتها فى أرواحهم الملتهبة فتعاقدوا على الانتقام لمصر وجيش مصر. وكان منهم مجموعة الضباط الأحرار الذين نشأت بذرتهم فى حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ وكان يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، كان تغيير المنكر بتغيير النظام. ومصر التى أدت الثمن غاليا - بمشاركتها فى انقاذ فلسطين ففشلت أخذت الثمن جزاء وفاقا حينما أعلنت عن نظام جديد أخذ يصارع الزمن، منتصرا ومنهزما، ومايزال يصارع رغم تعاظم المشاكل التى تعرفها مصر فى النصف الثانى من القرن المودع .

هزيمة فلسطين أفاضت الكأس :

حركات ناقمة غاضبة ، عرف السلاح طريقه إلى أيدى شبابها، وبدأت سلسلة الاغتيالات أمين عثمان أشهر وزير تكنوقراطى عرفته حكومة الوفد فى المالية، كان ذا ميول انجليزية ، صرعه رصاص شباب كان منهم أنور السادات. لحساب من قتل الرجل؟ ويهرب المتهمون من السجن بعد محاكمات صاخبة، ويطوى حادث الاغتيال. اغتيال

النقراشي يتبعه اغتيال حسن البنا.. رؤوس تهوى ، الشعب لا يعرف لماذا؟ ومن وراء الحركة الجديدة؟ ولكن المركب الذى بدأ يهتز بعد الحرب أخذ يجنح ، يتمايل نحو الغرق.

يمكن أن تعتبر نتائج حرب فلسطين النقطة التى أفاضت الكأس، والقضية التى جعلت شباب الجيش المصرى يكشف عن هويته الوطنية ، كان الجيش مغيبا محالا على المعاش منذ ثورة عرابى .. الاحتلال الانجليزى ساهم فى هذه «الإحالة» ودبرها ولا شك. ولكن لم تتح له فرصة للإعراب عن هويته الوطنية فى كل المعارك التى خاضها الشعب المصرى بعد ذلك ضد الاحتلال. ثورة ١٩ نموذجا . حتى الحروب العالمية لم يشارك فيها لأسباب تعود إلى طبيعة الحرب العالمية واستراتيجيتها ، التى جعلت الهنود يشاركون فى المعارك بقوة عددية كبيرة وجنود الشرق الاوسط لايشاركون، إلا بإعلان - رمزى - للحرب ضد المحور ، ولو بدون إطلاق رصاصة الرحمة، والسياسة التى اتبعت مع الجيش المصرى هى إبعاده عن السياسة ، والاغداق على كبار ضباطه «الباشوات» حتى ينعموا بمميزات كبرى لحماية النظام الذى لم يكن يخشى على نفسه بعد أن استقر له الأمر بعد الهزات الخطيرة التى عرفها فى عهد اسماعيل .

العاصفة تجرف الملك

وكان الشعب يظهر تعلقه بشخص فاروق ، ولو لم يكن له نفس التعلق بفؤاد ، غير أن فاروق قام بجهود جبارة لتدمير شخصه والقضاء على تعلق الشعب به. فلم يكن فى مستوى العرش الذى يجلس عليه، سواء بثقافته السياسية أو بتصرفاته فى الحكم. لعل مظاهر التعلق الشعبى التى لعب فيها دورا سياسيا قادة سياسيون (محترفون) اقتربوا كثيرا من القصر كعلى ماهر وأحمد حسنين ، سربت إلى نفسه الشابة كثيرا من الغرور فوظف هذا التعلق الشعبى لمصالحه السياسية ونزواته الذاتية ضد الأحزاب السياسية وخاصة الوفد ولتقعيد سياسة ملكية يلعب فيها الملك دور البطل المحارب، لا دور الحكم المحايد . كان ذلك فى البداية إرضاء للساسة المحترفين الذين سيطروا على القصر ، ثم أصبح لصالحه هو بمساعدة السياسيين (رئيس الديوان الملكى فى المقدمة) ثم بمساعدة فئة من المنتفعين فيهم سياسيون وضباط وصحفيون وتجار و «سمسارة» ...

صورة الملك - النظام أخذت تهتز لدى الشعب بمساعدة بعض الصحف التى كانت تلمح ولا تصرح .. ولكن «الإشاعة» كانت سيدة الموقف التى لعبت بسيرته الخاصة وحياته البيئية والعائلية وتصرفاته

السياسية ، وإقدام النظام على تصفية بعض الشخصيات ، ولو كانت في صورة انتقام بالرصاص الذى طال بعض الرؤوس .

الاهتزاز الذي طال النظام هو الذى ملأ الكأس ، فكانت فى حاجة الى النقطة التى تفيضها . وكانت النقطة هى حرب فلسطين.

وابتعاد الجيش عن السياسة فى بلاد كمصر ، وفى وضعيتها تلك أشعر صغار الضباط بأنهم ضحية الضباط الكبار كانوا يستفيدون من السياسة لأنهم يستفيدون من الامتيازات الكبرى. وكان من الممكن أن يكونوا ضالعين فى قضية الأسلحة الفاسدة، وكان بعضهم مشاركا فى التصرفات الفاسدة التى كانت تنخر النظام ، ولذلك كانت ثورة ٢٣ يوليو ثورة مزدوجة : على كبار الضباط وعلى القصر . ثم على سلوك السياسيين المحترفين الذين كان كثير منهم يسندون النظام بمسايرته فى تصرفاته وتبريرها سياسيا و «ديموقراطيا» عن طريق الانتخابات المزيفة . كانت الثورة إذن ضد النظام بكل مكوناته . وهى ثورة تبررها ظروف مصر جميعها. هى نتيجة طبيعية للحرب الكبرى الثانية . الحروب الكبرى والصغرى اجتزت كثيرا من رؤوس الملكيات فى أوروبا . والحرب العظمى الثانية طالت رؤوسا فى أوروبا والشرق الأوسط والأقصى على السواء. وليس غريبا - للظروف التى عرفنا - أن تكون مصر من بين البلاد التى ساهمت الحرب في خلخلة النظام ، وجاء ت حرب فلسطين لتقضى عليه .

خليها على الله ..

لم يكن مفهوم الحرب واضحا عند الكثيرين إلا الذين عايشوا الحرب الأولى وقليلا ماهم والحرب لم يكن لها مفهوم واضح حتى عند الذين يفكرون بالتاريخ، ويكتبون فى تحليل السياسة العالمية. وحتى كتاب «تاريخ المستقبل» من الأجانب لم يكونوا يتصورون هذا الفضاء الشاسع للحرب. ولو أنهم كانوا يتوقعونها عالمية لم يكن أحد يفكر فى غير اوروبا الغربية ، والدول ذات النزعة التاريخية ولم تكن غير المانيا وفرنسا، ومع الأولى ايطاليا بحكم التحالف المذهبى. ومع الثانية انجلترا بحكم التحالف الديمقرطى المزعوم ، والتحالف الاستعمارى الحقيقى، رغم التاريخ الدامى. أما أن تشمل الحرب مابين اليابان والمحيط الاطلسى مرورا بافريقيا وكل اوروبا وآسيا حتى شمالهما. فذلك ما خبأته المفاجأة حتى للذين كانوا يتأهبون للحرب ويستعدون لخوض غمارها. ولذلك كانت الحرب مجموعة مفاجآت كبرى، قصة العلمين أقلها شأنا. أما معارك «لينين كراد» و «بيرل هاربر» وهورشيما .. فتلك ما لم يكن أحد يقدر أن التاريخ سيسجلها .

لم تكن إذن حربا عالمية بمفهوم الحرب الأولى ، ولكنها كانت حربا كونية جمعت كل متاعب الحروب الأثنية والجماعية السابقة لتقدم للتاريخ

نموذج انسلاخ العالم الانسانى عن إنسانيته ليلج فترة من التاريخ تبلور التخلص من ثلث الإنسانية .

وكنا نحن الطلبة الأغرار لا نقيم وزنا للحياة ووسائلها ، فقد نمونا فى عائلات مستورة لا يعرف فيها الطفل الحاجة ولا الخوف ولا الجوع ، ولا يفكر فى ظلام المستقبل . لم نفكر قط فى أن الحرب ستصيبنا بالحرمان. وربما كان الطابع المصرى قد بدأ يتسرب الى نفوسنا ألم نشرب من ماء النيل .. ؟ المصرى يتكل.. خليها على الله وانس الدنيا وريح بالك .. وأوع تفكر فى اللى جرى لك.. وما أحلاها عيشة الفلاحة .. يبات قلبه مرتاح .. لقى ولا ما لقاش ..

كنت .. وكان غيرى من لداتى - أتلقى من والدى رحمه الله مايعادل خمسة دراهم فى الشهر. وكان الجنيه المصري - تبعا للجنيه الانجليزى - من أغلى العملات العالمية، الدراهم الخمسة لا تساوى غير ثلاثة جنيهات . وبها كنت سعيدا بين الطلبة المحظوظين فى الوقت الذى كان الطالب العراقى الممنوح من الحكومة يتقاضى أربعين جنيها. ولكن الموظف المصرى الصغير لم يكن يتقاضى اكثر من ثلاثة جنيهات . بالمبلغ العادى البسيط. وكنت اعرف كيف اتعامل معه ، كنت أودى حظي فى السكنى والمعيشة المشتركة وأساعد بعض أصدقائى وأجدد ملابسى وأشترى الكتب والأدوات الدراسية ، وأزور السينما.. وغالبا مع صحبة صديق وعلى نفقتى - مرة أو اثنين فى الاسبوع واتنقل ويبقى الخير ..

لم تكن هناك غوايات تهتز معها الميزانية حتى الدخائن لم أكن فى البداية من حلفائها ولا المقاهي و «علب الليل» كنت من روادها ..

كنت سعيدا مع نفسي ، ولو أني كنت موضع انتقاد من بعض زملائي ..

المعيشة بسيطة ميسورة زهيدة التكاليف في مصر، وإذا كان بضعة آلاف يعيشون حياة البذخ والنعمة ، فإن أغلبية كانوا يعيشون حياة الكفاف والعفاف والغنى عن المغامرة . مايدرى احد كيف كان الموظف العادى يعيش مع عائلته بثلاثة جنيهات او تقل قليلا ، ولكن الفقر لم يكن الظاهرة الواضحة فى القاهرة او الاسكندرية او أية مدينة متوسطة فى مصر بل إنك حين ترد السينما أو دار الأوبرا أو أى ملهى ليلى تكاد تجزم بأن مصر لا تقل غنى عن كثير من دول اوروبا .

كانت القاهرة تتمرد على فقرها بتنظيم النوادى الاجتماعية والرياضية والثقافية نشترى الكتاب بالقروش القليلة التى لا تزيد على خمسة، ونشهد معظم الروايات الموضوعة والمترجمة فى دار الأوبرا بخمسة قروش (نصف السعر خاص بالطلبة) وفى المسرح حيث شاهدنا أعظم كوميديات نجيب الريحانى وأعظم تراجيديات يوسف وهبى. ونتردد على دور المحاضرات وبعضها باشتراك سنوى أو برسم دخول (قرشان فقط) حيث يحاضر طه حسين أو أحمد أمين فى الادب او

قسطنطين زوريق أو وزير سابق للاشغال عن مشروع سد اسوان او وزير سابق فى الزراعة عن ازمة القطن المصرى ..

وجاء ت الحرب فبدأت الحياة تتغير من حيث يشعر الشعب المصرى أو لا يشعر ، ومن حيث شعرنا بوطأتها بعد فترة الجمود التى شهدتها فى شتاء ٣٩ - ٤٠ لم يكد ينتعش نشاطها مع الربيع حتى انقطعت الطرق، واختفى البريد ولم يكن جويا فى الغالب - لم يربطنا بالمغرب اتصال جوى أ برقى أو هاتفى عزلتنا الحرب عن الوطن وعن الأهل ، وبدأنا نفكر فى المصير الذى لم يكن فى رؤيتنا المبسطة محزنا، لم يكن فى الإمكان - ولم يحاول أحد منا - التفكير فى عمل نستعيض بدخله عما كان يصلنا من أبائنا - فالمصريون غيرنا كثير لايجدون، ولم يكن فى الإمكان العودة الى الوطن فالبحر الابيض تخترقه غواصات مدمرة تخشى معها أية باخرة غير عسكرية ان تمخر عبابه - خليها على الله.. أوع تشغل بالك .. وتفكر فى اللى جرى لك ..

يبدو أنها فلسفة فرعونية والفرعونية تطبع حتى غير أبناء الفراعنة أصبحنا اتكاليين . وكانت الاقدار تتصرف بغير علمنا احيانا لم نجع إلا لماما ولو افتقرنا . لم يطردنا صاحب الملك من الشقة التى كنا نسكنها ، يتحلى بالصبر القليل انتظارا لفرج الله أو نهاية الحرب كثير من المصريين كانوا يعيشونها اسبوعا بأسبوع ، كلهم أمل فى انها ستنتهى فى الاسبوع القادم فالإنجليز عند بعضهم لن يصبروا اكثر مما صبروا والألمان عند بعضهم لن يغامروا أكثر مما غامروا ..

عرفت الجوع حقا فكنت ابيت على الطوى احيانا وفي ليلة من الليالى ألح علىّ الجوع ولم يحل الماء محل الغذاء . افقت من نومى وفكرت وقدرت وسعيت الى المطبخ ابحث عن بقية خبز فلم أجد ، وفتحت علبة السكر فوجدت فيها ما يملأ معلقة صغيرة جمعتها من غبار ماعلق بأطرافها . كان بلسما لجائع لي له أمل فى شبع . خرجت مرة من المنزل وفى جيبى «نصف قرش» فكرت فى رغيف او نصف رغيف. ولكن رغيف ذلك الزمان لا يلوكه فم بغير مايسوغه من إدام او ملح او خيار . وجدت حلوانى يونانى قريبا منى واليونانيون كانوا يبيعون أردأ المأكولات بأبخس الاسعار . كان سعر الحلوى من حلوى اليونانى نصف قرش فرحت بها فقد تكون غدائى وتغنى عن عشائى . ومنحنى «الحلوى» على طبق اتناولها بشوكة حاولت أن أغرس الشوكة فى الحلوى فكانت من القسوة والجفاف بحيث طارت من الطبق ووقعت على الارض فى مكان قذر من دكان الحلوانى اليونانى.. تركت الطبق والشوكة والحلوى وخرجت من دكان الحلوانى ومعى الجوع ...

لم أعش ظروفا فى حياتى أقسى من تلك الظروف.. لم أدرك أن الظروف النفسية ترتبط بالظروف المادية وبالأمن النفسى والهدوء فى المشاعر . كنا لا تفكر كثيرا، ولا نتحدث طويلا عن طرق للخروج من الأزمة ، ولكن كلا منا كان يعيش أزمته ، ربما فى غرفته ، وفى محيطه

النفسى الخاص . لم ترتبك حياتنا فقد كنا نختلف الى الكلية ، ونراجع دروسنا ، ونقوم بواجباتنا المدرسية، ومع ذلك كنت أشعر بهوس ينتابنى وأنا أقطع شوارع القاهرة، ارتياد الشوارع دون هدف كان مما يشغل الفكر، السير على شاطىء النيل وبصحبتك القمر أو بنات نعش كان مما يغنى عن عشاء فاخر ، ولكنى كنت افكر اكثر مما أطيق لا افكر فى الجوع او الفقر والعوز والمستقبل المظلم خليها على الله.. لا أفكر فى الوطن الذى يزداد بعدا كلما اشتد أوار الحرب. ولكنى كنت اتصور والدى وهو ينطلق من منعطف زقاق .. او يواجهنى فى عتمة شارع (الاضواء كادت تختفى من الشوارع وما بقى منها صبغ بالازرق خوفا من الطائرات المغيرة) اكاد اخاطبه أقبل يده ألمس وجهه.. أعود إلى نفسى ، وكأننى ارتكبت جريرة جنونية ، مرة واجهنى وجه علال الفاسى (كان منفيا فى الجابون) في وجه شاب اقتربت منه. كدت أخاطبه.. استيقظت مع الحقيقة .. وتعاظمت مأساتى .

أعظم أب وأوفى صديق

انقطعت الرسائل عنا ولكن بعضا منها كانت تفلت من الرقابة هنا وهناك وتقطع البحر الابيض لا أدرى كيف دون أن تغتالها غواصة او تغرق بها سفينة ، وكان الأخ عبد المجيد قد أعتاد ان يفتح الرسائل التى ترد علىّ من العائلة دون ان يجد في ذلك غضاضة قبل أن تصل الى يدى .. لم أنجح فى إقناعه بأن الرسائل الخاصة لا يفتحها إلا صاحبها

ولكنه كان يتمرد على التقاليد لأنه يعرف ان تصرفه لن يصل بى حد الغضب .

عدت من الكلية متأخرا قليلا فى صباح من أصباح اواخر ابريل سنة ١٩٤٠، كانت الوجوه ، وجوه الاصدقاء .. وكنا نحو ستة من الطلبة نسكن شقة واحدة . مقطبة عابسة يعلوها كدرة ليس مما تركته الحرب في وجوهنا جميعا ، ومع ذلك كانوا يتحدثون اليّ بلين الكلام وطيبه، التوتر الذى احدثته الحرب فى نفوسنا جميعا افقد حديثنا نكهة المجاملة ولين القول. وجلسنا على مائدة الغداء فكان بعضهم يؤثرنى بقطعة من خبز او حظ من خضر حمدت فى سرى لهم جميعا هذا السلوك الذى افتقدت بعضه ولكنى كنت من السذاجة بحيث لم أتساءل او أسأل .. لم ولم نكد ننتهى . وقد ظلوا مجتمعين حولى حتى ناولنى الأخ عبد المجيد الرسالة التي فتحها وقرأها قبلى . لم أعجب هذه المرة لفتحها فقد ألفت .. ولكنى ابتسمت ابتسامة استبشار . فهذه رسالة تصل من العائلة بعد طول غياب ، سرعان ما غابت الابتسامة عن وجهى . فالخط ليس الخط الجميل الذى ألفته فى الرسائل التى تصلنى والرسالة ليست أنيقة كما عهدت. لم يكن يكاتبنى غير والدى وهذه رسالة غيره . بدأت بالمواساة وانتهت بالخبر الحزين ..

– توفى رحمه الله : بعد مرض لم يمهله طويلا وهو عنك راض ..

انفجرت ألما لا بكاء لم يكن الهوس الذى ظل يراودنى منذ بدأ الوطن يبتعد بسبب الحرب يرقى الى درجة التصور ان افقد أعز حبيب وأكرم

أب وأوفى إنسـان . لم يكن فى سن يؤهله للمـوت ٤٩ سنة وترشـحنى لليتـم لم أشـعـر أنه يودعنى الوداع الأخيـر. وهـو يشـر الىّ أن «أكتب» بأصبعى - أو أحـاكى الكتـابة : إن الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد ..

عشت معه سنوات معدودات صديقان وأنا أغادر عالم الطفولة الى عالم الفتوة كان أوفى صديق لا تفارق الابتسامة شفتيه . حتى إذا عبس قرأت السـمـاحـة فى وجـهه ، حـتى إذا غضب تمثلت الحلم فى كلمـاته ، حتى إذا ابتـأس عـجت روحـه بالفـرحـة ، حـتى إذا تألم غـاضت الشكوى من منطقـه يسير الهونى فى حيـاته وهو يخـوض مـعركة الحـيـاة تقسو الحياة احـيانا، ولكنى لم اسمع قط أنه غيـر راض يظلم نفسـه حـتى لا يشـعـر بأنـه يظلم الآخـرين حـقـه - وهـو يتـاجـر عند الآخـرين، وليس للآخرين حق عليـه، لم اسمعـه قط يرفع صوته على أحد ولا رأيت أحدا يرفع صـوته امـامـه ، ظفر باحـترام الذين عرفوه او سـمـعـوا عنه ، ومـهنة (التجارة) يفقد فيها الكثيرون اول مايفقدون الاحترام . كان يربى ابناءه واصـدقـاءه وعـمـلاءه بالمثـال . يرغمـهم على احـتذائـه دون كلمـة يوحى لهم بالمستقيم من العمل والخير من القول والمترفع من السلوك، دون ان يتخذ سبيله الى ذلك لغة الوعظ ولا الأمـر أو الجـدل العقيم ، يؤمن بالحـرية لنفسه وللآخرين ، ولكنه يستشير ، وقلما ينصب نفسه كمشير إلا إشـارة

صادقة إذا ما رأى أنه يفيد . يحاول أن يستعيد ديونه على التجار الآخرين حتى إذا استعصى عليهم الأمر تركهم الى ميسرة . كانوا يسترضونه بأبسط كلمة فيرضى وهو يبتسم ولعل ابتسامتهم الرضية كانت تفتح امامهم طريق الوفاء. ما رأيته حزينا قط إلا يوم مات والده. كان رغم كبر سن الوالد يعتصر الدمع ولا يشهق ببكاء.. ظل سنوات وهو يمسك بيدى صباح كل جمعة وكل عيد لنقرأ آيات من القرآن على قبره . رعانى فى المدرسة ، وكانت اجمل رعاية هى أن يقدم لى كتابا او محفظة كتب.. وشى بى إليه مرة : أنى اخترت فى امتحان امام بعض العلماء كلمات من مقامة للزمخشرى تنعى على علماء السوء تحريفهم للشريعة فلامنى بأدب كان أعلى من أدبى أمام الأستاذ وكان درسا لا أنساه.. حين ودعنى وأنا فى طريقى الى مصر قدم لى مجموعة قصاصات بالكلمات المستعملة كثيرا فى الحياة مكتوبة بالفرنسية وترجمتها العربية..

– قد تساعدك فى التفاهم حيث لا تجد من يفهم عنك او تفهم عنه .

أناقته فى اخلاقه وسلوكه انطبعت على حياته العملية وكان تاجرا منظما يسجل بخطه الجميل – باللغتين – كل محاسباته التجارية ولذلك لم يدخل فى مشاكل قط مع عملائه وأبنائه . ولم تكن له مشاكل مع البنوك ، ولا مع الشركات التى يستورد منها فرنسية وسويسرية – لم

يكن يغامر ، لذلك لم يصبح غنيا من بين اغنياء فاس الذين كانوا فى مثل سنه واستغنوا فى سنوات معدودات . لم يكن له أصدقاء كثر ، ولكن أحبابه أكثر من أصدقائه . لم يكن اجتماعيا بقدر ما كان صاحب عمل وبيت ولذلك لم يكن يسهر فيما يسهر فيه الكثيرون من سمر ولعب ورق..

حينما ودعنى فى محطة القطار نفحنى بمصاريف السفر ، وبما يكفينى للعيش شهرين او ثلاثة :

- لا تقلق فسيصلك شهريا عن طريق البنك ما يكفيك ...

كنت متاكدا من أنه يقطع من مصاريف ما يمدنى به، ولم يكن قادرا على ذلك ، ولكنه كان وفيا فلم اشعر بالحاجة قبل أن يبلغنى النبأ الفاجع ..

لم يكن تاجرا مغلقا فى التجارة والربح والمال. كان يفكر اجتماعيا وسياسيا على قدر ما يسمح التفكير السياسى لرجل متواضع التعليم .. لا يتخلى عن قراءة الصحف العربية التى تفد الى المغرب من تونس وقليلا منها يفد من مصر ويعنى بالأخبار ، والمذاعة من المغرب وفرنسا بعد أن عرف المذياع طريقه الى المغرب فى أواسط الثلاثينات يذهب بنظره بعيدا ويتساءل لم قتل الكتانى؟ لم يكن يجد الجواب - فيما أعلم - إلا عند الذين يأتمنهم ويأتمنونه. الحياة لغز ومجموعة اسرار ولا أحد

يتحدث بالذى فيه يفكر إلا كان متابعا وجد ضالته فى العمل الاجتماعى والتعليمى فقد اشرف ، وثلة من اصدقائه ، على إنشاء «مدرسة سيدى بناني» فى حى الديوان «مدرسة قرأنية » كما وصفت المدارس الحرة التى أنشئت بعدها فى فاس، وكانت أول المدارس ، بعد الناصرية ، التى اقفلتها الإدارة ونفت مديرها المجاهد الفقيه محمد غازى من فاس، تخلى جميع الأصدقاء عن المدرسة، واستمر يرعاها حتى آخر رمق .

كثيرون – غيرى – مدينون لهذه المدرسة التى تخرج فيها أجيال ، واصل كثير منهم دراستهم فى القرويين أو التعليم العام واندمج كثير منهم فى الحياة مزودين بما تعلموا من مبادىء التعليم العربى الاسلامى..

كان أحد الذين يرعون الجمعية الخيرية. عبئها ثقيل فى مجتمع لا ترعى فيه الدولة الشرائح الاجتماعية المحرومة والأطفال الضائعين . وكان عضوا نشيطا فى المجلس البلدى ، والمجلس البلدى فى فاس هو الوحيد المنتخب فى المغرب آنذاك على نحو ما كان الانتخاب على عهد الحماية. ولكنه كان يلعب دورا أساسيا فى الدفاع عن المدينة وسكانها وكل السكان الفاعلين من التجار الصغار والصناع حتى إذا فرضت الضرائب جزافا . كان المجلس البلدى ينصب نفسه للدفاع عن هؤلاء وأولئك . وكان الحاج أحمد غلاب وهذا اسم الوالد الذي فقدته – ينصب نفسه كل سنة ليتجول مع المندوب بالادارة الفرنسية فى دائرته

الانتخابية ويدافع عن مصلحة التجار الحرفيين واتفق أن كان المندوب في الفترة التي وعيتها الاستاذ جاك بيرك .. الذي سيصبح من كبار المستشرقين الفرنسيين وقد تعرف على الوالد عن قرب.. واحتفظ في ذاكرته بصورة واضحة عن أخلاق الرجل ودفاعه عن مواطنيه . وقد وصفه في إحدى كتاباته الأخيرة عن المغرب قائلا : ذلك الأمير الذي لن أنساه وجدد هذا الوصف في مقدمته للترجمه الفرنسية من روايتي «دفنا الماضي» ، أذكر أن وجهه كان يشرق بالبشرى وهو يتابع احداث الظهير البربري، والإضرابات التي صاحبتها ، كان مبتهجا ، لا حزينا ، والمدينة تعج بأخبار الاعتقالات . وكان من المعتقلين احد أصدقائه من كبار التجار «وجيه من وجهاء المدينة الحاج محمد الحلو. أدرك أن الحركة مست الإستعمار في الصميم فامتدت يده الى أحد وجهاء المدينة وما كانت لتفعل لو لم تفقد صوابها .

كان يعبر لي عن تضامنه الكامل مع الحركة الوطنية ضد السياسة الاستعمارية وهو يأخذ بيدي الى القرويين لقراءة اللطيف (الصبغة الاحتجاجية ضد الاستعمار) ويوصيني ألا أتخلف يوما رغم ما كان في ذلك من مغامرة ..

سلسلة من الدروس حفظتها الذاكرة من سلوكه وتربيته لي ومعالجته.. للمراحل الصعبة من حياة الأطفال والفتيان تنتهي جميعها بالموقف الحاسم : الموت.

أي أب هذا الذي فقدته ...

كيف مات ؟

يبدو السؤال دائما عبثيا . فالذين يموتون لايختارون كيف . ولعلهم يفاجأون كما يفاجأ الأحياء . ما أظن الكثيرين توقعوا الموت إلا الذين وصلت بهم الحياة إلى أرذل العمر.

كان الجواب عن السؤال فى رسالة أخرى وصلت نصف المأساة : أصيب بصفراء الكبد - وهو المرض الذى مات به والده بعد عمر مديد - تقاعد عن مزاولة نشاطه بضعة أيام زاره فى آخرها أحد الأحباء أو الأصدقاء . لا أدرى، فوصف له دواء لم يمهله بعد استعماله ساعة أو بعض ساعة عانى فيها ألما مدمرا . وكانت النهاية .

بداية المتاعب الذاتية

كانت النهاية البداية لمتاعبى ، وقد شعرت بالاحباط ، بأنى أصبحت أعزل . بالمسئولية إزاء الوالدة والأخوة وكانوا جميعا يصغروننى إلا أختا فارقت الحياة بعده بسنة :

- لم تجد صبرا حتى لحقت به .. قالت أمى.

ذكرت ... وقررت:

- يجب أن أعود.

دهش أصدقائى . كنت فى منتصف الرحلة الدراسية . والعودة ستسلك بى طريقا غير الطريق الذى اخترته .

- ليكن . لست بعد اليوم فى حاجة إلى شهادة جامعية . وما كنت

في حاجة إليها، لأنى أعرف أنها غير ذات جدوى فى المغرب ، كشهادة علم ، وإن كان جدواها بالنسبة لى كبيرة . لن أكون أنانيا ، عماد العائلة انهار لم تغب عن وعيى المتاعب التى ستتعرض لها أمى وإخوتى.

– أى طريق ستصل بك إلى المغرب ، والحرب لاتزداد إلا ضراوة ؟

سؤال لم يكن معجزا . تركت الكلية والاستعداد للامتحان ، وقد كنا فى آخر السنة المدرسية ، وتطوفت أبحث عن وكالات الأسفار ، ولم تعد فى القاهرة وكالات للأسفار ، فلا أحد يسافر ، حتى أهديت إلى أن باخرة فرنسية ماتزال فى الشرق ، لا أدرى أى شرق كان . و«قد» تعود إلى أحد الموانىء الفرنسية تحمل الفرنسيين الذين انقطعت بهم السبل إلى بلادهم ، و«قد» تمر فى طريقها بأحد الموانىء المصرية ، و«قد» يكون لى فيها مكان إذا سمحت السلطات التى تتحكم فيها بأن يركبها أحد من «التبعية» الفرنسية . شغلت بالانتظار والتوقع ، أرابط على باب الوكالة السفرية التى وعدتنى بالبحث عن مكان لى فى الباخرة إذا توقفت فى بور سعيد، حتى كان الفرج فى يوم ما من أيام إشراقة الأمل:

– ستصل الباخرة ... سنخبرك بيوم وصولها .. لانعرف متى ...؟ ولكنها ستصل ... ستتوقف يوما أو يومين . سيكون لك مكان فيها .. أبشر . آخر الأخبار تؤكد أنها فى الطريق .. اسرع . ستكون فى ميناء بور سعيد بعد يومين .. إذا .. إذا لم يعقها عائق فى البحر الأحمر.

أسرعت إلى بور سعيد . ومعى ثلاثة من أصدقائى أبوا إلا أن يودعونى على الباخرة . انتظرنا يومين فى المدينة التى بدأت تعرف نشاطا عسكريا أجنبيا «انجليزيا» نتردد كل ساعتين أو ثلاث على الميناء، ولم تصل .

بدأ اليأس يتملكنى . فقدت الكثير من هدوء أعصابى وسلامة ملكاتى . لم أعد أفكر إلا فى المغرب.

– ولكن الباخرة سترسو فى فرنسا . هل ستجد باخرة تحملك إلى المغرب فى ظروف الحرب هذه؟

يلقون السؤال وألقيه على نفسى . وأجيب بالبديهة:

– خليها على الله ، المرحلة الصعبة هى الطريق إلى فرنسا.

وصلت العروس أخيرا . باخرة قديمة ربما كانت فى يوم باخرة نقل بضائع أو جنود . ولكنها تستطيع أن تمخر عباب البحر دون أن تخشى الغرق.

– لتذهب إلى الباخرة إذن.

أخذت حقيبتى وتركت الفندق ، ومعى أصدقائى ، إلى الميناء . الباخرة متوقفة ولا حركة حولها ونسأل :

– أين سلم الباخرة فأنا من ركابها .

– لا أحد يركب الآن . سنخبرك بالهاتف فى الفندق بيوم وساعة الرحيل.

– هى إذن أيام ؟

– أو ساعات ...

الانتظار . لاشىء يزعج الأعصاب التالفة كما يزعجها الانتظار ولو على أمل، كنت أتردد على الميناء دون أن أنتظر مكالمة هاتفية من إدارة الباخرة . فإننى لأخشى أن ترحل دون أن تفكر فى راكب من ركابها .

– لا . ليس بعد ...

وأخيرا أنعمت إدارة الباخرة بالخبر السار :

– ستغادر الباخرة ليلا . وعلى ركابها أن يلتحقوا قبل السادسة مساء .

طرت فرحا كانت بور سعيد بالنسبة لى سجنا لم أعد أطيقه . ضقت ذرعا بها بمقاهيها ، بشارعها ، بمبانيها وسكانها . حتى عمى محمد بائع السندويتش الذى يفد على باب المقهى كل مساء يجر عربته الزجاجية بما تحمل من شطائر الخبز وما يحشوها به من جبن وقديد، آن لى أن أتخلص من المدينة التى تودعنى بحنان كما استقبلتنى بود . لعلها تسرق من القاهرة بعض حبى وتعلقى . غادرت القاهرة مكرها .. سأغادر بور سعيد سعيدا ، كما لو كنت أغادر سجنا.

لم يكن أصدقائى أقل فرحا منى . الانتظار كان فترة قلق لم يسعدوا فيها بمزيد صحبتي، بمقدار ما شعروا بتوتر شديد.

أعددت حقيبتى . كانت لعلها حقيبة فقيرة . ومع كل رحيل حقيبة ، ولو كانت فارغة إلا من بعض ما يجعلها رفيقة سفر . قبل الوقت المحدد كنا على رصيف الميناء ننتظر الإذن لسلم الباخرة أن ينزل ليستقبلها ركابها . كانوا كثيرين. لعلهم جميعهم ينتهزون آخر فرصة للرحيل إلى بلاد الحرب ، ولم يكونوا، أغلبهم يعرفون عن الحرب إلا ما تقدمه الأخبار . ودعت أصدقائى أملا أن تكون لنا لقيا .

– فى المغرب ..

– أو تعود مرة أخرى إلى مصر لتنهى دراستك...

قال صديق مجاملا .

كان الألم يعصر قلبى وأنا أتلقى مجاملته فى حسرة . أعود إلى المغرب . أصبح ذلك كل أملى . أبقى فى مصر . كان ذلك كل أملى . بين أملين أحلاهما مر . وما أعتقد أن الصديق كان مجاملا كان ذلك أمله أيضا ، الأمل الذى يعرف – بحسرة – أنه لن يتحقق.

– مع السلامة . اكتب لنا.

قالوها جميعا وهم يعرفون أن الصلة ، حتى صلة الرسائل انقطعت بين مصر والمغرب .

لعلى كنت آخر من غادر الرصيف . وارتفع سلم الباخرة، وكل الأصدقاء والأحباب ، وربما الآباء والأمهات يودعون . ترتفع المناديل والأيدى ، تغرورق العيون بالدموع . يعود المودعون وفى قلب كل منهم غصة . الحرب ، البحر ، الغواصات ، والمغامرة الفريدة ... كل الراكبين، كل المودعين يغمر الخوف نفوسهم . الحرب لاتستأذن الطائرة تقبل المدينة فيتهاوى بناءان ويموت أحياء تحت الأنقاض إلا الذين نجوا بفرارهم . البحر والسماء والباخرة تبحث عن طريقها فى الظلام وبين الأمواج ، تقصفها طائرة من سماء ، أو غواصة من ماء ... لاسبيل إلى الهرب إلا إلى قعر البحر .

على هذا النحو كان كل الركاب يفكرون ، كان كل المودعين . بصدق لم أفكر هكذا ولا أصدقائى ، لعل الحرب أزاحت عن نفوسنا كثيرا من المخاوف . تخاف من موج البحر وأنت على الشاطىء . لا تفكر فى الموج وأنت تواجهه . الحرب حررت قلوبنا من الخوف . لم أكن أشك فى أن الباخرة ستصل إلى مرسيليا سالمة . ما أظن أحدا من الراكبين كان يشك . ويبقى الرعب من البحر والحرب والغواصات فى ركن مظلم من نفوسنا.

كل الراكبين – فيما خيل إلىّ كانت فرصتهم الأخيرة ليلتحقوا ببلادهم، ولو فى لحظات حرب . عاشوا فى بلاد الشرق أو فى مصر متاجرين أو سائحين أو مثاقفين . مصير مصر لم يعد مشرقا والحرب

تزحف على أوروبا وقد تزحف عليها . العودة إلى الوطن ، ولو فى زمن حرب ، قد يكون أرحم من حياة الهجرة دون أفق مفتوح. كل المسافرين – فيما خيل إلىّ – كانوا مثلى يبحثون عن مركب تصل الشرق بالشمال وكانت الباخرة التى ركبتها فرصتهم الأخيرة.

بدأ الظلام يخيم على الرصيف . أصبح الماء يفصل بين عالمين ، بين مدينتين: إحداهما ستتحرك غربا وشمالا . ثانيتهما ثابتة صامدة صمود الحياة تسخر من الذين يودعون والذين يستقبلون . أطفال لم يعرفوا حقيقة الحياة ، تسير بهم في بطء إلى حيث لا استقبال ولا وداع.

بحثت في الظلام الذى خيم عن أصدقائى . كنت أبحث – عبثا – بين الأشباح التى يخلفها النور تركة للظلام . غادروا . فهم أيضا بحثوا فى ظل رؤية مضببة ، فلم يعد يبدو لهم غير جسم الباخرة الضخم ، وقد آن لها أن تتحرك . ولم تتحرك.

كل الركاب – وأنا منهم – كانوا فى شوق لرؤية المدينة وهى تبتعد عنهم، أو هم يبتعدون عن المدينة . كانت ستبتعد بأضوائها الباهتة، بالحزن الذى أصبح يخيم عليها، رغم اسمها المقترن بالسعادة. المقبلون يبتهجون لفرحة اللقاء والمدينة تقترب منهم، تقدم نفسها، وقد أرسلت الطيور تنقل لركاب الباخرة سعادتها بلقياهم، المودعون يبتهجون والمدينة ترفع ألويتها، مبانيها، أضواءها تحية سلام وود . والباخرة ترسل صيحات نفيرها .

- وداعا . إلي اللقاء.

ولم تتحرك سفينتنا . تحركت الألسنة تلغط بالفرنسية والانجليزية واليونانية والايطالية ، بلغات أخرى، لم يصدق حدسى ، وأنا أحاول أن أتعرف عليها . أبحث عن الوجوه الغريبة، من سأتخذ منه صديقا أو مخاطبا أثناء الرحلة . كل منهم كان يتحدث لصديق أو زميل أو زوجة أو زوج . وأنا وجدت نفسي وحدى . انفصلت عن الدنيا التى أعرف ، عن الأصدقاء الذين عاشرتهم طويل أمد خرجت من سجن إلى سجن ، هل سيفرض علىّ الصمت إلى أن التقى بالبر. الباخرة عالم آخر تخلق حياة جديدة . كثير من مشاهير العشاق كانوا على موعد مع البحر . كثير من الأزواج كان البحر خاطب أحدهما للأخرى، كثير من كبار رجال الأعمال عرف العمل طريقه إليهم فوق ثلج البحر ، للبحر لغة لا يعرفها البر . عالم صغير واسع الأفق . سجن يحيط به البحر من أركانه، ولا حدود لآفاق الحرية فيه. يقترب فيه المتعايشون ، وهم يرعون ليغتنموا كل لحظة من لحظاته . يقبلون على الحياة فيه ، وكأن الأيام القليلة، التى يقضونها بين أحضانه هى كل حياتهم يركبونه خائفين، وتمخر الباخرة بهم عبابه سعداء مبتهجين . عالم صغير صغير ، كبير كبير . جزيرة قد تجمع كل أجناس الانسان لامجال فيه بينهم للبغضاء والشحناء

والعنف والغدر والحقد ، تسامح البحر - رغم غضبه أحيانا - يزرع فى النفوس التسامح والحب والود والقرب . يحمى سكانه من مباذلهم فلا يبدو فيهم غير الوجه الرضى والفم المبتسم والكلمة الطيبة والسلوك المستقيم.

- مع من هؤلاء سأربط صلاتى ، صداقتى ، حبى لبضعة أيام...؟

وعاد اللغط بلغات الدنيا يرتفع . لم أحاول أن أسترق السمع ، أو أسأل أحدا. ما أزال مأخوذا بالوحدة التى فرضت على منذ كلمات الوداع للأصدقاء . شعرت بأنى أخشى الناس . طبع تمكن منى منذ مرحلة التكوين : آلف وأولف . ولكنى غير سباق إلى تحية الصباح . بدأت أذرع ظهر السفينة فى انتظار أن يتكرم موظفوها بأن يدلونى على غرفتى أو الغرفة التى تؤوينى مع غيرى أتوقف قليلا عند جماعة يعلو لغطهم، ثم أواصل السير ، ويبقى فى نفسى شىء من طريقة حديثهم المتوترة. الوحدة قد تفرض علىّ لبضعة أيام . لم أقابل أحدا يتحدث العربية . والذين يتحدثون الفرنسية فى شغل بأنفسهم. كل منهم يحاور أو يجادل أو يهمس للآخر أو للأخرى بما لايحسن أن أكون شريكا فيه.

لم ترسل الباخرة بعد نفير وداع.

ولكن مكبرا للصوت ارتفع يطلب الانتباه .

توقف الرائحون والغادون . وعم السفينة صمت القبور . بدت على وجوه الركاب جميعهم سمات الترقب والتوقع . اختفت الابتسامات .

جلل الوجوه مظهر الصداقة والخوف والغضب والألم كل وجه يرشح ما يعتمل فى نفس صاحبه . سيدة تمسك - متشبثة - بذراع رفيقها . عيون زائغة كأنها تتحسس لتسمع ...

وهتف الصوت من وراء المكبر يعلن :

- أيها السيدات والسادة . أعلن موسولينى الحرب على فرنسا .

توقف الصوت قليلا لعله يترك فرصة لزفرات الألم أن تتصاعد ، للخبر أن يبتلع كل ذرات الأمل . للحزن أن ينفذ إلى أعماق النفوس الجريحة من حرب لم تعد بعد كونية : ظلت الوجوه المتحجرة فى صمت تتطلع إلى المزيد . ماذا كانت تتوقع ؟ ما المزيد بعد إعلان ايطاليا الحرب على فرنسا؟ الفرنسيون وحدهم - ربما - كان الخبر صاعقة فى نفوسهم . الايطاليون - ربما شعروا بالاعتزاز . كان موسولينى يعدهم بالامبراطورية الرومانية الكبرى هاهو ذا يبتدىء الخطوة الأولى ليرث امبراطورية فرنسا . ربما كان منهم الخائفون والمتوقعون والعقلاء الذين يعرفون أن إعلان الحرب ليس يعنى الانتصار .

- أيتها السيدات . أيها السادة . نظراً لهذا الخبر المفاجىء والحزين تلقت إدارة الباخرة تعليمات بالغاء الرحلة . البحر الأبيض لم يعد آمنا، حرصا على حياتكم لن نغامر بكم فى رحلة غير آمنة .

تسربت كلمات الأمن .. غير آمنة .. المغامرة .. حرصا على حياتكم... إلى نفوس الركاب . بدأوا يتحركون وقد زاغت عيونهم،

اضطربت حركاتهم، عانقت النساء الرجال باكيات . دبت حركة غير عادية بين موظفى السفينة وخدامها واستمر الصوت يهتف :

- نرجوكم - آسفين - مغادرة السفينة بهدوء ، يمكن استرداد ما دفعتموه من وكالة السفر .

انقطع الصوت وبدأ الرحيل . هذه المرة إلى البر .

لم أعد أفكر فى الذين - عشرات أو هم مئات - كانوا يتتبعون الخبر بنفوس قلقة وآمال جريحة . عدت إلى نفسى . كانت آخر رحلة فى البحر الأبيض وألغيت . البحر يقفل فى وجهى بعد أن أقفل البر . ماذا فعلت للسيد موسولينى حتى يعلن الحرب فى هذه اللحظة بالذات ، اللحظة التى تفصل بين عالمين : ودعت أحدهما لأستقبل الآخر ، فلا أنا بالذى ودعت ، واختفى الذى استقبل . لم لم يؤخر قراره بضعة أيام يتيح فيها لهؤلاء الذين ركبوا الباخرة أن يصلوا حياتهم بالشاطىء الآخر ؟ لو أخر قراره لما غير من الحياة ، حياة الحرب ، شيئا . كنا سنصل إلى الشاطىء الآخر لنستقبل الحرب لاستقبلناها فى هذا الشاطئ إنها الحرب لا يحيلها الأخير إلى سلام . لن يغير من ضراوتها والدماء والآلام والدموع التى تفجرها.

- كان حكيما.

- من؟

- هذا الموسولينى الذى أعلن الحرب، والسفينة لم ترفع بعد

مرساتها ولا نشرت شراعها لو أعلنها والسفينة وسط أمواجه أين كانت سترسى؟ أكان سيقدر لها ، بكل شعبها، أن ترسى فى أعماق البحر ؟ الحرب لا تملك الاختيارلاتفرق بين سفينة تحمل عسكراً أو عتادا وأخرى تحمل مدنيين سالمين السفينة فرنسية الانتماء تقصد أحد موانىء فرنسا ، والحرب التى أعلنها موسولينى ستعم البر والبحر والجو . لو أقلعت ، وانغمرت وسط البحر ، إذا لم ترس فى أعماقه ، أى ميناء سيستقبلها ؟ أية دولة تقبل ضيافة «أرض» فى حرب مع المانيا وايطاليا، أية جزيرة ستفتح ذراعها لسكان السفينة. ماذا سيكون مصيرهم وايطاليا تسيطر على المضيق بين صقلية وليبيا ، وقد تحتل تونس كأولى خطوات الحرب فيضيق المضيق، ولامفر آنذاك من أعماق البحر .

– كان لطيفا ...

– من ؟

– هذا الموسولينى الذى اختار الساعة الفاصلة بين شاطىء أمن – إلى حين – وبحر ملغوم مؤهل ليكون جحيما أو طريقا للجحيم .

– المستقبل الذى خططت له ؟

– تضاءل أمام مستقبل الانسانية الذى خطط له رجلان ، ثانيهما موسولينى

حملت حقيبتى مع الذين حملوا حقائبهم . أخذنا طريقنا نحو السلم نازلين ولم تمض على صعودنا ساعة أو بعض ساعة.

– إلى أين ؟

نحو المدينة التى أحببتها وضقت ذرعا بها . إلى المقهى التى عرفت قلقى وتوتر أعصابى ، إلى عمى محمد الذى أعد لى فطائر الجبن و«السجق» - وقد كرهت أكله من أول مرة - وكان ذلك كل عشائي فى الليالى التى صاحبت فيها بورسعيد . غادرت الميناء وكأن الرحلة البحرية الطويلة اختصرت فى ساعة أو بعض ساعة ، فى طريقى إلى نفس الفندق الذى سعدنا بصحبته أياما وليالى الانتظار القلق . إلى نفس الغرفة التى أوتنا جميعنا، ولعل أصدقائى يقضون الليلة بها قبل الرحيل فى صباح اليوم التالى إلى القاهرة.

لم يعترض طريقى صاحب الفندق ، المتواضع ، ولا سألنى : لم العودة ، زبون رحل ، أو عاد ... كل حياته يستقبل زبونا ويودع آخر :

- مع السلامة .. الحمد لله على السلامة .

يتوارى الذى غادر فتنساه الذاكرة ، ويحل الذى أقبل فلا يرسم فى الذاكرة غير إنسان اسمه فى السجل .. ولد فى الفندق يوم .. رحل يوم .. وتنتهى كل علاقة مع الإنسان كما تنتهى مع الحياة . الحياة نفسها فندق يستقبل بترحاب مصطنع -ربما - ويودع بحزن مصطنع ربما .. وتسير الحياة .

أقبلت على باب نفس الغرفة أنقرها فى هدوء . ساد صمت بين الثلاثة الذين خلفتهم قبل حين:

- من ؟!

ولم أجب فقد سررت بأن أفاجئهم . وجحظت العيون فى ابتسامة لم تترك المفاجأة لها الفرصة لتفصح عن مفهومها.

– ماذا حدث ...؟

– اختصرت الإجابة فقد كان بلسانى عى عن الشرح :

– موسولينى أعلن الحرب على فرنسا ...

لم يسمعوا بالخبر – وهم في البر – وقد أتتهم من البحر الاخبار ، كانت الصحف تقدم حصاد أخبارها في كل صباح . المفاجأة أعجزتهم عن إدراك الصلة بين موسولينى والباخرة التى تركوها وهى تستعد للاقلاع .

وبدأ الحديث عن حرب تقفل البحر الأبيض كما أقفلت بحر المانش والحدود بين منطقة شاسعة من أوروبا تشمل ما بين بولونيا والجزر البريطانية .

ميلاد جديد عرفته فى حياتى . صلتى بمصر تجددت ثمان سنوات ونصف سنة أخرى صرفتها من شبابي فى مصر . السفينة التى لم تبحر غيرت مجرى حياتى . بدأت فيها بالتعرف على الحرب التى دقت باب الاسكندرية والسلم الذى عرفته مصر مع العالم . وبين الحرب والسلم تغير مجري حياتى . ذرة فى الكون الذي تغير . تغيرت حياة مصر نفسها . تغيرت حياة المغرب نفسه . ارتبطت حياتى بمصر التى

تغيرت كل هذه الفترة فكانت كما هى . ولو لم يعلن موسولينى الحرب تلك الساعة من ذلك اليوم . وإذا لم تعرف الباخرة بشعبها أعماق البحر، وإذا لم ترم بنا فى متاهات جزيرة أو أرض من قارة أوروبا أو اسيا ، وإذا كنت قد اجتزت البحر الملغوم إلى فرنسا أو إلى المغرب لارتبطت حياتى بحرب أخرى بسلام آخر، بممارسات حياتية أخرى، ولكانت حياتى التى عشتها حتى الآن غير ما كانت ..

كيف ؟

لا أحد يستطيع أن يتنبأ بالذى سيكون فى عالم غمرته الحرب ببؤسها وأمراضها وجوعها واضطراب الحياة فيها . عالم الغيب كان . عالم الغيب بقى في إدراكى.

ألغى هذا العام من حياتى بقرار من موسولينى بقرار من الباخرة أن تلغي رحلتها.

المغرب فى مصر

بقـدر مـا كنا منعـزلين عن الوطـن لم نكن مـنعـزلين عن قـضـاياه – المواجـهة الكارثة التي حدثت سنة ١٩٣٧ لم تعرف طريقـها إلى نسـيان الذاكـرة. أحـسـسـنا بأن الوطـن أصـبح مـعـزولا بعـد أن حـاول الجنرال نوجيس أن يصفى الحركة الوطنية . والذين سجنهم من قادتنا أو نفاهـم إلى الجـابون «عـلال الفـاسـي» أدركـتـهم الحـرب وهـم فى المنفـى . وبذلك كرست الحرب مشروع نوجيس . كانوا «يهددون الأمن العام» فى زمن السلم ، فمـا بالـهم فى زمن الحـرب. وفـرنسـا بعـد الهـزيمة لم تكن أقل ضراوة منها وهى تشعر بعظمتـها تنهار تحت زحف الجيش الألمانى ، ونوجيس الذى منحتـه حكومـة السلم سلطات مطلقة كمقيم عام يرأس الإدارة ، ويمثل سلطات الدولة المسـتـعـمـرة فى تنفـيـذ مـخطط الحـمـاية ويحـمى سـيـادتهـا ويدافـع عن مـصـالح المسـتـوطنين ومـزايـاهم الادارية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وسلطات عسكرية مطلقة لقيادة قوات الاحـتلال . والحرب منحت فرنسا سلطة أخرى هى الدفاع عما سلم من الامـبـراطورية ، والمحـافظة على الولاء لحكومـة المرشال بيتـان التى وقعت اتفاقية الاستسـلام مع هتلر ، ولجأت – بعد احـتلال باريس دون مقاومة – إلى مدينة فيش الهادئة . والسياسـة النوجيـسية سلكت بالمغرب سبيل الابتعاد عن كل تفكير سياسى أو اجتماعي أو وطنى.

تحالفت الحرب وسياسة القمع والعدوان على تكريس «هدوء» كان يبدو قاتلا . والبعد عن العمل السياسى - فى انتظار نتائج الحرب - كان يعم كل الشعوب المستعمرة . ولم يكن المغرب بدعا فيها.

كنا نحن الفتية المغررين الذين أبعدتهم مصر عن متناول الجنرال نوجيس وسياسة الصمت الذى فرضه على شعب المغرب، نفكر بعقلية أخرى . انهزام فرنسا منذ بداية الحرب بعث فينا الأمل بأننا - رغم ضعف حيلتنا وانقطاعنا عن الوطن - نستطيع أن نقدم لبلادنا بعض دينها علينا ولو من بعيد . عملنا كطلبة فى الجامعة، لم يكن يستبد بتفكيرنا فى قضايا الوطن . كان مما يرعبنا أن ينجح الجنرال فى تصفية الحركة الوطنية الفتية . لم نكن نؤمن بأنه يستطيع ذلك، ولكن يد القمع الباطشة كادت تفعل فيما تصورنا مما كان يقدمه الواقع ، واقع الصمت الذى عززته الحرب بما فرضت من قوانين استثنائية .

كانت قلوبنا تتقد نارا . ولانستطيع أن نعبر إلا بمقالة يكتبها أحدنا أو خبر نسربه لصحيفة ما . لم يكن ذلك مما يؤثر على الوضعية فى المغرب . ولكن كان يؤثر على انتعاش بذرة الأمل فى نفوسنا . الأمل لم يمت رغم كل ظروف الإحباط.

لم يكن المغرب معروفا فى الأوساط السياسية المقفلة - فأحرى الشعبية - فى مصر . «مراكش» - وهو الاسم الذى كان يطلق على

المغرب – بلاد تقع فى إفريقيا . ربما كان بعضهم يتصورها فى أقصى الجنوب أو فى وسط القارة و«المغربى» يوحى بصورة غير كريمة فى بعض الأوساط الشعبية فهو «كذاب يفتح الكتاب» ولعل الكثيرين من الذين يكذبون ويفتحون الكتاب ساحرين أو مستغلين غفلة الغافلين كانوا يزعمون أنهم جاء وا من المغرب . يرطنون بكلمات غير مفهومة . يؤكدون «العلم» بالمستقبل المغيب، وحل الرموز وعقد الحياة الزوجية منها والغرامية والمالية.

صورة كهذه عن المغرب والمغربى دفعتنا إلى أن نجارى «الخطأ المشهور» فنتشبث بكلمة مراكش والمراكشى . كانت الكلمة قريبة إلى التواصل بعيدة عن التهمة.

ولكن المغرب في مفهوم أغلبية المثقفين هو بلاد المجد الاسلامى الذى نقل الاسلام والعروبة إلى الأندلس . وهو البلاد التى حمت الإسلام أثناء الحروب الصليبية فى الغرب الاسلامى فصدت الغزو العربى من الشرق الاسلامي ، وهو البلاد الذى تكونت فيه دول الادريسيين والفاطميين والمرابطين والموحدين والحفصيين وبنى حماد والمرينيين ، وكلها دول كرست العلم والثقافة والحضارة والاسلام ، وكلها دول أثبتت وجود الدولة الاسلامية فى الوقت الذى توزعت المشرق دول تنشأ وتسقط فى جو من اضطراب الحكم وتوزع السلطة منذ بدأت الدولة العباسية تنهار فى مائتها الثانية .

المغرب لم يكن مجهولا فى مصر عند المتنورين من المثقفين ورجال الفكر .

ونتحدث إلى بعض هؤلاء عن مراكش وعن الاستعمار الفرنسى فيقابل حديثنا باهتمام الذى لا اهتمام له . إصرارنا كان أقوى من ظروف الهزيمة . ساعدنا على ذلك أن فرنسا ، التى تحتل بلادنا ، انهزمت من أول زحف بدأنا نوظف فكرة النقمة من الاستعمار الفرنسى لصالحنا .

مهدت بعض الطريق حركة قام بها جيل من الطلاب سبقونا بسنوات تقترب من عقد . عرفوا «بمراكش» فى بعض الأوساط الاسلامية والدولية، عرفت مراكش بأنها البلاد التى حاول فيها الاستعمار أن يفرض عليها المسيحية والفرنسية عن طريق ما كانوا ينطقون به ولايدركون كنهه : «الظهير البربرى» ظلت هذه الأوساط - ممثلة فى بعض الجمعيات الاسلامية «الشبان المسلمون» «الهداية الاسلامية» تعرف بالقليل عن مراكش ، و تتحدث بخير عن مواجهة الاستعمار الفرنسى حفاظا على الدين وتمسكا بالاسلام . كان الاتصال بهذه الأوساط سبيلنا إلى استئناف العمل قبل أن يصبح العمل من أجل مصر ومن أجل البلاد العربية الأخرى محرما بمقتضى قوانين الحرب.

وكانت بعض الأوساط العربية ، التى اتخذت من مصر ملجأ للعمل من أجل القضايا العربية، سبيلا آخر لنرفع الصوت الأبح عن «قضية

مراكش » ، كانت النخبة التي سبقتنا تعتمد على صحيفة الفتح لمحب الدين - وهو مناضل سوري تمصر - كان يفتح صحيفته لكل ما يكتبه المغاربة عن بلادهم ، فكانت لسان الحركة الوطنية المغربية فى مصر كما كانت النخبة تعتمد على ما يكتبه الشيخ رشيد رضا - التلميذ البارز للشيخ محمد عبده فى مجلة المنار - عن المغرب وما ينشره توفيق دياب رئيس تحرير الجهاد . وفى جيلنا كان فى المقدمة مناضل فلسطينى قطن مصر وأنشأ صحيفة تناضل من أجل قضية فلسطين - ولم تكن قد أصبحت قضية معقدة خطيرة بعد - هو الأستاذ محمد على الطاهر . كان يعرف الكثير عن المغرب وعن بقية البلاد العربية والاسلامية ، ويناضل مع المناضلين في كل ميدان ضد الاستعمار الانجليزى والفرنسى ، ويفتح صدر صحيفته لكل ما يكتبه عن هذه البلاد ، ويتصل ، بالمراسلة مع مناضلين في جميع أنحاء العالم العربى والاسلامى ، ويزور مكتبه كل المناضلين الذى يفدون على مصر . كان نموذج المناضل المؤمن مع كل قضايا التحرر ، رغم أن نتائج نضاله محدودة . صحيفة تصل إلى كثير من المناضلين فى كثير من أقطار إسلامية وعربية، ولكن لا وجود لها بين يدى القراء العاديين فى مصر . كانت متنفسنا نتحدث فيها عن المغرب كلما استطعنا أن نحصل على خبر أو نبتكر تعليقا ، قبل أن ترمى به وبصحيفته قوانين الحرب إلى معتقل «هاكستيب».

مركز فرنسا في مصر

وضعية المغرب لم تكن مما لايقبل الانفجار . انهزمت فرنسا . وبدأت السفارة الفرنسية فى مصر تفقد مصداقيتها وأصدقاءها ، وقد كان لها وجود ثقافي وسياسى فى مصر . ماتزال بعثة نابليون العلمية تنفث ضياءها ، وماتزال فرنسا تعتبر مصر إحدى عتبات ثقافتها وتفتخر بإسهامها فى بعث آثارها . بل إن المهندس الفرنسى الكبير دى ليسيبس هو الذى صنع المعجزة يوم أشرف على حفر قناة السويس ، وقدم للعالم انتاجا ضخما وهو يصل المحيط الهندى بالأطلسى عن طريق البحر الأبيض وبقناة حفرها العمال المصريون بعبقرية فرنسية ومغامرة تقنية للهندسة الفرنسية، وقدمتها فرنسا للدول التى تملك السيادة عليها سياسيا واقتصاديا وعسكريا قبل أن يؤممها عبد الناصر.

وكانت لفرنسا مكانة ثقافية فى مصر عن طريق بعض المثقفين الذين درسوا فى باريس حتى إن بعضهم بكى الحضارة العالمية يوم سقوط باريس فى يد الاحتلال الألمانى . ثم كانت لها مكانة شبه شعبية لأنها المنافس الأول للاستعمار الانجليزى . ورغم ما فعلته فرنسا نابليون من قمع وعدوان صاحب غزو نابليون القصير الأمد ، فإن الذاكرة المصرية نسيت الكثير من المعارك المدمرة ضد المصريين فى إمبابة وبولاق والأزهر لتبقى لفرنسا مكانتها كدولة متحضرة عالمة.

فرنسا بعملها هذا كسبت مركزا ثقافيا عوضت به المركز الذى سلبته انجلترا من نابليون . مصر نسيت نابليون الذى قدم مستعمرا ، وظلت ذاكرتها مع نابليون الذى صحب معه مجموعة من العلماء والباحثين عن الآثار ومكتشفى اللغة المصرية القديمة ظلت ذاكرتها مع نابليون الذى حاول أن يصادق علماء الأزهر ويصل عن طريقهم إلى قلوب المصريين، وزعم أنه أسلم أو اقترب من الإسلام وظلت ذاكرتها مع فرنسا التى ساعدت اسماعيل أن يقترب من أوروبا ويربط صلة مصر الثقافية بها عن طريق فرنسا وينشىء دار الأوبرا بمساعدة فرنسا وظلت ذاكرتها مع فرنسا التى تجدها فى صفها كلما قسا عليها الاستعمار الانجليزى . يبلور هذه الذاكرة المثقفون الذين فتحت فرنسا صدرها لهم فتعلموا ، فى معاهدها ، وهى التى أنشأت مجموعة معاهد «مدرسة الحقوق قبل كلية الحقوق فى جامعة القاهرة مثلا».

ذاكرة المثقفين وأنصاف المثقفين لم تنس فرنسا هذه ، ولها صلة قربى باكبر صحيفة فى مصر «الأهرام» . وحينما تنهزم فرنسا من أول طلقة فى الحرب تجد كثيرا من الكتاب يكتبون مراثين منزعجين ، ومنهم الباكون المعولون.

لم نكن نضيق بشىء قدر ضيقنا بهذا المنطق . لم نكن نجد ما يبرره وحاولنا أن يكون لنا صوت بين الأصوات المتعارضة فى موضوع الهزيمة للاستعمار ، ومع ذلك لم نكن نشمت بفرنسا لصالح الاحتلال

الالمانى. وإذا نشرت الصحف المجهولة ما كتبنا فإن الصوت المدوى كان لصالح فرنسا . أليست إحدى دول الحلفاء الذين أعلنوا الحرب على الطغيان الألمانى؟ أليست الهزيمة إحدى طرفى المعادلة فى حرب لن يكون فيها منتصران ، إذا جاز أن يكون فيها منهزمان؟ .

فى دار السفارة الفرنسية

شعرت السفارة الفرنسية باهتزاز مصداقيتها وزاد ذلك حدة أنها كانت ماتزال تمثل الحكومة المنهزمة . ومصر لم تقطع بعد علاقاتها مع حكومة فيشى ، فهى الحكومة الشرعية لفرنسا رغم الهزيمة والرحيل عن باريس «العاصمة» المحتلة. حاول السفير أن يفك العزلة عن سفارته ويربط صلات مودة . ولعله فكر فى الجالية المغربية كجهة من الجهات التى يربط معها الصلة . فانتهز فرصة العيد واستدعانا نحن الطلبة - خمسة أو ستة لم أعد أذكر - واستدعى طالبا جزائريا كان الوحيد من الجزائر فى مصر على مأدبة شاى فى صباح العيد . فكرنا طويلا :

- هل نجيب الدعوة ، وليست لنا صلة بالسفارة حتى «جواز السفر» لم نلجأ إليها لتجديده . كرم المصريين لم يلجئنا فى يوم ما إلى تجديد الأوراق أو التأشيرة أو إذن الإقامة.

وتغلب رأى الاستجابة للدعوة فلعل الفكرة صدرت عن شعور نبيل .

وكان مع كأس الشاى خطاب قصير من السيد السفير لم يزد على

التهنئة الكريمة بالعيد . ولم نقرر من قبل أن يجيب أحدنا على كلمة السفير بكلمة شكر . ولكن الأخ عبدالكريم بن ثابت وقف دون استئذان . وقد فاجأنا وقوفه . خشينا أن يتجاوز الشكر العادى إلى ما يشعر السفير بأنه قام بعمل عظيم وبدأ يتحدث بالعربية . ومع السفير مساعد جزائرى ترجم لنا كلمته، وتوقف عن الترجمة الفورية لكلمة ابن ثابت . فقد بدأها دون مقدمة ولا كلمة شكر هكذا :

– يا سيدى السفير . نحن لسنا في عيد . وليس لنا عيد يمكن أن تقدم لنا التهنئة به . يوم عيدنا هو اليوم الذى تستقل فيه بلادنا وتترك فرنسا لنا حريتنا..

فاجأنا قبل أن يفاجىء السفير . ولكنه عبر عن أعماق مشاعرنا . ولعل كل منا تمنى أن لو كان هو قائلها .

وترجم المساعد الجزائرى الكلمة إلى السفير .. اربد وجهه وغاضت الابتسامة التى استقبلنا بها والتى صاحبته وهو يلقى كلمة التهنئة . شعر – دون شك – بجرح عميق ربما كانت صفعة مؤلمة على خد لم يعد فى إمكانه أن يتلقى الصفعات وقف من معقده . أعطانا ظهره واختفى .. وبقينا ضيوفا فى غياب المضيف.

لم يسع المساعد المترجم إلا أن ينقل لنا هذا الألم بكلمات مؤدبة وعتاب يسير . ولكنا جميعا كنا متحمسين لرأى لم يستطع المساعد المترجم أن يفهمه.

فى مكتب فرنسا الحرة

وكان على مصر ، وقد أصبحت سياستها الخارجية كسياستها الداخلية، أن توظف سلوكها السياسى مع الحلفاء بتعليمات من قصر الدوبارة . وانجلترا يومئذ تجمع «الحلفاء» حولها حتى تتحدث باسم المجتمع الدولى وهى تحارب ألمانيا ، ثم تتحدث باسمهم فى مؤتمر الصلح - بعد النصر - كما تخطط لذلك. لم تعترف انجلترا بحكومة المرشال بيتان بعد الاستسلام . قطعت علاقاتها معها لتتعامل مع المناضلين الفرنسيين الذين أعلنوا المقاومة الفرنسية. كان منهم دوكول وجيرو. وكان عليها أن تختار بين أكثر الرجلين ليونة وانقياداً.

وكان عليها أيضا أن تبحث عن أيهما أكثر أتباعا فى أرجاء الإمبراطورية بالذات. «الحلفاء» فى حاجة إلى موطىء قدم تتنفس فيه قواتهم خارج الجزر البريطانية التى أصبحت مهددة بعد أن انهارت أوروبا الغربية جميعها تحت جحافل الجيش الألمانى المنتصر. ألمانيا تطوق انجلترا من البحر والجو.. وليس لها من ملجأ بعيد المنال إلا أمريكا والإمبراطورية المترامية الأبعاد، ومنها مصر والهند، وعلى البلدين معا، وهما عمدتها فى النصر أن يكونا من التابعين . الهند كان يحكمها حاكم إنجليزى، فهى مستعمرة تطيع ولا تعترض رغم المقاومة

الباسلة التى كان يشنها غاندى للاستعمار، لا للمحاربين فى سبيل الديمقراطية ، مصر يحكمها ملكها ـ الذى لم يكن يحظى بالتقدير ولا بالاطمئنان من انجلترا ـ وحكومتها التى كان عليها أن تحكم مصر بتعليمات سياسة الحرب التى تصدر من أحد القصرين ـ ولذلك قطعت مصر علاقاتها الدبلوماسية ـ بتعليمات من لندن ـ بفرنسا التى تحكمها «حكومة فيشى» تحت الاحتلال الألمانى، واعترفت واقعيا بالمقاومين الفرنسيين قبل أن يؤسس دوكول الحكومة المؤقتة فى المنفى.

أقفلت أبواب السفارة ـ وكانت البناية من أجمل السفارات الأجنبية فى القاهرة فى حى الجيزة وقريبا من شاطىء النيل – وفتح دوكول مكتبا لرعاية مصالح فرنسا والفرنسيين فى مصر . وكان المغاربة والجزائريون يعتبرون تابعين لفرنسا ـ ولم يكن هناك تونسيون ـ من الطلبة بخاصة ـ اتصل بنا المكتب لتصحيح أوراقنا (جواز السفر) الذى لم تعد الحكومة المؤقتة تعترف به . وبالتالى فنحن فى مصر بدون ورقة تعريف رسمية.. وكان على المكتب أن يتصل بالسلطات الفرنسية المختصة ، سلطات دوكول التائهة فى المستعمرات الأفريقية ، ولم يكن ذلك ميسراً.. وظللنا نتردد لنستعيد أوراقنا عدة شهور حتى إذا عادت، جاءت معها فكرة، «مساعدة» الطلبة بمنحة مما تسمح به ميزانية الحرب ، ومن ميزانية المغرب إذا سمحت بذلك الإقامة العامة ـ لم تكن المنحة لإنقاذنا من الجوع بقدر ما كانت لربط صلة «المكتب» بهؤلاء

الطلبة حتى لا يقفوا يوما ما فى وجه سلطة المقاومة الفرنسية . وكانت المنحة من التفاهة بحيث يمكن الاستغناء عنها لو كان وضعنا يسمح بذلك . وكانت تتطلب منا قليلا من «قلة النفس» لم تبلغ حد فقدان الكرامة.. شاب لبنانى كاتب فى المكتب.. يتوسط بيننا وبين القائم بالأعمال، ضعيف الشخصية قليل الحيلة يقف عند التعليمات دون أن يحاول الفهم..

ولا تأتى «المنحة» إلا بعد تردد طويل، تكون قد استهلكت فى ديون البقال وبائع الخبز وبائع الصحف، وأخيرا كتبنا له رسالة بفرنسية كان يتقن حدة لغتها ، يستمدها من الظروف التى عاشها - الجزائرى الوحيد بيننا الصديق سعدى ، كانت الرسالة إعلان ثورة على مكتب فرنسا الحرة، وتذكيراً للفرنسى الذى يمثل نزعة الحرية فى بلاده المحتلة أننا نحن الطلبة نسعى إلى حقنا المغتصب، لا إلى صدقة تتصدق بها فرنسا.

أغضبته الرسالة كما أغضبت سلفه خطبة الأخ ابن ثابت، ولكنهما علمتانا أن نقف فى وجه الموظفين السامين الفرنسيين وقفة من لا يخشى غضبهم ولا نقمتهم .أشعرتانا بأن الأيام التى حكمت على المغرب بأن يركع، حكمت مرة أخرى على فرنسا بأن تركع ... شعور بدائى، ولكنه يرضى النفس الجريحة التى بدأت تتحرك ـ فى ظلمة الحرب وغمرة الهزيمة ـ أن تواجه الحماية من القاهرة كما تواجهها الحركة الوطنية من المغرب.

من رابطة الدفاع إلى المطالبة باستقلال المغرب.

لم نكن فى حاجة إلى الحرب وإلى الهزيمة لنتسلح بسلاح العمل من أجل المغرب . هجرتنا إلى مصر كانت في سنة ١٩٣٧، وهى السنة الفاصلة فى حياة الحركة الوطنية قبل سنة ١٩٤٤.. شعرت الحكومة الفرنسية بهذا الإنذار يوم عينت نوكيس على رأس الإقامة الفرنسية ، وشعرت الإدارة الفرنسية بالمغرب بنفس الإنذار يوم اندفع نوجيس ـ بخبرة المحارب ضد المقاومة المغربية في الجبال وبخبرة التلميذ الذكى المجد فى مدرسة المرشال ليوطى ـ لمحاولة القضاء على الحركة الوطنية قبل أن يشتد عودها، وقد بدأ . وواجهته الحركة بأحداث ١٩٣٦ وبإلحاحها على تحقيق الحريات العامة، وفى مقدمتها حرية الصحافة وحرية تكوين الأحزاب والجمعيات ، وتوظيف هذه الحرية للانقضاض على صرح الحماية من الباب الضيق. رحلنا إلى مصر ونحن ننتظر العاصفة التى هزت الحركة الوطنية بنفى زعيمها إلى الكابون إلى أن تنساه ذاكرة المغاربة، وتشريد بقية الزعماء فى الصحارى الموحشة.. كنا منذ البداية على استعداد لمواصلة النضال في مصر، ونحن نعتبرها نافذة الحرية للبلاد العربية ، وإذا كانت الدراسة قد شغلتنا ، ثم نذر الحرب ومتاعبها، فإن تفكيرنا فى النضال لم يكن عودة الروح

بمقدار ما كان انبعاثا للفكر النضالى من تحت أنقاض مفاجأة الحرب.

من هذا المنطلق بدأنا نفكر فى عمل جماعى. كان إحياء الذكريات الوطنية ، بشكل أو بآخر ، بداية مشجعة وجدنا من سبقنا يقوم بها: محمد العلمى، المهدى بنونة، عبدالقادر الرباحى ، ولكنا كنا نطمح إلى عمل أكثر تنظيما واستمرارية ، هكذا اجتمعنا نحن الطلبة، لنؤسس جماعة تهتم بالدفاع عن القضية الوطنية، واهتدينا إلى «رابطة الدفاع عن مراكش» كان بعضنا قد تخرج فى الكلية، وبعضنا أشرف على ذلك. ففى الوقت متسع للعمل، ولكن دون وسائل . ثم إن ظروف العمل لا تساعد على ذلك.. مصر نفسها فى حاجة إلى «رابطة للدفاع» عن حقوقها بعد أن تنمر الاستعمار الانجليزى الجريح ضد كل عمل تحررى من شأنه أن «يؤثر» على المجهود الحربى، ونحن مجموعة طلبة لا أحد يأبه بما يمكن أن نقوم به.. ثم نحن نقف فى وجه الاستعمار الفرنسى - وفرنسا - بيتان خصم للانجليز، ولذلك فلا يهمهم فى شىء أن تقوم حركة للدفاع عن مصالح وحقوق إحدى مستعمراتها، وحكومة مصر مشغولة بمشاكلها، وكل حركة وليدة بسيطة لن تثير انتباه وزارة الداخلية وإدارة الأمن العام فى شىء.

بدأنا نعمل بوسائلنا : الاتصال بالهيئات الإسلامية، والجمعيات العروبية ، إحداها كان يشرف عليها أحد وزراء مصر السابقين

المرموقين، محمد على علوبة باشا، بالصحافة ، بعض الصحف كالبلاغ تفسح صدرها لبعض الأخبار البسيطة التى لا تثير قلقا ولا تدعو إلى احتجاج . كنا ننحت فى الصخر، نفكر فى آفاق واسعة ونعمل بوسائل منعدمة، ثم لا صلة لنا بالوطن، مصدر العمل والحركة والخبر.. نطلق العنان للخيال والتوقع والعودة إلى الماضى لنخترع خبراً، إذا لم يكن صادقا كحدث ، فقد لا يكذبه الواقع المتوقع.

شهور من العمل.. شهور من التطورات المثيرة للحرب ، وتقاوم لندن ببسالة نادرة عاصفة الطيران الألمانى المدمرة، وتنهمك ألمانيا فى محاولة إخضاع موسكو، فيصمد الاتحاد السوفييتى فى لينيركراد ليحطم قوة النسر الألمانى . وأخيرا ينزل الحلفاء (الجيوش الأمريكية بخاصة) على شواطىء المغرب انطلاقا من الدار البيضاء يوم ٨ نوفمبر ١٩٤٢ ويبدو فى الأفق بصيص أمل..

ـ هل هو أمل لنا نحن فى المغرب؟

كل ظروف الحرب تؤكد أنه أمل لفرنسا فى أن تحرر نفسها وتستعيد إمبراطوريتها.

ـ ونحن؟

تساءلنا فى غمرة الخوف والأمل والتوقع، وقد تأكدنا أن نتائج الحرب لن تكون لصالحنا رغم ما نقرأ من حين لآخر من أن فرنسا تجند مواطنينا للدفاع عنها، وقد انتهت حملة التجنيد الأولى بالهزيمة. والحلفاء سيسيرون فى الطريق نفسه ، فالجندى المغربى والجزائرى لا

غنى عنهما في أية حرب مدمرة للدفاع عن فرنسا، درس تعلموه من الحرب الأولى.. ولم لا يفعلون ، والحركة التي تناضل للحفاظ على حقوق المغرب ومصالحه «دمرها» جنرال فرنسا..

فكرنا طويلا في مستقبل المغرب، ونحن نتوقع أن يجلس الحلفاء على مائدة الصلح ، وستكون فرنسا الحرة من بينهم . وسيكون المغرب غائبا رغم مساهمة أبنائه في تحقيق النصر، وستكون كلمة فرنسا ـ حرة أو غير حرة.. مسموعة لأن الخلفاء لن ينتصروا على ألمانيا وإيطاليا لأنهما عدوان فحسب.. ولكن أيضا لأنهما تتطلعان إلى حظهما من غنيمة الاستعمار . الانتصار إذن سيكون انتصارا للاستعمار ، لا للحرية كما تتحدث لغة الدعاية الحربية التي شنتها أجهزة الحرب الفكرية والكلامية ضد النازية والفاشية.

أخذنا نتطلع إلى بعيد.. وكان علينا أن نفكر في المستقبل.. لم نره في المطالبة بإصلاحات ديمقراطية أو الإفراج عن الحريات ، وإنما فكرنا في الاستقلال ، فهو الطريق لكل حرية وديمقراطية وتنمية. وهو الذي يحرر السيادة المغربية التي يمكنها أن تتحكم في المستقبل.

وكتبنا مذكرة باسم «رابطة الدفاع عن مراكش» نطالب فيها باستقلال المغرب قدمناها لسفارات انجلترا وأمريكا والاتحاد السوفييتي ومكتب فرنسا ، والحكومة المصرية .

كان ذلك في بداية يناير ١٩٤٤ ونشر خبر هذه المذكرة في بعض الصحف المصرية يوم ١٣ يناير.

تجاوب بين مطلب حزب الاستقلال ومطلب الرابطة.

في التاريخ نفسه كان حزب الاستقلال يحضر سريا وثيقة المطالبة بالاستقلال وقدمها يوم ١١ يناير ٤٤.

لا أحتاج إلى أن أقول إن أية صلة لم تكن لنا بحزب الاستقلال.. ولكني في حاجة إلى القول بأن التفكير الذي كان يقودنا إلى تلمس الطريق لإنقاذ المغرب هو نفس التفكير الذي كان يقود حزب الاستقلال. نحن في غير حاجة إلى أن نستمد الرأي من الحزب، ونحن في غير حاجة إلى أن نتفق على موعد..كل الظروف التي كنا نعيشها في مصر تملي علينا التوقيت نفسه الذي على الحزب الوطني، وهو يعيش مثلها ويفكر في الشيء نفسه الذي كنا نفكر فيه وبالمنطق نفسه الذي انتهى إليه تحليلنا في المغرب وفي مصر.

لم يكن الصدى الذي تركته مذكرتنا في الدوائر التي قدمناها إليها يماثل الصدى الذي تركته في الدوائر الفرنسية بالأخص، و «الحزب الوطني» الذي أعلن نفسه من جديد بعد التحريم باسم «حزب الاستقلال» يتلقى الصدمة التي كانت تتفق مع الصدمة التي تلقتها حكومة دوكول الحرة، وهو يطالب بالاستقلال.

الاستقلال يعني تجريد فرنسا، التي تناضل لتحرير نفسها، من مستعمراتها ، وفي نظر فرنسا الحرة، وفي رأي إدارة الحرب

الأمريكية والانجليزية ، التى كانت تتحكم فى المجهود الحربى بالمغرب، أن المطالبة بالاستقلال تنال من المجهود الحربى.. وقد يكون لهذا الطلب، فى وقت يستعد فيه الحلفاء إلى القفز من المغرب الى جنوب أوربا، مساس بالمجهود العسكرى، وقد يكون منطلقا من اتصال سرى بالعدو: الألمان والإيطاليين. ولذلك قامت إدارة الحماية بالمغرب بحملة عسكرية للقضاء على حزب الاستقلال قيادته ومناضليه لإقرار «التهدئة» فى المغرب.. بدعوى أن لقيادة الحزب صلة بألمانيا.

ووصل الخبر إلى مصر عن طريق وكالات الأنباء الأجنبية ، نشرته فى أواخر يناير إحدى الصحف «المقطم» فى بضعة أسطر يفيد: أن مدرسا فى مدرسة ابتدائية أثار الشغب بين بعض الجائعين فى المغرب فهبوا إلى الشوارع يطالبون بالكسكس.

كنت أول من قرأ الخبر فى الصحيفة المسائية، فعدت مسرعا الى المنزل لأخبر الإخوة الزملاء بالخبر المثير، الذ ى لا أظن أنه أثار أحدا من محررى الصحيفة وقرائها، وكان يمكن للمحرر أن يرمى به فى سلة المهملات لو وجد بين يديه خبرا آخر عن غارة جوية أو ارتطام باخرة بلغم . أثارنا الخبر وسرنا فى الوقت نفسه ، فلا تزال فى الوطن شعلة تتقد لتحدث «الشغب» ولو من أجل لقمة كسكس..؟

لم نكن من الغفلة بحيث يخفى علينا ما وراء الخبر. كان تفسيرنا واضحا.. فالمعلم فى الخبر يشير إلى الأستاذ أحمد بلافريج، وقد كان

يدير مدرسة حرة إلى جانب عمله السياسي، وهو الوحيد بين قادة الحركة الرئيسيين الذى ظل خارج المعتقل لأنه كان فى أحداث ١٩٣٧ فى باريس يرفع صوت الحزب الوطنى فى الدوائر السياسية والصحفية . وفسرنا «الكسكس» الذى يطالب به الجائعون بالاستقلال.

انقطعت الأخبار وليس فى جعبتنا منها غير «الشغب» و«المدرس» و«الكسكس» ألفاظ ثلاثة نسجنا حولها قصة المطالبة بالاستقلال وحملة الإدارة الفرنسية على المطالبين بالاستقلال ، واعتقال القيادة الاستقلالية التى تلتف حول «المعلم» . نشرت بعض الصحف الأخبار التى تبنتها رابطة الدفاع عن مراكش ، فقد بدأنا نكسب الثقة عند بعض الوطنيين فى هذه الصحيفة أو تلك . كان ما تنشره قليلا قد لا يتعدى بضعة أسطر، ولكنا كنا نبتهج لذلك، فنحن نشق طريقنا فى ميدان صعب، وضد فرنسا التى فقدت المصداقية والمتهمة عند بعض المناضلين والصحفيين بأنها دولة استعمارية.

لم يكن التجاوب بين المذكرة التى قدمتها رابطة الدفاع والعمل الذى قام به حزب الاستقلال مما لا يلفت نظر الإدارة الفرنسية. ربطت الإدارة بين العمل فى المغرب والعمل فى مصر. و«اهتدت» إلى أن صلة سرية تقوم بين القيادة الاستقلالية فى المغرب وممثليها فى مصر.. وقد تكون هذه الصلة بواسطة الاستخبارات المعادية.. ذلك مما يؤكد لهم أن حركة المطالبة بالاستقلال موحى بها من العدو عن طريق

عملائه في مصر، هذا «سر» يجب أن يكشفوا عنه . وطريق اكتشافه هو التعذيب إلى أن يعترف الذين يملكون الأسرار. التعذيب كان من نصيب قادة الحركة في فاس : عبدالعزيز بن إدريس والهاشمي الفيلالي وأحمد مكوار.. نالهم العذاب على يد البوليس العسكري ينتزع منهم الاعتراف بطرق الاتصال السرى بين الحركة في المغرب وممثليها في مصر.

كان الثلاثة لا يعلمون شيئا عما حدث في مصر، وكان مما لم يقبله التحقيق العسكري أن يجهل القادة الثلاثة السر فيما حدث من اتفاق في التوقيت والفكرة والأسلوب و الجهة التي وجهت إليها المذكرتان للمطالبة بالاستقلال في المغرب ومصر.. ولم يسفر العذاب عن نتيجة . ويبقى «السر» غامضا ـ ربما ـ فالفكر الاستعماري لا يمكن أن يتخطى عتبة الفهم البسيط للأحداث .. لا يمكن أن يرقى إلى أن المغاربة الاستقلاليين يمكن أن يفكروا ويعملوا في الاتجاه نفسه ولو كان بينهم ما بين المغرب ومصر في وقت حرب لا يطير فيه طائر بين مكانين دون أن يخشى على حياته.

المثل من مصر وسوريا ولبنان:

المطالبة بالاستقلال محطة وظفناها لنضال واضح المعالم. كانت فى وقت بدأ التفكير ينفتح على آفاق جديدة.. مصر كانت فى مقدمة البلاد العربية التى هبت عليها رياح الحرية والتفكير فى المستقبل . ومصر التى أذعنت أثناء الحرب العالمية الأولى هى التى ثارت قرب نهاية الحرب، فطالبت بالاستقلال وثارت من أجله . وهى نفسها التى تعيش التجربة الثانية بعد حرب عالمية مماثلة تنتصر فيها انجلترا التى كتمت أنفاس المصريين أثناء الحرب.. وأفق نهاية الحرب يفسح المجال أمام التفكير فى تغيير الأوضاع ، إن لم يكن بثورة تماثل ثورة ١٩، فقد تكون حركة لتعديل معاهدة «الشرف والكرامة» التى أصبحت «معاهدة العار والإهانة»..

والبلاد العربية الأخرى فى المشرق تحركت هى الأخرى لتحقق استقلالها.. العراق يتحرك.. سوريا ولبنان تتحركان للمطالبة بالاستقلال ، بعد أن أكد الحلفاء وجودهم فيهما ليقطعا الطريق على قوات المحور حتى لا تقفز نحو الشرق، منطقة البترول، عصب الحرب الرئيسية . وتؤكد الحكومتان فى سوريا ولبنان تضامنهما مع الشعب والبرلمان فتنقض قوات «فرنسا الحرة» على الحكومتين لتعتقل رئيس

الجمهورية ورئيس الحكومة ويهتز البرلمان السورى الذى كان فى اجتماع للمصادقة على قرار الاستقلال تحت وابل من القنابل الفرنسية . يثور الشعبان وتتضامن معهما مصر. وتهتز القاهرة بمظاهرات صاخبة ـ كنت في مقدمة المتظاهرين - والحكومة المصرية لا تستطيع ، ولا تريد ، أن تقف فى وجه تيار لا يتقصدها ولا يتقصد الانجليز.

والسلطات المدنية والعسكرية الانجليزية فى القاهرة تخشى أن تمتد حركة الاحتجاج لتشملها بعد فرنسا، تخشى من الاضطرابات فى المشرق أن تصيب «المجهود الحربى» برشاش التمرد.. ومن المؤكد أنها لم تعارض مظاهرات الطلاب والشباب ضد صنيع فرنسا فى سوريا ولبنان ولذلك لم تقمع الحكومة المظاهرة.

نحن فى وسط المظاهرة الحاشدة فى ميدان محمد على (الأوبرا) احتجاجا على القوات الفرنسية، الخطباء يخطبون والجماهير (معظمهم طلبة) يهتفون بسقوط فرنسا ودوكول.. وأحد المتظاهرين يتردد على غرفة التليكس فى فندق (كونتينانتال) ربما ليتعرف على صدى المظاهرة فى الأخبار الدولية ويخرج وفى يده ورقة بثها التليكس لحينها: أمر عسكرى من تشرشل إلى القوات الفرنسية فى سوريا ولبنان أن تعود إلى ثكناتها قبل السادسة مساء، وإلا فتعيدها القوات الانجليزية بالقوة.. وستتحمل حكومة فرنسا الحرة تبعات ذلك.

وهتفت الجماهير التى استمعت باهتمام إلى الخبر.

- يحيا تشرشل.. تشيرشل زعيم الحرية.

لو سألت أحد هؤلاء الهاتفين قبل دقائق عن تشيرشل لأجابك بأنه شيطان القرن العشرين.

وأفرج عن القادة و السوريين و اللبانيين وانتصر البلدان فى تقرير مصيرهما . وانفتحنا على مصر التى بدأت صراعها ضد انجلترا لتحقق ما حققه البلدان بنضالهما.

أمل آخر يفتح فى وجهنا.. فهذه فرنسا تنهزم فى معركة استعمارية فى المشرق ، فلم لا تنهزم فى مثيل لها بالمغرب؟

الفكر الإسلامى يناصر المغرب:

ومصر تتحرك مرة أخرى فى اتجاه وطنى إسلامى . الحركة الإسلامية التى نشأت سنة ١٩٢٧ تبحث عن هويتها ، وجدت هويتها فى العمل الوطنى بمنظور إسلامى تحت اسم «الإخوان المسلمون» كانت هذه الحركة تفكر فى أن تعيد لمصر هويتها الإسلامية العربية رداً على الاغتراب الذى ظهر، برأيه ، فى عدة مظاهر: انطلاقا من قولة اسماعيل: مصر جزء من أوروبا . ثم فى الحركة الأدبية والفكرية التى قادها مفكرون من أمثال لطفى السيد والشيخ على عبد الرازق فى كتابه:«الإسلام ونظام الحكم» ثم طه حسين فى كتابه فى الأدب

الجاهلى وفى كتابه مستقبل الثقافة فى مصر، ثم فى دعوة قبطى يسارى متطرف هو سلامه موسى.

وأصبحت حركة الإخوان المسلمين تخشى على هوية مصر من حركات التحرر الاجتماعى التى زادتها الحرب اتساعاً، وخاصة فى الأوساط المترفة، وتخشى على هوية مصر من مظاهر «التحلل» الأخلاقى الذى شجعته الحرب والأموال التى ملأ بها أغنياء الحرب الشارع المصرى، والقاهرى بخاصة.

لم تكن حركة الإخوان متخلفة عن توسيع دائرة تفكيرها ليصل إلى الحكم وأسلوب الحاكمين فى تدبير أمور البلاد، وفى إهمال الطبقة المحرومة من المجتمع. ولم تكن متخلفة عن اتباع أسلوب جديد فى الدعوة والإرشاد والتعبئة، وكان المرشد العام الأستاذ حسن البنا رجلا ذكيا تحمل باحتمال مسئولية الدعوة والإرشاد كما يفهمها، لم يكن مجرد واعظ، كان داعية حسن الحديث، قوى الحجة، بالغ التأثير، واسع المعرفة فى حدود الفكر الإسلامى بقدر ما يمكن للدعوة والإرشاد أن تخترق الحجب فى ظلام الانحراف كما كان يتصوره. لم يكن يعمل على تصدير دعوة الإخوان خارج مصر. ولكن مصر كانت توفر له ذلك من خلال عدد من العرب والمسلمين الذين يعيشون فى مصر، ومن خلال المشاكل المشتركة التى تعانيها الشعوب العربية والإسلامية من الاستعمار، وهو المظهر الأول للانحراف.

من هنا كانت صلتنا بالإخوان المسلمين والشيخ البنا الذى كان يعالج معنا قضية المغرب الوطنية (والوطنية لا تختلف عن العمل الإسلامى فى فكره وعمله ونضاله وسلوكه) ويفسح لنا أبواب المركز العام للإخوان ومجلتها أولا ثم صحيفتها اليومية (الإخوان المسلمون) بعد ذلك.

وجدنا فى الإخوان المسلمين وفى فكر الداعية المتحرك ما لم نجده فى جمعية الشبان المسلمين وقائدها عبدالحميد سعيد، ولا فى جمعية الهداية الإسلامية ورئيسها التونسى الأصل الشيخ الخضر حسين (أصبح فيما بعد شيخا للأزهر) جمعيتان تكتفيان بالدعوة الهادئة فى إطار إسلامى لا تخوضان فى المشاكل ولا تعارضان، ولو أن الأولى فتحت أبواب مركزها وقاعتها فى كثير من الأحيان للمناضلين المغاربة منذ النضال ضد الظهير البربرى سنة ١٩٣٠ . ودخلت قضية المغرب كقضية سياسية مناضلة ضد الاستعمار فى جوانب نضال الإخوان المسلمين، تستعمل لغتها المغرب كما تستعمل المشرق حينما تتحدث عن الإسلام ، وعن النضال لتحرير المسلمين من قبضة الاستعمار، ومن الانحراف الذى يساعد الاستعمار على بثه فى الأوساط الإسلامية.

ومع ذلك لم يطلب إلينا الشيخ البنا الانتماء إلى «الإخوان» ولا النشاط فى دائرة الجمعية . ولذلك لم نكن نحضر سلسلة المحاضرات التى يلقيها إلا لماما.

مصر تتزعم الفكر العربى

أخذت مصر تضج بالحركة والنشاط العربى . أخذت معالم نهاية الحرب تتضح . ولم يكن المصريون وحدهم يفكرون فى مصير بلادهم، كل العرب يفكرون . ومصر كانت فضاء التحرك لأنها البلاد التى يعتز العرب بريادتها السياسية والثقافية ، وبلاد الحرية التي تفتحت على جنبات واديها زهرة التحرر، ووجد فيها كثير من المفكرين والمثقفين من البلاد العربية الأخرى (سوريا ولبنان بخاصة) الصدر الرحب لنشاطهم الثقافي فكيف لا يجدون الصدر الرحب لنشاطهم السياسى؟

من المؤكد أن فكرة التحرر العربى وجدت خارج مصر، فى أواخر القرن الماضى وأوائل القرن يوم أخذت البلاد العربية التى هيمنت عليها سلطة العثمانيين باسم الخلافة تتبنى فكرة التحرر، مقترنة بفكرة الوحدة . ولم يتحقق التحرر ولا الوحدة حتى بعد أن انهزمت تركيا فى الحرب الأولى، فقد ورث الاستعمار الغربى، مدعوما بالعرب الذين وثقوا فيه، الإمبراطورية العثمانية فكان العراق وفلسطين وشرق الأردن من نصيب انجلترا ، وكانت سوريا ولبنان من نصيب فرنسا، وبدأ نضال جديد بين الحربين للتحرر والوحدة.

وكان رأى المناضلين فى هذه البلاد أن دائرة الوحدة يجب أن تتسع لتشمل مصر.. بذلك يكون هناك سند للاستقلال وسند كبير للوحدة.

مصر كانت معتزة بنفسها لم تعد تفكر فيما وراء الحدود شرقا منذ أيام محمد علي وحملات إبراهيم باشا الفاشلة . ورغم أن المصريين يشعرون بتفردهم وتميزهم، فقد كانت طبيعة الانطواء التاريخية منذ عهد الفراعنة، لاتزال تتحكم فيهم، يقبلون الضيف ويرحبون به إلى درجة الاحتواء والهضم، ولكنهم لا يضيفون أنفسهم، ولذلك كان تفكيرهم السياسى فيما وراء سينا محدوداً جداً، رغم خطورة ذلك على سلامة مصر، كما برهنت الأحداث فى العدوان الإسرائيلى المتكرر.. ولولا رابطة النيل لما فكرت مصر، ومنذ بداية تاريخها القديم، فى السودان، ولما كان ملك مصر ، ملك مصر والسودان، وغردقان ودارفور.. كما لقب فاروق نفسه فى بعض البلاغات.

الانطواء السياسى جعل الطبقة السياسية فى مصر محدودة الأفق حتى وهى تشهد العالم يتحول من حولها . لم تفكر فى شرقها والحرب العالمية الأولى تفرز تطورا خطيرا فى المنطقة، ولم تفكر فى شرقها والعالم يتحول من حولها بفعل الحرب العالمية الثانية التى بدأت معالم نهايتها تتضح للعيان.

غير أن مصر المضيفة فتحت صدرها لطائفة من السياسيين والمسيسين العرب من سوريا ولبنان وفلسطين شرقا ، وطائفة منهم من الغرب ليبيين ومغاربة على الأخص. مجرد أفكار غير منظمة ولا

موحدة ولا مدروسة تتردد . واجتماعات تعقد تستغل الحرية والسماحة في مجتمع القاهرة الثقافي والسياسي والصحفي، ولكنها لا تقترب من مصدر القرار إلا بحذر وعلى استحياء.

ومصر معذورة أيضا لأنها مشغولة بمشاكلها . ولعل السياسيين فيها لا يودون أن يربطوا مشكلتهم بمشاكل الآخرين خوفا من أن يعقدوا المشاكل ويدولوها .

وكان كثير من السياسيين وحتى المثقفين منهم يخشون من تضافر الدول الاستعمارية ضدهم . ولا أنسى ، وقد تطور عملنا الإعلامي من الصحف إلى محاولة نشر نشرات وكتب صغيرة عن قضايا مغربية معينة أن قلم المطبوعات (الرقابة) لم تكن تجيز طبعها، وفي مناقشتنا لعميدين من أعمدة قلم المطبوعات الدكتور عوض محمد عوض (كان أستاذ الجغرافية في كلية الآداب في الوقت نفسه) والأستاذ محمد عبدالله عنان قال الأول لنا وهو يواجهنا بصراحته المعهودة :

- يا أخي لم تحاولون أن توتروا علاقاتنا مع فرنسا؟ اذهبوا إلى بلادكم وانشروا مثل هذه المطبوعات .. أما هنا فلا..

وإصرارنا هو الذي حول «لا» إلى «نعم».. بعد أن لم يعد الدكتور عوض متحكما في الموقف.

الفكر العربي أخذ يتحرك في طريق الوحدة ، والوحدة لا يمكن أن تتم بدون مصر. وهو فكر يتحرك مبدئيا ضد «الحلفاء» الذين

سينتصرون فى الحرب ، لأنهم المتحكمون فى المنطقة استعماريا ، وكان هؤلاء (المخابرات الانجليزية على الأخص) ترصد بحرص شديد هذه التحركات حذرا من التأثير على مستقبلها فى المنطقة ، فهى مدعوة إلى امتصاص الغضب الصامت المؤهل للانفجار بين المصريين الذين شهدوا بلادهم تحتلها من جديد جيوش الامبراطورية من كل القارات والأجناس والقوميات، والذين عرفوا محنة البؤس بسبب حرب لا ناقة لهم فيها ولا جمل . ومدعوون فى الوقت نفسه إلى التفكير فى إحداث تغيير (شكلى) على العلاقات السياسية بين مصر وانجلترا على ألا ينفذ التغيير إلى العمق حتى تظل مصر جوهرة لامعة فى التاج البريطانى ، وهم مدعوون ثالثا إلى امتصاص التحرك الذى عرفته المنطقة من هؤلاء العرب الغاضبين منهم ومن الاستعمار الفرنسى على الأخص، وهم مدعوون رابعا إلى تكييف ما ينشده هؤلاء من «وحدة» تردد صداها اكثر من نصف قرن، وفشلت فى فترة ما بين الحربين.. وآن لها أن تنبعث من جديد تحت إلحاح هؤلاء المناضلين الذين أخذوا يغمرون المجتمعات الثقافية والإسلامية والسياسية فى القاهرة.

فكرة الجامعة العربية تنطلق

في وسط هذا التراكم من القضايا والمشاكل التي عالجت بعضها وزارة الخارجية الانجليزية مع الحكومات المتعاقبة في مصر (حكومة صدقي وحكومة النحاس و حكومة النقراشي) (١) أعلن السيد أنطوني ايدن وزير خارجية المحافظين ثم رئيس حكومتهم فيما بعد، أن حكومة جلالة الملك لا ترى مانعا في تكوين جامعة بين الدول العربية، ومن بينها مصر ، إذا ما رغبت هذه الدول في ذلك.

لا يستطيع التاريخ أن يجزم ما إذا كان هذا التصريح المثير قد أعلن باتفاق مع حكومة ـ أو حكومات المنطقة العربية ـ ولكنه تصريح قوبل باندهاش وترحيب كبيرين في مختلف الدوائر العربية بما فيها مصر.. وقد وجدت مصر نفسها في قلب المسئولية ، و اعتبرت زعامتها على البلاد العربية معترفا بها فيما يخص الدعوة البريطانية ـ نلاحظ أن هذا الحدث كان في عهد حكومة الوفد .. لم ذلك؟ سؤال يرتبط بالتفكير الانجليزي الشمولي، فللوفد وزعيمه النحاس مكانة مرموقة في البلاد العربية جميعها منذ عهد سعد زغلول.. واعتبرت الدول العربية المعنية زعامة مصر للمشروع مقبولة بترحيب. فمكانة مصر لا

---

(١) لا أتتبع الأحداث بدقة المؤرخ ، وتدقيق توقيت الحدث ، ولكن بإجمال الأحداث ، واستقراء مالها من دلالة على التطورات السياسية .

تنافس ، وبدأت محادثات الإسكندرية للوصول إلى صيغة للمنظمة العربية المرجوة.

أصبحت مصر إذن عاصمة عربية فيها تدرس كل قضايا العرب بوضوح وبدون حذر ولا تكتم.

المغرب فى الجامعة العربية:

المغرب، ما موقعه من هذه الجامعة؟ وما موقفها من قضاياه؟ هل هى جامعة للشعوب أو جامعة للدول؟ هل يصح أن تنشأ جامعة عربية مبتورة لايزال جزء كبير منها تحت الاحتلال الانجليزى والفرنسى؟ والدول التى ستنشىء الجامعة هل هى حقا مستقلة؟ أم أن الاستقلال الشكلى كاف لإعطائها مسئولية تحرم منها بقية البلاد العربية التى لم يعترف بها بعد بهذا الشكل من الاستقلال؟

أسئلة كثيرة لم تكن تراودنا نحن فقط فى «رابطة الدفاع عن مراكش» ولكنها كانت تراود كثيرين من المفكرين فى السياسة العربية وحينما كنا نحادث البعض منهم عن موقف المنظمة المنتظرة من قضية المغرب كانوا يقفون ـ بالرأى ـ معنا ولكنهم لا يملكون القرار....

انتهى تفكيرنا إلى تقديم مذكرة إلى مجمع محادثات الاسكندرية ـ التى كان يرأسها مصطفى النحاس رئيس حكومة مصر آنذاك .

طالبنا فيها بضم المغرب إلى المنظمة المنتظرة باعتبار أنه دولة عربية قائمة السيادة يمثلها جلالة السلطان . والحماية الفرنسية لم تفقد المغرب سيادته الدولية . وإذا كان غير قادر على أن يحضر المحادثات والالتزام بالميثاق ، فإن المناضلين من أبنائه يمكن أن يتحدثوا باسمه إلى أن يعلن استقلاله وتعتبر المذكرة أن هذه الخطوة ستسرع باستقلال المغرب، لأن المنظمة العربية أنذاك تتحمل مسئولية الدفاع عن هذا الاستقلال إلى أن يتحقق..

لم نكن نأمل أن يقنع هذه المنطق مجمع الإسكندرية . ولكنا ، لأول مرة نجحنا فى أن نضع المشكلة المغربية على المجموعة العربية كمجموعة ، وأن نخرج التفكير فى الجامعة من المجال الضيق (مجال الدول التى تتحكم فى سيادتها - ولو شكليا) إلى المجال الأوسع ، مجال الدول العربية التى لم تحرز بعد استقلالها .

وما من شك فى أن كثيرا من المسئولين الذين مثلوا بلادهم فى مجمع المحادثات فى الاسكندرية لم يكونوا يعرفون عن المغرب أى شئ ، ولم يكونوا يفكرون فى بلاد عربية أخرى خارج الحدود التى درسوها فى المدرسة أو عرفوها من خلال «الإعلام العربى» المحدود الأفق . ومذكرة رابطة الدفاع عن مراكش فتحت الآفاق أمامهم ، وأمام الإعلام الذى تابعناه ونحن ننشر خلاصة المذكرة ، وأمام الذين لاحقناهم من ممثلى

البلاد العربية والذين يتحركون فى فضائها لإقناعهم بقضية اسمها استقلال المغرب .

تكوين جامعة الدول من سبع دول (إحداها «اليمن» ملاحظة) كان هو الممكن من المستحيل . هو الصيغة التى لم يكن بالإمكان الوصول إلى غيرها . ولكن المجهود ، الذى بذلناه بإلحاح ، وضع قضية المغرب نقطة دائمة فى جدول أعمال الجامعة .

ما أدرى ما إذا كان الذين أنشأوا الجامعة يفكرون فى المواجهة السياسية من أجل قضايا مستعصية كقضية فلسطين والسودان وقضايا المغرب العربى غرب مصر ؟ أم إنهم كانوا يفكرون فى جامعة غير سياسية تعمل للتعاون الاقتصادى والثقافى ، وما يهم التعاون المشترك بين دولها ؟ ولكن هذه القضايا الحادة فرضت نفسها أكثر مما كان على القضايا الاقتصادية والثقافية أن تفرض . فرضت نفسها على الفكر السياسى حتى عند الحكومات غير القومية التى كانت تلى الحكم فى هذه الدولة أو تلك . وفرضت نفسها فى الإعلام الغربى بما فيه صحافة مصر الرسمية والمتحفظة . أحسسنا بأن سواعدنا تطرق بابا غير مغلق .

كان مما ساعد على تخطى كل العقبات أن الأمين العام الذى عين لتسيير شئون الجامعة كان هو عبدالرحمن عزام . كان الرجل من العروبيين فى مصر ليس لأن له عواطف عربية فحسب ، ولكن لأنه خرج

من حدود مصر وقاتل فى ليبيا الاستعمار الايطالى ، وشارك الليبيين المر وهم يجاهدون ضد الاحتلال . ومن ليبيا عرف – وآمن – بأن الصحراء الغربية المصرية لا تفصل مصر عن بقية الوطن العربى، بل إنها تصلها . وأن سلامة مصر فى سلامة ما وراء صحرائها ، كما هو فى سلامة شرقها : فلسطين وسوريا .. وأن ليبيا ليست هى نهاية الوطن العربى ، الذى أنشئت الجامعة لمعالجة مشاكله ، بل إن وراء ليبيا عالما كبيرا يعتبر نصف العالم العربى، وإن الاستعمار الفرنسى أخطر من الاستعمار الانجليزى والإيطالى .

ولذلك كان من السهل الوصول إلى فكر الرجل ونحن نكاتبه ونتصل به وبمكتبه بعد أن تولى مسئوليته .

وكان مما ساعد أيضا على الوصول إلى قلب الجامعة شخصيات ثلاث مهمة ، هم محمد صلاح الدين الذى كان الأمين العام للحكومة فى عهد حكومة الوفد، ثم أصبح وزيرا للخارجية فيما بعد . والرجل كان على صلة كبيرة ، وهو طالب ، بالطلبة المغاربة فى باريس منهم : بلا فريج والوزانى ومحمد الفاسى وغيرهم من الطلبة التونسيين . وكان من السهل علينا أن نصل إلى قلب الحكومة المصرية من خلال فكر الرجل. والشخصية الثانية من سوريا هى فريد زين الدين وهو أيضا من المناضلين السوريين و كان فى موقع المسئولية والقرار آنذاك . هو الآخر كان طالبا فى باريس وعلى صلة حميمة بالطلبة المناضلين

المغاربة. ولم يكن عسيرا أن نصل إلى قلب الحكومة السورية . وكل أعضائها : جميل مردم ، فارس الخورى ، كانوا متفتحين على القضية المغربية ، وقابلين للتفتح . أما الشخصية الثالثة فهو محمد فاضل الجمالى وزير خارجية العراق ثم رئيس حكومتها ، الرجل الذى أخذ على عاتقه قضية المغرب والدفاع عنها منذ مثل بلاده فى مؤتمر سان فرانسيسكو لإنشاء الأمم المتحدة سنة ١٩٤٥ ، ثم وهو يترأس وفد بلاده فى اجتماع الأمم المتحدة فى قصر شايو بباريس سنة ١٩٥١ وفى كل اجتماعات الأمم المتحدة التى حضرها بعد ذلك .

دخلت رابطة الدفاع عن مراكش بقضية المغرب من أوسع الأبواب . إذ لم يسمح ميثاق الجامعة بعضوية المغرب وبقية الأقطار غير المستقلة فى جامعة الدول العربية – وذلك شئ طبيعى – فقد كان المغرب أكثر من عضو لأن مجلس الجامعة ولجنتها السياسية كانت تضع القضية فى مقدمة جدول الأعمال . وكان عبدالرحمن عزام يتخطى مسئولياته كأمين عام ليتخذ مواقف نضالية ليست رسمية ، ضد الاستعمار . كما كان رؤساء الحكومات ووزراء خارجية الدول العربية الأعضاء لا يترددون فى العمل باسم الجامعة لصالح القضية المغربية .

الجامعة فى نشأتها كانت مؤسسة نضالية يدير شئونها مناضلون وضعهم القدر فى مركز المسئولية . ولذلك كان الوصول إليهم سهلا .

إشعاع مضئ للمغرب

ظلت رابطة الدفاع عن مراكش تعيش فترة طويلة فى عزلة عن المغرب استمرارا لحالة الحرب، وبعد حملة العنف والقمع التى قام بها المقيم العام كابربيل بيو المقيم الفرنسى بعد المطالبة بالاستقلال . وعندما بدأت بوادر نهاية الحرب تظهر للعيان ، بانتهاء حرب الصحراء لصالح الحلفاء استولى الانجليز على إقليمى بنغازى وطرابلس والفرنسيون على إقليم فزان انطلاقا من تشاد لتدعيم نفوذ فرنسا الحرة فى افريقيا . تحرر البحر الأبيض من طيران المحور وغواصاته . ولكن المواصلات البحرية والجوية والبريدية ظلت مقطوعة ، حتى إذا اقترب موسم الحج فوجئنا بوفد رسمى من الحجاج المغاربة يتوقف فى القاهرة فى طريقه إلى الديار المقدسة . كان على رأسه الحاج الفاطمى بن سليمان ، وهو الذى حمل إلينا من حزب الاستقلال ذخيرة من الوثائق ، وقليلا من المال للإنفاق على الحركة ، ومنحة خاصة من جلالة محمد الخامس .

لأول مرة منذ بداية الحرب نستأنف صلتنا بالوطن وبالحزب بخاصة. لأول مرة منذ بدأنا ننشط فى الدعوة لقضية المغرب نجد سندا حقيقيا من الواقع موثقا بحقيقة الأحداث التى يمر بها المغرب ، وحقيقة المطالبة بالاستقلال تبلورها وثيقة ١١ يناير التى اطلعنا عليها لأول مرة ،

نجد سندا من المال نعتمد عليه فى بعث الحياة المتحركة فى النشاط الذى نقوم به ، بهذه المساعدة المالية أصبح للرابطة مكتب . أصبحت لنا إمكانية إصدار نشرة حافلة بأحداث المغرب وبتعليق تحليلى للواقع المغربى ، كنا نوزعها على كل الصحف والسفارات والدوائر السياسية .. بدأت بعض الصحف تقتطف منها ، وانتهى الأمر ببعضها إلى نشرها حرفيا فى صفحاتها الأولى بدأت الرابطة تنشر كراسات تحت عناوين مثيرة أحيانا ، و موضوعية ، تصل إلى كل قارئ له اهتمام بالقضايا السياسية والعربية بخاصة .

كانت الصحف تعنى بها ، وتجد صداها فى المحافل نكتبها ونسهر على طبعها ونوزعها أحيانا يدا بيد. كنا نبتهج إذا استقبلت بترحيب، ولا نجد غضاضة إذا رفض أحدهم حتى النظر إلينا ونحن نقدمها له هدية. دخلنا إحدى المقاهى (مطعم فى الوقت نفسه) علنا نلتقى بشخصية نقدم له (الكتيب) ، كان أمامنا عبدالمجيد نافع المحامى وكان نائبا برلمانيا ملحوظا تقدم نحوه الأخ أحمد بن المليح فسلم وحاول أن يقدم له الكتاب، رفض النائب النظر إليه وهو «ينشه» بيده . عاد إلينا مبتسما غير عابئ بالإهانة ، انفجرنا جميعا ضاحكين من محام ونائب برلمانى يرفض أن يلقى نظرة عابرة على كتاب يقدم له ، وهو يظن أن حامل الكتاب يطلب صدقة .

بالمنحة الملكية نظمنا حفلة لعيد العرش (عيد جلوس محمد الخامس على عرش المغرب) وجدنا فى الصحف المصرية ترحيبا بما كتبناه عن المغرب وعن عيد العرش وصاحب الذكرى . المجلات المصورة نفسها وجدت فى الموضوع حدثا جديدا . وكانت الحفلة أكثر نجاحا مما تصورنا . استدعينا شخصيات عربية مرموقة . وزراء ووزراء سابقين وسفراء الدول العربية . وكان ضيف الشرف فيها عبدالرحمن عزام الأمين العام للجامعة . لم تكن حفلة تكريم صامتة ، ولكن قدم الموضوع بكلمة عن المغرب وجلالة ملكه المناضل ومطالبة الشعب بالاستقلال والمأساة التى يتجرعها من الاحتلال الفرنسى . ووجد عبدالرحمن عزام نفسه مدعوا لأن يتكلم ، فألقى خطابا عنيفا ضد الاستعمار الفرنسى فى المغرب، وحلل قضية المغرب وضرورة الاعتراف بالاستقلال الذى يطالب به الشعب. لم يكن أمين عام مسئول عن منظمة دولية يتحدث، وإنما كان مناضلا خصما عنيفا للاستعمار يهاجم بعنف دولة تربط كل الدول الأعضاء علاقات دبلوماسية معها . ونشرت صحف الغد ملخصا عن الحفلة وصورا عنها ، ولكن إحدى الصحف اليومية المهمة نشرت خطاب عزام باشا كاملا . وكان أن احتجت السفارة الفرنسية على الجامعة العربية . كان عزام يعرف ذلك، ولكنه كان واثقا من موقفه .

مكتب رابطة الدفاع عن مراكش كان فى شارع مهم (كان يحمل اسم شارع الملكة نازلى - رمسيس) قريبا من ميدان باب الحديد

مكتب آخر تضمه العمارة هو مكتب محمد على الطاهر المناضل الفلسطينى العربى ، وكان يقصده كبار الوافدين العرب على القاهرة . يعرفهم جميعهم ويقدم لهم ولبلادهم خدمات ومساهمات نضالية . يعرف بعضهم ببعض عن طريق المراسلة، ويكتب عنهم وعن بلادهم فى الصحف التى أصدرها (الشورى والشباب أشهرها) . ولا يكاد يفد أحدهم إلى القاهرة إلا و كان مكتبه فى مقدمة مزاراته ، فالويل له ثم الويل .. إذا لم يفعل . مكتب محمد على الطاهر كان بمثابة ندوة عربية تقصدها بين العشاءين فتجمع الشامى على المغربى كما يقال . مسلمون من أندونيسيا وماليزيا لا يتحدثون العربية إلا لماما وعلماء وأدباء ومثقفون .. كلهم يشرب الشاى الذى يعده بيده ويغسل أدواته ويقدمه بنفسه ، وهو يتحدث فى قضية عربية أو إسلامية ، أو يتحدث عن شخص ما ، ليس دائما بالذى يرضيه أو يرضى ذكراه .. ولكنه يعرف كل القضايا ويتحدث فى كل شئ وعن كل شخص إلا فى قضايا العلم والأدب، فهو يفسح المجال لرواد الندوة وينصرف إلى إعداد الشاى . وعليك أن تشرب منه حتى ولو كنت لست من أنصاره .

وكل الذين يفدون إلى مكتبه يعرفون أن مكتبا آخر فى العمارة لرابطة الدفاع عن مراكش. وتلك بداية حديث عن المغرب كان يبدؤه ويترك لمن يوجد منا ، لحظتها تلك ، أن يتم الحديث .

المغرب العربي ضدا على الاتحاد الفرنسي

انتهت الحرب وبدأت دائرة النضال تتسع بتأسيس جامعة الدول العربية، بعد منظمة الأمم المتحدة . مصر في مقدمة المعركة ، وهي ترفع قضيتها إلى مجلس الأمن الدولي تشكو انجلترا - بعد أن فشلت كل المحادثات «الماراتونية» بين لندن والقاهرة لتعديل - أو تغيير - معاهدة سنة ١٩٣٦ . سوريا ولبنان تمارسان استقلالهما في صراع دائب مع الحكومة الفرنسية الجديدة . العراق يراوح نشاطه السياسي بقدر ما تسمح اتفاقاته مع انجلترا ، والتي أحكمت وثوقها الحرب ، وخاصة بعد فشل ثورة رشيد عالي الكيلاني الذي كان يسعى لتحرير العراق، ولو باتفاق مع المحور . فلسطين تجدد نشاطها ضد الانجليز والصهيونية معا والنجمة الصهيونية يستعر أوارها بتأييد الدولة المنتدبة وأمريكا المنتصرة . والشيخ أمين الحسيني يفر من برلين ، وهي تلفظ أنفاسها ، ولا يعرف أحد كيف وصل ملتجئا إلى القاهرة ، في حمى فاروق . فوجد كل رعاية وحماية وتقدير . ولم يستطع الانجليز ولا المخابرات الصهيونية أن تمسه بسوء . وصلته بالنضال داخل فلسطين، ضد تدفق المهاجرين الصهيونيين ، ضعيفة أو هي منعدمة . والعمل في القاهرة سيكون مرتبطا بإرادة فاروق ، وبقدر ما تستطيع الجامعة التي تبنت قضية

فلسطين من أول يوم ، ورابطة الدفاع عن مراكش ربطت حبل اتصال ، بدأ واهيا ولم يلبث أن اشتد ، مع الوطن .' القاهرة أصبحت قلب العرب النابض يتحرك بعمق وبقليل من الحذر لتحقيق حرية العرب ووحدتهم .

بدأنا فى رابطة الدفاع عن مراكش نفكر من خلال تجدد أفكار الاستعمار ومناهجه . الجنرال دوكول ، الذى أكد وجود فرنسا الحرة فى أحلك فترات التاريخ الفرنسى ، أسهم فى إخراج فرنسا من ظلامها بجيوش الامبراطورية، وقد اشترك فى الحرب تحت قيادة ضباطه أو قيادة الضباط الأمريكيين (أيزنهاور أشهرهم) مئات الآلاف من أبناء المستعمرات من الفيتنام حتى المغرب، وما بينهما من بلاد آسيا وإفريقيا ساهموا فى تحرير أوربا من إيطاليا حتى فرنسا وبلچيكا وغيرها من الدول المحتلة . وخرج دوكول من الحرب إلى النصر برؤيتين متناقضتين : ضد احتلال بلاده ، ومع الاحتفاظ بالامبراطورية لدرجة الحرب فى سبيلها . وقد عاش فى لندن فترة من أيام نضاله ، وأشرب – فيما اعتقد – فكرة تطوير الامبراطورية إلى رابطة جديدة تشبه رابطة «الكومنويلث» ولهذا أخذ يفكر فى «الاتحاد الفرنسى» ليضم كل شعوب الامبراطورية تحت سيادة فرنسا . لم تتضح صورة هذا الاتحاد بعد . فقد ظل فكره قيد الدرس، وما أعرف له صورة واضحة فى الأدب السياسى .

أرعبتنا الفكرة والدعوة لها وخشينا أن يكون المغرب من بين أعضاء هذه المجموعة ولا شك أن تفكير الإمبراطوريين الفرنسيين كان يشمله فيما يفكرون فيه من صيغة للاتحاد الفرنسي .

اهتدينا إلى صيغة «المغرب العربى» وقد ولد هذا الشعار فى أحضان رابطة الدفاع عن مراكش ، وهى بعد لا تمثل إلا المغرب . للأفكار دائما عبقريتها . لا تولد من عدم . وإذا قدر لها أن تنجح فهى نفسها تبحث عن سبل النجاح . ولعل الأقدار وتطورات الأحداث تهيئ لها ذلك . الفكرة لم توجد من عدم لأنها تستند إلى التاريخ . بلاد المغرب فى أزهى فترات تاريخها عاشت موحدة والتفكير الاستعمارى الفرنسى سار فى طريق التوحيد، ولو أن للجزائر وضعية (إلحاق) تختلف عن وضعيتى تونس والمغرب (حماية) ولذلك كانت السياسة متقاربة وخاصة بين ما تطبقه فرنسا فى تونس وما تطبقه فى المغرب . الاقتصاد متكامل. والامبراطورية الفرنسية فى شمال الصحراء تبدأ من حدود ليبيا شرقا حتى الأطلسى غربا . من هذين المنطلقين كان تفكير الوطنيين (بداية من «طلبة شمال افريقيا المسلمين» فى باريس) متجها نحو توحيد التفكير فى النضال لتحقيق بعض الحقوق المشتركة، وخاصة ما يتعلق بالتعليم وبعض الحريات العامة . وانعكس هذا التفكير الوحدوى للطلبة المغاربة فى فرنسا على عمل المناضلين فى داخل أحد الأقطار الثلاثة أو خارج المغرب العربى .

ولكن اصطلاح وحدة المغرب نشأ فى القاهرة وفى أحضان رابطة الدفاع عن مراكش . وكانت ظروف نهاية الحرب مشجعة على التفكير فى النضال من أجل هذه الوحدة .

ليبيا والطريق إلى الدولة

فكرة المغرب العربى لابد أن تجد دعما لها . المغرب والجزائر فى ميدان العمل بالقاهرة ، ليبيا تتحرك منعزلة وبخجل وحذر حول السيد إدريس السنوسى الذى كان يعيش في القاهرة ، بعد أن عاش فى الديار المقدسة ردحا من زمان بعد خروجه من ليبيا ، وقد اندحرت الحركة السنوسية المناضلة في ليبيا ، ولم يبق من المناضلين فى أحضانها إلا السيد إدريس (ملك ليبيا فيما بعد) ، كان يحظى بالتقدير والاحترام ، ولكن لا نضال له ، ولا صلة بالمناضلين .

يعرفه عبدالرحمن عزام معرفة نضال . ويبدو أن صلته به لم تنقطع. وقد أخذ عزام على نفسه أن يناضل من أجل قضية المغرب العربى فى إطار الجامعة . وكان من رأيه أن يبدأ بالقضية الأسهل : ليبيا . كانت مستعمرة إطالية . وقد انهارت إيطاليا وانهار استعمارها . وليس من الطبيعى أن يرث المنتصرون المستعمرات ، وإن كان هذا هو منطق الحربين العالميتين . ولهذا بدأ يكافح من ثلاثة منطلقات :

- الاعتراف باستقلال ليبيا وإنهاء الاحتلال الانجليزى .

- الاعتراف بوحدتها وإنهاء الاحتلال الفرنسى لفزان ثم توحيد الأقاليم الثلاثة ضدا على التقسيم القبلى والجهوى ثم الاستعمارى.

- تكوين دولة موحدة تحت رئاسة (ملكية) شخصية لها من الاحترام والتقدير والنبل ما يمكن أن تحظى به من إجماع قبلى وسياسى فى ليبيا جميعها ، وكان إدريس السنوسى أهم شخصية على الساحة ، إذا لم يسعفه عمله السياسى وثقافته السياسية وقدرته على الحكم وصحته ، فقد يسعفه أنه من عائلة مناضلة لا يزال لها ذكر طيب فى بنغازى ، ثم فى بقية أنحاء ليبيا .

ونجح عزام - بواسطة الجامعة - فى تحقيق الفكرة ، وقد ساعدته الظروف السياسية الدولية على ذلك . فكانت ليبيا الموحدة دولة عربية ملكية مستقلة تعيش على مساعدة الجامعة العربية - وربما بعض البلاد العربية - قبل أن يتدفق عليها النفط فتصبح من الدول التى ترنو لها عيون الاستعمار مرة أخرى وتحاصرها قواته لتخضع .

من يدرى لو أن النفط ظهر أثناء الاحتلال الإيطالى أو الاحتلال الانجليزى - الفرنسى ، هل كان سيتغير مجرى تاريخها ؟

بورقيبة والطريق الشاق إلي القاهرة

وتتعزز فكرة المغرب العربى من جديد .

كان منفيا فى برج البوف من منفى إلى آخر ، ومن سجن إلى آخر. ولا يزيده السجن إلا إصرارا على النضال لصالح تونس . بفكر معتدل، وثقافة فرنسية تعترف بما لفرنسا عليه وعلى بلاده من فضل ، وبإرادة قوية وعزيمة صارمة كافح فى وسط حزبه حتى برز كمناضل عملى تنظيمى ، ينظم الخلايا ويقنع بلغته التونسية البليغة ويجمع الناس من حوله حتى لمع اسمه بين المثقفين : أطباء ومحامين وعلماء . ثم اكتسح الساحة السياسية كزعيم جديد للحزب، واستطاع فى مؤتمر الحزب أن يؤسس من جديد الحزب الحر التونسى الجديد . وقاوم «القدماء» حتى لم يعد لهم إلا وجود سياسى ضعيف يتلاشى أمام قوة الشباب الذين انضموا إليه ، فكانوا سند حزبه . ثم قاوم زعيما تاريخيا (عبدالعزيز الثعالبى) غاب عن تونس مدة طويلة ، وكان له وجود أينما حل وارتحل من الهند حتى الحجاز حتى مصر التى آوته سنوات . وحينما عاد إلى تونس إحتفل به الشعب احتفالا كبيرا . ولكن بورقيبة كان يصنفه مع القدماء . احتفل به كضيف عزيز ثم قاومه حينما بدأ ينشط وجاءت الأحداث ثم الحرب فأنهت كل نشاط فى تونس، وكان من حظ بورقيبة

معتقل رهيب له قصص فريدة معه، لو قصتها شهرزاد لما كفتها ألف ليلة وليلة .. هو «برج البوف» .

حينما احتل الإيطاليون تونس أثناء الحرب أفرجوا عن المعتقلين . ونقلوا بورقيبة إلى روما مكرما معززا . راودوه أن يعلن تأييده لهم باسم الشعب التونسى فتمنع . وعاد إلى تونس . وحينما عادت إليها الإدارة الفرنسية ، بعد أن طرد الحلفاء الاحتلال الإيطالى ، حاول الفرنسيون أن يتهموه بأنه كان عميلا لإيطاليا ، ولذلك افرجت عنه . نفعته شهادة القنصل الأمريكى الذى كان موجودا أثناء الاحتلالين فى العاصمة التونسية فشهد لصالحه ، ولصالح الحقيقة بأنه لم يعمل مع الإيطاليين ، وربما عرف من آراء بورقيبة أنه لم يؤمن قط بانتصار المحور . وهو إيمان استمده من ثقافته وإيمانه بفرنسا كدولة صامدة فى التاريخ . من إحساسه السياسى الذى كان صادقا صدق نضاله وتفكيره المستقبلى.

وجد نفسه بين اتهام الفرنسيين وضيق أفق العمل السياسى فى بلاد تتقاذفها أيدى الاستعماريين . ولم يثق فى اقتناع المقيم العام الفرنسى بشهادة القنصل الأمريكى ، والفرنسيون يومئذ يخشون على إمبراطوريتهم من الانجليز والأمريكيين مثلما كانوا يخشون عليها من الألمان والإيطاليين ، أخذ طريقه ليلا شرقا متخفيا ومعه بحار تونسى مناضل مخلص له (خليفة حواس) حتى إذا اقترب من الحدود التونسية

الليبية ركبا زورقا صغيرا ، كان خليفة يقذف بمقذافيه حتى اجتاز القارب الحدود المائية ، وأصبحا فى الصحراء الليبية ، من جمل إلى فرس إلى حمار إلى سيارة ، اجتاز بورقيبة الصحراء الغربية إلى الحدود المصرية .

ليس معهما أوراق ولا نقود، استضافتهما القبائل كعربيين تائهين فى الصحراء حتى أصبحا وجها لوجه مع حراس الحدود. لم ينفعهما قارب ولا جمل . وظن بورقيبة ، الذى كان يتحدث إلى التونسيين فيؤمنون ، أنه سيلفظ باسمه فيبايع حراس الحدود .

– أنا بورقيبة .

– ومن يكون بورقيبة .. ؟ أوراقك ؟ جواز سفرك . يا أستاذ ؟

– يا رسول الله .. ألا تعرفون بورقيبة ؟

– ارجع من حيث جئت نحن لا نعرف إلا الأوراق الرسمية ، يا أفندى ..

– دلونى على رئيسكم ..

– رئيسنا هو التعليمات . لن نسمح لك بالدخول إلى مصر ما لم تكن عندك أوراق رسمية وتأشيرة الدخول .

احتار الرجل في إقناعهم ، فابتدر :

– صلوني تلفونيا بعزام باشا .

- ومن يكون عزام باشا ؟ نحن لا نعرف هذا الاسم ، والتعليمات يا أفندم لا تسمح لنا بأن نصلك بأحد .

أخيرا استضافوه ، أو اعتقلوه في غرفة حدودية لا أدرى ، حتى صباح اليوم التالى . رجلان يتحدثان لهجة لا هى مصرية ولا صحراوية. ليسا تاجرين ولا مهربين . يبدو أنهما «ابنا ناس» يعيدونهما إلى الصحراء ؟ الصحراء لا ترحب بمن لا يتقن مسالكها ، ولا يركب جمالها ، ولا يطعم شظفها ، و،لا يطيق شمسها وقرها . يسجنونهما ؟ بأى أمر قضائى ؟ وإلى أى مدى ؟

وألح بورقيبة وهو يردد لفظ الزعامة والزعيم ، ويتحدث عن الجامعة العربية وعزام باشا .. وكلمة «باشا» لها وزنها . فليس من السهل أن تتردد طويلا على لسان هذا اللاجئ دون أن يكون وراءه ما يشفع له بأن يجرأ على اسم باشا ، لا شك أنه يتربع مقاما محمودا فى القاهرة أو فى الأرياف : وزارة أو نيابة أو ضيعة من آلاف الأفدنة ..

تحكمت الحكمة وصيت الكلمة «الباشا» فى القانون والتعليمات . واشتغل الهاتف من «مأمور» إلى «مأمور» من شرطة الحدود إلى شرطة الدرك إلى شرطة الأمن إلى مسئول فى الداخلية ليصل الخبر إلى الاسم الذى تردد طويلا فى «الهواتف» والبرقيات : عزام باشا . نفد صبر الزعيم ، السجين الطليق وهو يردد لخليفة حواس :

- يا رسول الله فرنسا تعتقلنى فى برج البوف، ومصر لا تستقبلنى بالهتافات على الحدود ؟

خليفة يسمع ، وليس مأذونا له أن يفكر أو ينطق . تعامل مع البحر فى هيجانه وهدوئه ولم ينبس . عضلاته تراوغ الموج دون أن تجابه .. الصبر والصمت والانتظار . هى موجة ليست عاتية ستركع مستسلمة أمام زعامة الزعيم . ولكنه لا يملك أن يتطاول بالقول ..

وتأتى تعليمات أو توصيات الباشا أخيرا متنقلة - على مهل - من وزير إلى وكيل وزارة إلى .. مأمور شرطة الحدود :

أكرموا الرجل وانقلوه إلى أقرب مكان يركب فيه قطارا .

علمنا أن بورقيبة وصل القاهرة . وما كان علينا إلا أن نبحث عن مكانه ، وأن نسعى لدى الأستاذ عبدالحميد سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين يستضيفه فى غرفة من غرف مركز الجمعية إلى أن يتدبر أمره.

وكان بورقيبة سريعا إلى تدبير الأمر . ولكن الحياة تسير ببطء فى القاهرة . مركز الجمعية لا يمكن أن يستضيفه أكثر من «ضيافة النبى» ثلاثة أيام ، وبعدها كانت إحدى غرفتى السطح فى عمارة بحى الدقى يسكنها الأخوان أحمد بن المليح وعبد الكريم بن ثابت . تنازل أحدهما لبورقيبة عن غرفته الضيقة الفقيرة إلا من سرير متهاو . لا يدرى أحد

كيف وسعته ، .. واقتسما غرفة لا يدرى أحد كيف وسعتهما . أصبح الزعيم يقاسم طالبين مسكنهما المتواضع . ولكنه كان راضيا عن وضعيته مقدرا كرمهما وشهامتهما .

فى صباح أحد أيام رمضان - وصباح رمضان فى مدينة تسهر لياليه تموت الحياة فلا تتحرك إلا مع منتصف النهار . صحا الزعيم مبكرا ، ولم يطق وجوده فى الغرفة الضيقة الملتهبة . الشمس تطل من عليائها فى صيف القاهرة وربيعها وخريفها حتى لتكاد تقبل سطوح العمارات . ونافذة الغرفة الضيقة تنفتح على «عين الشمس» تستضيفها بحرارة وترحيب . هو و«عين الشمس» لا تطيقها غرفة تقاس مساحتها «بالسنتيمترات» .. امتدت يده القوية فى عصبية عنيفة إلى قفل الباب يديره لينفتح ، فبقى القفل فى يده والباب فى مكانه . حاول أن يزيحه بكتفه . عجزت الكتف وجرف الباب . دق بجماع كفيه حتى استيقظ النائمان - وما كان لهما أن يستيقظا فى صباح يوم صيام قائظ - حاولا استرضاء الباب لكى ينفتح فأقسم ألا يفعل - لم تتوقف كفاه عن الخبط ، وما قدرا على أن يكسرا الباب ولا قفلها . ولو أنهما يعرفان أنهما سيؤديان الثمن ، ولا طاقة لهما به لاستبطآه ليبحثا عن نجار ، والنجارون لا يعملون فى الأحياء السكنية . وصباح رمضان لا يسمح لنجار أن يفتح بابه للصائمين . كانت ثورة الرجل مرة أخرى ضد

السجن الذي يتعقبه من برج البوف حتى الغرفة الضيقة الملتهبة على سطح منزل قديم في حي الدقي . كان لابد أن يكسر الباب ليفرج عن الزعيم المحاصر . وأقسم ألا يدخلها مرة أخرى فليقتسمها المضيفان وليقم هو في الغرفة التي وسعتهما - قهرا - ولم تضق به .

كان نضال بورقيبة حركة متنقلة في القاهرة : قصته تروى لكل الذين يتعرف عليهم يحكيها بلغته الشاعرية وبأسلوبه الدقيق المسهب وبحركاته التمثيلية وبوجهه المعبر وبابتسامته الساحرة . وكان علينا نحن الذين نسكن منزلا آخر : عبد المجيد وابن عبود وأنا في حي الجيزة ، منزلا أقل تواضعا ، استضاف منا خمسة أحيانا وما ضجر ولا تضايق. دعوناه على عشاء بسيط تعده شغالة تشتغل حسب الوقت الذي تسمح لها به أعمالها في منازل أخرى . نقدناها عصر ذلك اليوم لتتبضع وتطبخ ونحن نؤكد أن الضيف لا يحتمل التأخر في الأكل . وإذا جاع غضب . المنزل فقير حتى من الخبز الحاف . وقد جمعنا كل ما معنا من «مال» ودفعناه إلى الشغالة لتشترى كل شئ من «جاز» الموقد حتى السكر والشاى والخبز. خرجت الشغالة ولم تعد . جاء الزعيم في الساعة الموعودة وهو يؤكد لنا أنه لايصبر على جوع . يأكل في وقته المحدد وإلا ثارت أعصابه . أوقعتنا الشغالة شر موقع . فكرنا طويلا في عملية إنقاذ فلم نهتد . وكان أن اهتدى بورقيبة من حيث لايدرى . أنقذنا من ورطة من حيث لا نحتسب:

بدأ يحكى قصة كفاحه منذ دراسته فى باريس مرورا بعودته إلى تونس .. قصة طويلة لم تنته ببرج البوف. ولا بالإفراج عنه على يد الإيطاليين ونقله إلى روما وتهديده بالحكم بإعدامه بتهمه التعاون مع العدو .. ولا انتهت بقصة الحدود المصرية ، ولا بقصه غرفة السطوح. كلها قصص شيقة سمعناها منه أكثر من مرة . ولكنا فى ليلتنا تلك كنا سعداء بأن نستعيده حكاية بعض مقاطعها والاستفسار عن دقائق الأشياء.

الليلة الثانية بعد الألف لم ينته بوضع أطباق اللحم والخضر والأرز على المائدة ، ونحن جميعا نستعطفه بأن تكون التتمة فى جلسة الشاى..

كان سعيدا بأنه حكى للمراة الثانية بعد الألف قصة كفاحه لشباب ، ربما لم يعرفوا من قبل دقائقها . وكنا سعداء بأنه أنقدنا من ورطة خطيرة كان يمكن أن تنزل بسببها علاقتنا معه إلى درجة الصفر .

كان مناضلا مؤمنا بنضاله . وذلك سر قوته ، وسر ضعفه .

إسبانيا فرانكو تمد اليد لمصر والجامعة

ويأخذ نضال «رابطة الدفاع عن مراكش» بعدا آخر انفتح فيه الباب على مصراعيه :

كانت باسبانيا تشعر بحلقة المقاطعة تضيق حولها بعد نهاية المحور وانتصار الحلفاء . أصبح فرانكو يبحث عن حبل انقاذ يتشبث به علّه يخرج من العزلة الدولية . وكان تكوين الجامعة العربية لمحة ضوء بدت له في الأفق البعيد : المشرق العربى . و «يذكر» الأندلس العربى والتاريخ العربى الأسبانى المشترك . وهو لابد أن يعود إلى منبع هذا التاريخ : «المغرب» ولو أراد لما استطاع . فالمغرب دولة مستعمرة يحتل هو جزءها الشمالى . فلينفذ بفكره إلى بلاد المشرق : مصر والجامعة العربية .

مع مصر حاول أن يربط علاقات ثقافية فأذن بفتح مركز دراسات عربية إسلامية في مدريد . واستجابت مصر فأرسلت بعثات من الأساتذة يدرسون فى المدارس الثانوية المغربية (في الشمال) وجاءت بعثة مغربية طلابية إلى مصر ، أو هما بعثتان : إحداهما اختارها حزب الإصلاح الوطنى بقيادة : عبدالخالق الطريس وثانيتهما اختارها حزب الوحدة المغربية بقيادة : المكي الناصرى . وصلت البعثتان قبل الحرب

بسنة ، والحرب الأهلية فى إسبانيا لا يزال أوراها مشتعلا ، ولا يزال فرانكو فى حاجة إلى دولة أو مجموعة دول يربط معها رابطة ود ، بعد أن عزلته الحرب الناشبة ، وزاد فى عزلته أنه ينتمى إلى العائلة النازية الفاشية التى يتزعمها هتلر . وكان العالم الدولى يعرف أن الحرب الأهلية الإسبانية إنما كانت تجربة تتحارب فيها القوتان : «الديموقراطية» ممثلة فى الأنظمة اليسارية أو الديموقراطية التى تحكم أوربا الغربية ، والأنظمة الفاشية التى تحكم ألمانيا وايطاليا ، وقد تنضم إليهما إسبانيا إذا نجح هتلر فى القضاء على النظام الديموقراطى فى مدريد . كانت حرب فرانكو تسندها ألمانيا ، وكان نظام مدريد تسنده فرنسا – على قدر ما تستطيع بلاد بدأت الحرب تقترب من أبوابها .

لذلك بدأ فرانكو – بتدبير من المقيم الإسبانى فى منطقة شمال المغرب «يكبيدير» – يقترب من الدول العربية ، ومصر فى المقدمة ، فكانت البعثة الطلابية ، وكان مكتب ثقافى فى القاهرة ، أشرف عليه الشيخ المكى الناصرى ، ينظم محاضرات عن الثقافة المغربية الأندلسية وينشر بعض الكتب (ازدهار الرياض) مثلا .

ولكن القفزة النوعية الثقافية ببعد سياسى ، التى قفزها نظام الحكم الفرنكى كانت مع الجامعة العربية بعد تأسيسها سنة ١٩٤٥ ، بدأت الجامعة تفكر فى «أطراف» البلاد العربية، ولم تسمح لها الظروف

السياسية الدولية والتفكير فى العمق العربى .

الرجل الفعال فى الجامعة العربية بعد تكوينها هو : عبدالرحمن عزام . والصلة التى عقدتها رابطة الدفاع عن مراكش بالجامعة عن طريق المذكرات والتقارير بدأت تحفر في الصخر بظفر عنود . وكان فى مقدمة ما تطلبه الرابطة من الجامعة العمل على تحرير قادة الحركة الوطنية الذين غيبوا فى المنافى ، وفى مقدمتهم : محمد بن عبدالكريم الخطابى وعلال الفاسى وأحمد بلا فريج ومحمد بن الحسن الوزانى .

وفد شمال المغرب للجنة الثقافية

كان عبدالرحمن عزام متأكدا من أنه لن يستطيع الاقتراب من فرنسا ، وللجامعة مشكلة مع فرنسا حلت ولاتزال هى مشكلة سوريا ولبنان . ولذلك يحاول أن يدق بابا قد تكون دقاته مسموعة . هكذا أجرى صلات مع إسبانيا ، لا أستطيع أن أؤكد : أكانت المبادرة منه أو استغل المبادرة الفرنكية . كان «اقتراح» ، لا أجزم : أجاء من الجامعة أم من مدريد ؟ وهو : مشاركة المغرب (المنطقة الشمالية) بوفد فى إحدى لجان الجامعة العربية (اللجنة الثقافية) ولا تدرس قضايا سياسية. ولكن – فقط – قضايا الثقافة العربية . وتحققت الفكرة بتعيين وفد يمثل «الخليفة السلطانى» فى تطوان يحضر اجتماعات اللجنة ، وكانت تجتمع – فيما يبدو – مرة كل سنة . ووقع الاختيار على محمد بن عبود ومحمد ابن عبدالسلام الفاسى ، ومحمد بن عبدالسلام بن عبود . الأول درس فى كلية الحقوق بجامعة القاهرة ، والثانى مهندس بدأ دراسته الأولى فى نابلس بفلسطين ، والثالث درس فى القرويين وهو من رجال التعليم .

جاء الوفد إلى القاهرة فاعتبرناه فتحا مبينا فى العمل الوطنى . وكانت لى صداقة حميمة بالأول ونحن طالبان فى القرويين ، وتمتنت الصداقة فى مصر ، كما ارتبطت صداقته فى مصر ببقية الزملاء

أعضاء الرابطة ، وكان الثالث منهم أستاذا لى - لبعض الوقت - وهو طالب فى القرويين . عقدت اللجنة الثقافية فى الجامعة اجتماعها السنوى . وكانت قراراتها مما يوضع - عادة - على الرف ، إلا قرار واحد - لا أدرى ما إذا كانت قد اتخذته فى ذلك الاجتماع ؟ - وهو عقد المؤتمر الأول للثقافة العربية فى لبنان . عاد الأستاذ محمد بن عبدالسلام بن عبود إلى المغرب ، فهو موظف أنهى المهمة التى انتدب من أجلها . وبقى محمد بن عبود ومحمد بن عبدالسلام الفاسى فى مصر ، بدعوى استمرار أعمال اللجنة الثقافية .

من المؤكد أن بقاءهما فى القاهرة كان باتفاق مع الخليفة : مولاى الحسن بن المهدى ، خليفة السلطان فى تطوان . وكانت لمحمد بن عبود صلات به عن طريق مدير ديوانه (أحمد بن البشير) كان ابن عبود يكاتبه من حين لآخر ، ويقدم له تقارير عن نشاط اللجنة الثقافية ، ولو أن اللجنة لم تجتمع بعد ذلك إلا لماما . العمل الوطنى تعزز بهاتين الشخصيتين البارزتين بفضل مركزهما فى الجامعة العربية . هذا المركز كان يفتح الأبواب المغلقة أمام العمل الوطنى عموما ، وأمامنا فى رابطة الدفاع عن مراكش . بدأت مذكرات الرابطة تجد طريقها نحو الجامعة العربية ، بدأت صلاتنا مع الشخصيات السياسية

المصرية والعربية عموما تتقوى فنسمع صوتنا الذى كانت العقلية العربية المحدودة الأفق تجهضه . وكان محمد بن عبود من الجرأة بحيث لا يعير وزنا لمنصبه الرسمى ، حتى ضاق الإسبانيون بنشاطه مع الرابطة ، وما بعد الرابطة ، ذرعا فألغوا البعثة المغربية لدى اللجنة الثقافية . ولكن الهدف الأكبر من وجود الشخصيتين المغربيتين تحقق .

وفد تونسى في مصر

تعزز الجانب المغربى ، وفكرة المغرب العربى بالذات بلجوء جماعة من المناضلين المنتمين إلى الحزب الحر الدستورى التونسى الذى كان يتزعمه الرئيس بورقيبة . كانوا من المناضلين البارزين فى تونس أثناء الحرب ، فلما هجمت إيطاليا على تونس كانوا ممن جاهروا بالعداء للحكم الفرنسى ، ولو أنهم لم يعملوا جهارا مع السلطات الإيطالية ، فلما انهزمت إيطاليا فروا من القمع الفرنسى ، إلى ألمانيا ، وككل العرب الذين وجدوا فى ألمانيا ساعة انهيار الحكم النازى أخذوا طريقهم - ولا أدرى كيف ؟ - إلى مدريد . انتهت الحرب . ووصل بورقيبة إلى القاهرة . وتمتنت صلاته مع عبدالرحمن عزام . وأقنع عبدالرحمن عزام الحكومة المصرية بقبول المناضلين التونسيين لاجئين إلى مصر . ومصر لم تكن تمانع فى أن يلجأ إليها أى عربى . بل إن أى عربى لم يكن

يسأل عن : جواز سفره ، أو حصة إقامته فى مصر آنذاك ، لا أدرى عن إهمال أو إكرام للعرب ، أو عدم دقة الأجهزة الإدارية . يكفى أن تسكن مصر ، فلا أحد يسألك بعد ذلك : من أنت ؟ ماذا تفعل ؟

وجاء الخمسة المناضلون التونسيون : الدكتور الحبيب ثامر ، الطيب سليم ، رشيد إدريس ، حسين التريكى ، الهادى السعيدى . استقبلناهم نحن والرئيس بورقيبة - بالأحضان ، ونحن نعتبر أن النشاط السياسى من أجل المغرب العربى سيتعزز . حيويتهم ونشاطهم لم تحد منهما سنوات الهزيمة السياسية ، والخوف من الإدارة الفرنسية وقد عادت إلى تونس بعد الهزيمة الإيطالية فى الصحراء الليبية ، والخوف من مطاردة الحلفاء الذين كانوا يتتبعون كل من كان له نفس مع المحور . ولكنهم لم يتعرضوا لمحنة فى مدريد ، وقد وقف «الحلفاء» من حكومة فرانكو موقفا معتدلا فلم يتعرضوا لحكمه - وقد كان من نوع الحكم الهتلرى الموسولينى - بأذى ، بل فتحوا مع مدريد صفحة جديدة كبوابة من أبواب أوروبا المستقبل . ولذلك لم يصب اللاجئون العرب - ومنهم الوطنيون التونسيون - بأذى حتى تمكنوا من اللجوء إلى القاهرة .

فتحوا «مكتب الحزب الحر الدستورى التونسى» فى مقر بشارع ضريح سعد رقم ١٠ - وسيصبح هذا المقر أشهر مركز نشاط سياسى فى القاهرة - كان لهم مسكن مؤقت ومكتب . وبدأ تعاونهم فى العمل

السياسى مع «رابطة الدفاع عن مراكش» يأخذ طريقه الواضح . كانوا من المرونة والود بحيث يستطيعون أن يستفيدوا من التجربة ويتعاملوا بلباقة مع الحزبين ، ونشأت بيننا علاقة تفاهم ، ووحدة فى التفكير المستقبلى ، من أجل المغرب العربى ، وتناسق فى خطة العمل فى الأفق العربى وكانوا السند الفعال للحبيب بورقيبة . الذى كان يعتبرهم من أخلص مناضلى حزبه ، يثق فيهم ، ويترك لهم الاستمرار فى العمل الذى بدأه . وتفرغ هو لجولات يقوم بها فى الوطن العربى لإشعار الحكومات العربية - فى الدول المستقلة - بقضية تونس ، وبقوة زعامته وفرادة عمله ونضاله ، بعد أن اقتنع - بالتجربة - أن حكومات البلاد العربية لا تكاد تعرف موقع تونس من الخارطة العربية ، وموقع زعيمها فى النضال الاستقلالى .

سادس المناضلين التونسيين اللاجئين إلى القاهرة كان يوسف الرويسى ، ومركزه السياسى فى الحزب كان فى الصفوف الأولى بعد الدكتور الحبيب ثامر . كان أكثرهم حماسا وأوسعهم فكرا . ولو أن الدكتور ثامر . كان أكثر منه ثقافة وقدرة على التدبير والتفكير الهادىء والعمل الصامت المنظم ، وأوسع حيلة وأهدأ أعصابا . لم يلجأ إلى القاهرة ، ولكنه اختار دمشق . ودمشق كانت تفور آنذاك بأفكار القومية العربية ، وحماسها للاستقلال ، الذى تأكد فى معركة الشارع والبرلمان، يمنح المناضلين مزيدا من الحماس والحيوية والإيمان بالمصير المشرق.

وفد الجزائر

فى نهاية الحرب احتفلت فرنسا بيوم النصر ، واحتفلت فى الجزائر كنموذج لاحتفالات «الامبراطورية» التى عادت مع تحرير فرنسا من قبضة النازية ، وكانت مقرا لحكومة ديجول المؤقتة ، قبل أن تزحف قوات الامبراطورية الفرنسية – مع قوات الحلفاء – لاحتلال إيطاليا وألمانيا والقضاء على النازية . وحينما يحتفل الجزائريون بالنصر بطريقتهم الخاصة ، ويرفعون شعارات الحرية والاستقلال لم يكن ذلك مما يرضى قوات الاحتلال الفرنسى ، فتوجهت بقايا مدافعهم ورشاشاتهم إلى صدور الجزائريين . تلك فرصة للتعبير عن عدم هزيمة الجيش الفرنسى على خط ماجينو ، وفتح أبواب باريس – مدينة مفتوحة – فى وجه جيش الغزاة النازيين . فى مدينة «سطيف» سقط خمسة وأربعون شهيدا وشهيدة – قالت الأرقام – وكانت مذبحة شهيرة فى تاريخ النضال الجزائرى ، فتحت – بعد ذلك – الطريق للنضال المسلح فى وجه «جبهة التحرير الجزائرى» . وقد كانت القاهرة المقر النضالى لها بعد سنوات قصار من مذبحة سطيف .

بعد المذبحة أخذ مناضل شاب فى صفوف حزب الشعب الجزائرى طريقه إلى القاهرة . جاذبية القاهرة لا تزال تستقطب المناضلين من

شرق وغرب . كان لقاؤه الأول مع رابطة الدفاع عن مراكش . وكان الشاذلى المكى حزينا كئيبا تطبع المأساة ملامح وجهه الجميل . حديثه المتحفظ يوحى بالرعب الذى تجذر فى نفوس المناضلين . أوحى إلينا كتمانه بالكثير مما لم توح به إلينا تصريحاته . لم نستفد الكثير من المعلومات . المأساة لا تمنح أخبارا ومعلومات ، ولكنها تمنح حقيقة واحدة هى عشرات الآلاف من الشهداء . ولم يكن الإعلام الخارجى أنذاك ليذيع أخبارا عن مأساة سطيف تنبئ بالخبر اليقين ، كما أن الأخبار التى وردت من المغرب لم تشر إلى حقيقة معركة المطالبة بالاستقلال ، ولا الأخبار الواردة من تونس تفضح المعركة التى وقعت بين الإيطاليين والفرنسيين والضحايا من التونسيين عند القضاء على الاحتلال الإيطالى لصالح عودة الاحتلال الفرنسى .

وكان الشاذلى المكى العنصر الذى أكمل حلقة المغرب العربى فى القاهرة . سبقته إلى العمل فى القاهرة شخصية أخرى : الفضيل الورتلانى . وكان زعيما وحده ، لم نستطع أن نربط معه صلة عمل ، ولا كان له عمل منظم رغم قدرته الفائقة على التحرك واختراق الآفاق وارتياد المجتمعات والخطابة والإقناع بأن الجزائر عربية مسلمة تتكلم العربية الفصيحة المؤثرة . وقد رمى به التيار إلى مغامرات عربية مفردة أشهرها مشاركته فى الثورة الأولى الفاشلة على الإمام يحيى ملك

اليمن . وفر في باخرة لا ندري من أي ميناء ، ولكن أي ميناء من موانئ المنطقة لم يقبل أن ترسو فيه الباخرة ، لأن بها شخصية مطاردة هي شخصية فضيل الورتلاني . ظل مطاردا حتى رسا لا أدري أين ؟ وحتى وافته المنية بعيدا عن الجزائر وعن مصر ، ولكني لا أتذكر أين ؟

كان شخصية فريدة . ولكنه ملئ بالأسرار يميل إلى العمل الفردي أو مع جماعات تعمل في السر . ولعل عمله السري هو الذي مهد له الطريق إلى اليمن .

كانت اتصالاتنا جميعا تتجه نحو العمل المشترك . كل منا ينتمي إلى قطر من أقطار المغرب العربي ولذلك بدأ تفكيرنا يتجه نحو مؤتمر نبلور فيه أفكارنا .

مؤتمر المغرب العربي

كان علينا أن نفكر في مناهضة الفكر الاستعماري الفرنسي . فكان اسم «المغرب العربي» يقابل شعار «الاتحاد الفرنسي» وكان من منطلقات فكرة «وحدة المغرب العربي» في النضال وبناء الاستقلال المنطلق مناهضة أحلام الجنرال ديجول .

تولدت الفكرة من رحم «رابطة الدفاع عن مراكش» قد تكون أدهشت المجموعة التونسية ، التي كانت تعمل تحت اسم «مكتب الحزب

الحر الدستورى التونسى» . وقد تكون جديدة أو شبه جديدة على حزب الاستقلال الذى تنتمى إليه مجموعة رابطة الدفاع . ولكن الفكرة فى محيطها العربى ، الذى كان يعج بالأفكار القومية ، كانت مغرية ، وضرورية لنضال مشترك بين المغاربة والتونسيين والجزائريين .

فى جلسات دراسية جادة اتجهنا إلى العمل المشترك بدلا من العمل تحت اسم الرابطة ، أو الحزب الدستورى التونسى ، أو حزب الشعب الجزائرى . ولم يكن العمل المشترك سهلا ، ولا التضحية باسم الحزبين عملا سهلا ، ولكن الفكر النير الذى كان يحدو المناضلين المغاربة جميعهم ، والفرصة النادرة التى يوحى بها العمل العربى الجماعى فى ظلال الجامعة الناشئة ، جعلنا نتغلب - داخليا وخارجيا - على جميع الصعوبات التى كان يطرحها العمل المشترك . وفكرنا فى عقد مؤتمر المغرب العربى .

استدعينا يوسف الرويسى من دمشق لينضم إلى اللجنة التحضيرية. وجدناه أكثر حماسا وأقوى اندفاعا مما ظننا . ويبدو أنه تخلص من العزلة التى عمل فى دائرتها فى دمشق ، كان يفكر ويعمل وحده ، فى وسط أكثر تحمسا للعروبة . ولكنه وجد نفسه فى القاهرة بين المغاربة والتونسيين والجزائريين . ولعله كان يشعر بالحرية فى التفكير والبوح أكثر مما لو كان مع زملائه التونسيين . ولعله من أجل

ذلك اختار العمل في دمشق ، حيث التحرر من الفكر الحزبى بين زملائه الذى كان يعتبرهم دونه في التفكير السياسى إلا الحبيب ثامر . لازالت أذكر طفرات السعادة على وجهه ونحن نؤكد أن المؤتمر يجب أن يقرر المطالبة باستقلال الجزائر ، ويجب أن يقرر وحدة المغرب العربى إلى الأبد .. كان يكرر : إلى الأبد ... وتعلو ضحكاته ، وكأننا انتصرنا - فعلا - فى تحقيق الهدف . كلمة استقلال الجزائر كانت حلم مراهقة ، فلا أحد كان يلفظ بالكلمة إلا الذين لا تتعدى أحلامهم ساعات نومهم .

اختارنى زملائى كاتبا عاما للمؤتمر الذى تقرر انعقاده أيام ٢١ - ٢٢ فبراير ١٩٤٧ واختار مكتب الحزب الدستورى التونسى (١٠ شارع ضريح سعد) مقرا لانعقاد المؤتمر . وقررنا أن تكون الرئاسة الشرفية لأمين الجامعة العربية : عبدالرحمن عزام . وبذلك نضمن - إذا قبل - أن يرأس الجلستين الافتتاحية والختامية وستكون جلستان عموميتان .

كان على أن أقدم المؤتمر بخطاب فى الجلسة الافتتاحية . وحضرها إلى جانب الرئيس الشرفى - مجموعة كبيرة من السياسيين المصريين والعرب الوافدين على مصر وممثلين للحركات الإسلامية ، من جمعية الشباب المسلمين وجماعة الإخوان المسلمين ، وعلى رأس الأولين

الدكتور عبدالحميد سعيد ، وعلى رأس الآخرين الشيخ حسن البنا .
وكان من بين الحاضرين مع أساتذة الجامعة الأستاذ أحمد أمين عميد كلية الآداب ، ونخبة مهمة من رجال الصحافة ، ومن المناضلين العرب .

في تقديمي للمؤتمر قدمت قضية المغرب العربي ونضاله من أجل الاستقلال . شعار المغرب العربي أخذ طريقه منذ هذه الجلسة كمفهوم جديد لشعوب (لم يكن أحد يعتبرها دولا) شمال افريقيا . وارتبط نضال المغرب العربي منذ اللحظة بنضال المشرق العربي ، وكانت دوله تناضل لاستكمال الاستقلال وجلاء قوات الاحتلال . وتحدثت عن مأساة تونس ، وكان نفي الباي محمد المنصف أحد معالم النضال التونسي ، وعن مأساة المغرب ، وكانت المطالبة بالاستقلال وبعودة بطل حرب الاستقلال في الريف محمد بن عبدالكريم الخطابي أحد معالم النضال بالمغرب ، وعن مأساة الجزائر ، وكانت مذبحة سطيف أحد معالم النضال الجزائري من نير الاستعمار الفرنسي .

عزام يتحدى منصبه في افتتاح المؤتمر

وافتتح الرئيس الشرفي عبدالرحمن عزام المؤتمر بخطاب تحدى فيه منصبه الرسمي كأمين عام لمنظمة دولية إقليمية ، وتحدى الظروف الدولية التي تجعل كل تجاوز لمنصب الأمين العام يثير ضد المنظمة كثيرا من الصعوبات ، خاصة من دولة خرجت منتصرة من الحرب .

ولها مع مصر علاقات طيبة . والجامعة العربية فى عرف العالم الدولى آنذاك هى مصر . ولكن عزام تخطى كل هذه الظروف ليستنكر السياسة الفرنسية فى أقطار المغرب العربي بما فيها الجزائر التى تعتبرها فرنسا جزءاً من الوطن الفرنسى ، وليطالب العالم الدولى بالاعتراف بالحقوق الشرعية التى تطالب بها شعوب المغرب العربى . وكان المنطق الذى تحدثت به فى خطاب الافتتاح ، والجرأة التى تحدث بها الأمين العام باعثا لكثير من صفوة المشاركين أن يحيوا المؤتمر بكلمات تسير فى الاتجاه نفسه . وكان فى مقدمتهم الأستاذ أحمد أمين الذى أيد نضال شعوب المغرب ، وأكد ضرورة التخلص من ربقة الاستعمار لبناء ثقافة عربية إسلامية تبعث من جديد الثقافة المزدهرة التى عرفها المغرب العربى فى عصور ازدهار البلاد العربية الإسلامية فى المشرق والمغرب .

كان المؤتمر فرصة لمناقشة كل القضايا المغربية ولبلورة قرارات جريئة فى مقدمتها : الاستقلال التام لكل من تونس والجزائر والمغرب . وتوحيد المغرب العربى لبناء مجموعة متكاملة اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا ، وانضمام دول المغرب للجامعة العربية كأعضاء ذات سيادة كاملة . كما قرر المؤتمر إلغاء المنظمات المنفردة وتكوين منظمة مشتركة : مكتب المغرب العربى .

وكان قرار استقلال الجزائر أكثر القرارات إثارة فى المحافل الفرنسية ، التى استنكرت سفارتها خطاب عبدالرحمن عزام ، كما استنكرت أن يصدر عن مؤتمر يعقد فى القاهرة ويلقى حضورا مكثفا فى جلسته الافتتاحية والختامية تحت رياسة عبدالرحمن عزام الذى أكد فى خطاب الختام أن المغاربة الذين عقدوا المؤتمر يتحملون مسئولية قراراتهم ، وأنه يؤيد كل خطوة لتحقيق الحرية والاستقلال لهذه البلاد .

تلقى المؤتمر عشرات من برقيات التأييد من الأحزاب والهيئات الوطنية فى الأقطار الثلاثة . وضمنا بذلك أننا نسير فى نفس الخط الذى رسمته أحزابنا ، ولو أننا لم نستشرها فى عقد المؤتمر وفى قراراته . ولكنا كنا نعرف أننا نسير فى الاتجاه نفسه .

لم يكن الحبيب بورقيبة فى القاهرة آنذاك . كان فى رحلة طويلة بالبلاد العربية المشرقية . ولعل الحبيب ثامر كان يعمل فى الخفاء حتى ينعقد المؤتمر فى غيبته . وحينما عاد وأطلع على مراحل «الانقلاب» الذى حدث كان يبتسم وهو يناقشنا فى الحساب :

– المطالبة باستقلال الجزائر ؟ يا رسول الله . هذا كثير . الوقت لايزال طويلا .. ونحن فى تونس لم نطالب بعد بالاستقلال التام . إننا نطالب بالاستقلال الذاتى .... تجاوزتم مخطط الحزب الدستورى ...

كان الحبيب ثامر يبتسم وهو يقدم له الموضوع كما لو كانت القرارات قد تجاوزته ، وأنه كان مدفوعا بحماس المغاربة والجزائريين . ومع ذلك لم يثر في وجهنا . وكنا ننتظر أن يثور . ولعله لم يقدر خطورة القرار الذى تجاوز منطقه السياسى : العمل خطوة ، خطوة . أو بأسلوبه : خذ وطالب ... ومع ذلك كان مرتاحا فى داخل نفسه ، وإن اعتبر أن قرارات المؤتمر لا تعدو قرارات حماسية أملتها ظروف لا يلزمه حماسها . وأعتقد أن فكرة الاستقلال تعمقت بجذورها فى نفسه منذ مؤتمر المغرب العربى ، فلم يعد يفكر فى الاستقلال الذاتى إلا كلفة لحوار خصومه محاولة للوصول إلى الإقناع .

مكتب المغرب العربي

وبدأ مكتب المغرب العربى يعمل فى مقره ، ١٠ شارع ضريح سعد . بديلا عن الهيئات الثلاث .

كان المكتب أكثر من سفارة ، سواء بالنسبة للسياسيين العرب الذين تابعوا أكبر نشاط سياسى جماعى عرفته المنطقة ، أو بالنسبة للسياسيين والملاحظين الأجانب ، وسفاراتهم فى المقدمة ، الذين كانوا يتابعون النشاط التحررى الوحدوى المغربى من خلال التطور السياسى والفكرى الذى عرفه العرب بعد الحرب الثانية ، أو من خلال الصحافة المصرية التى انطلقت انطلاقة كبرى فى طريق الحرية . بعد قيود

الحرب ورقابتها - التى تعرفت على مولود جديد في الخارطة العربية اسمه المغرب العربى ، يحظى باهتمام العرب ، والأجانب على السواء . كانت النشرة اليومية التى يصدرها تحظى باهتمام الصحافة ، ومصادر النشرة كانت الرسائل والتقارير التى تفد من المغرب والجزائر وتونس . وتعتمد النشرة على تحليل الأخبار ، وتوضيح الحقائق التى تشير إليها - على قلة - وكالات الأنباء الأجنبية وكانت النشرة تجد لها مكانا بارزا فى الصحف المصرية والسورية ثم اللبنانية . وقد اتسع نطاق هذه الكتب الصغيرة - التى كانت توزع فى البلاد العربية جميعها - فشملت المغرب العربى ، واتسعت دائرة أبحاثها فصدرت كتب متخصصة منها «هذه مراكش» كتبه عبدالمجيد بن جلون و«هذه تونس» كتبه الدكتور الحبيب ثامر .

اتسعت دائرة العمل الإعلامى الاتصالى فتوافد على المكتب عدد كبير من السياسيين والعلماء وأساتذة الجامعة والباحثون الذين اتجه كثير منهم - جامعيون وغير جامعيين - نحو إنجاز رسائل جامعية أو بحوث سياسية عن المغرب العربى . وكانوا يجدون فى مكتبة المكتب بعض ما يهمهم الإطلاع عليه . وأذكر أن لجنة التأليف والترجمة والنشر، وكانت تهتم بالجانب الثقافي العلمى كونت وفدا على رأسه الأستاذان : أحمد أمين رئيس اللجنة والدكتور أحمد زكى لزيارة

المكتب والتعرف على الأوضاع السياسية والثقافية فى المغرب العربى . وكل العلماء الذين كانوا يفدون من سوريا على مصر - مثلا- كانت زيارة مكتب المغرب العربى فى مقدمة عملهم . أذكر منهم الشيخ عبدالقادر المغربى والأستاذ كورد على وكانا من العلماء المرموقين .

الجامعة العربية كانت تستشير المكتب كلما تعرضت لقضية تتصل بالمغرب . وكانت على صلة به فى الجهود ، التى أصبحت كبيرة فى الإلحاح على فرنسا - إسبانيا لتغيير سياستهما فى المغرب العربى بالاتفاق مع السلطة الشرعية ، ومع الهيئات السياسية التى تمثل شعب المغرب العربى . واعتمدت المكتب كمخاطب ، شبه رسمى ، فى كل ما يتصل بهذه البلاد ، رغم أنها جامعة دول . وكانت تعتمد المعلومات والتقارير التى يقدمها للأمانة العامة . وخصصت له مساعدة مالية - متواضعة ولكن مجزية - لسد بعض نفقات التسيير ، التى تعتمد على المخصصات التى تقدمها الأحزاب السياسية وخاصة حزب الاستقلال من المغرب والحزب الحر الدستورى من تونس .

كان للحبيب بورقيبة مكتب خاص فى المكتب . ولكنه لم يكن يتدخل إلا من خلال الأعضاء التونسيين فى سير العمل . وجوده فى مصر مكنه من نشاط قوى لصالح تونس . فى نفس الفترة استقبل المكتب عبدالخالق الطريس ، رئيس حزب الإصلاح الوطنى فى شمال المغرب .

تعزز جانب المكتب بهذه الشخصية الوطنية التى كانت معروفة على المستوى العربى والسياسى والمصرى . وكانت مواهبه السياسية وقدرته على الخطاب وحديثه المقنع مفاتيح كثير من الآفاق المغلقة . كان الصحفيون يجدون فيه المحدث الذى يدلى بالجديد فى أحاديثه الصحفية وكل قضايا المغرب العربى جديدة آنذاك ، غير مستهلكة فى السياسة العربية - وكانت المجلات الثقافية - مجلة الثقافة مثلا - تطلب إليه أن يكتب لها مقالات عن جوانب معرفية من المغرب العربى .

محمد الخامس يعمل لتغيير سياسية القمع الفرنسي

عرفت سنة ١٩٤٦ تفتحا سياسيا - نسبيا - فى المغرب . زار محمد الخامس فرنسا بعد تحرير باريس سنة ١٩٤٥ بدعوة من الرئيس ديجول . كان هذا القائد المحرر معجبا بمحمد الخامس كسلطان متفتح له آفاق بعيدة المدى . وكان يعترف له بمواقفه الشجاعة فى الحرب ، فقد ظل مخلصا لقضية الديمقراطية . ورغم احتلال ألمانيا لفرنسا ، وإنشاء لجنة اتصال ألمانية فى المغرب ظل محمد الخامس بعيدا عن أن يتعامل مع هذه اللجنة . وكان يصر على عدم تنفيذ القوانين والقرارات العنصرية التى تطبقها حكومة فيشى فى فرنسا ، وترغب فى تنفيذها بمستعمراتها وبلاد الحماية (المغرب وتونس) وحينما نزل الحلفاء (القوات الأمريكية) فى الشواطئ المغربية الأطلسية (الدار البيضاء)

سنة ١٩٤٢ تمهيدا للقفز من المغرب إلى أوروبا قرر المقيم العام (الجنرال نوجيس) - الذى كان يحكم تحت إمرة حكومة فيشى - أن يقاوم القوات الأمريكية وطلب من السلطان أن ينتقل من الرباط - التى اقتحمتها القوات الأمريكية - إلى مدينة فاس ليتخذها عاصمة للدولة ، ومنها يعلن مقاومة القوات الأمريكية فأبى محمد الخامس . رفض أن يعرض شعبه لحرب مدمرة وبلاده لصراع قوات ماحقة . لهذه الصفات ولأن الجيش المغربى حارب إلى جانب الجيشين الفرنسى والأمريكى لتحرير أوروبا ، اعتبره الجنرال ديجول رفيق الكفاح من أجل الحرية . واستدعاه ليكون أول رئيس دولة يزور باريس - زيارة رسمية - بعد تحريرها .

وكان من الرغبات التى أعرب عنها السلطان لرفيقه الجنرال أن يغير من سياسة فرنسا الاستعمارية فيفرج عن الزعماء المبعدين والمعتقلين ، ويخفف من الضغط على الحريات السياسية ، ويفتح آفاق التعليم أمام الشباب المغربى . كل ذلك فى انتظار الوقت الذي يجب أن يبحث الموضوع الذى تضمنته عريضة المطالبة بالاستقلال التى قدمها حزب الاستقلال لجلالته وللسلطات الفرنسية وسلطات الحلفاء . وقد أدرك الجنرال ديجول أن السلطان غير راض عن شخصية المقيم العام الفرنسى كابريال بيو وعن سياسة القمع التى سلكها .

انفتاح سياسي وتجذير الاستعمار الاقتصادي

تعهد الجنرال دوكول بتغيير السياسة والمقيم العام دون أن يفكر ، أو يتحدث ، عن عريضة الاستقلال . فإن فرنسا لم تنط به مهمة تصفية إمبراطوريتها كما روى على لسانه .

وتغير المقيم «بيو» الذى حكم المغرب فى ظل الأحكام العرفية العسكرية منذ نزول الأمريكيين على شواطئ المغرب ، ولم يؤثر وجودهم فى المغرب على سياسة القمع التي كانت تسلكها السلطات الفرنسية معتبرين أن السياسة المغربية من اختصاص السلطات الفرنسية . ولم يكن المغرب إلا مطية لتحرير أوروبا من النازية . تغير المقيم العام ، واختارت الحكومة الفرنسية إريك لابون ، مقيما عاما سنة ١٩٤٦ ، وهو دبلوماسى اقتصادى يحترف السياسة ، ويمكن أن يأخذ من كل منهما ما يحقق نجاحه فى منصبه الجديد . وقد تعرف - عن بعد على سياسة وسلوك كل من المقيمين العامين الذين حكموا المغرب ابتداء من المرشال ليوطى حتى كابريل بيو ، ومنهم عسكريون وسياسيون تكونوا فى المستعمرات ، أو حاربوا المقاومة المغربية فى الجبال والسهول و[illegible]راء، وتعاملوا مع السلطان بسياستى اللين والشدة ، ومع الوطنيين بالقمع والعنف . وسيختار من سياسات كل هؤلاء ما يتفق مع

طبيعة الدبلوماسى والسياسى والاقتصادى فى آن . ومع طبيعة مرحلة ما بعد الحرب .

جاء إلى المغرب يحمل افكارا اقتصادية ذات طابع سياسى . ففكره نتاج حرب دمرت الاقتصاد الفرنسى . وفرنسا تبحث عن طرق جديدة لتحريرها من رواسب الحرب المدمرة . ولذلك كان مخططه يعتمد على تجذير الرأسمالية الفرنسية - رغم ميوله الاشتراكية فيما كان يزعم - فى الثروة الاقتصادية المغربية البكر . وخاصة فى المعادن والمصانع ، بعد أن سبقه آخرون بتجذيرها فى الأرض الفلاحية . وكان عليه أن يمهد الطريق للنجاح بالفوز برضى السلطان - كما لعل الحكومة الفرنسية أقنعته بذلك - وبالتخفيف من قمع الحريات بالإفراج عن القادة السياسيين المعتقلين ، وكان فى مقدمتهم علال الفاسى الذى قضى منفيا فى قرية مجهولة فى الجابون تسع سنوات ، ومحمد بن الحسن الوزانى الذى قضى مثيلا لها منفيا فى قرية «إيتزر» الصحراوية بجنوب المغرب وأحمد بلا فريج الذى قضى سنتين ونصف سنة منفيا فى كورسيكا ، بعد مطالبة الحزب بالاستقلال فى يناير ١٩٤٤ . واستجاب المقيم بيو لبعض مطالب الوطنيين بإصدار صحف إخبارية تحت طائلة الرقابة العسكرية التى فرضت بقوانين الحرب .

كان التفتح السياسى تمهيدا للسيطرة الاقتصادية . وما أدرى ما إذا كان أمل المقيم قد خاب فى الوطنيين الذين أفرج عنهم وفى

حزب الاستقلال بالذات وهو يتحدث إليه - محاولا الإقناع - عن التطور الاقتصادى الذى سيعود على المغرب - مهما تكن الجهة التى تستفيد منه وتتحكم فيه - بالخير العميم ؟ ولكن الذى تأكد لديه أن الوطنيين كانوا أكثر إدراكا لمصالح بلادهم ، وأنهم يعرفون أن تجذير الرأسمالية الفرنسية فى مصادر الثروة المغربية هو ، فى النهاية ، قطع الطريق على استقلال المغرب ، وربط الاستعمار بمصالح المستعمرين فى الجانب المعدنى والصناعى بالمغرب ، كما ربطت بمصالح المستعمرين للأرض .

وتبين للدبلوماسى الحصيف الذكى أن التيار مقطوع بينه وبين الوطنيين .

زيارة الملك لطنجة ، النقطة التي أفاضت الكأس

بقى أمله الأكبر معلقا بالتيار الذى كان يربطه مع السلطان محمد الخامس ، وكان السلطان يملك حسا وطنيا عميقا ، وأسلوبا دبلوماسيا متميزا ، وابتسامة ساحرة طيبة تفتح فى وجهه الأبواب المغلقة ، ما لم يتجاوز محدثه حدود الممكن لتختفى الابتسامة عن وجه صارم مغلق ، وعناد غير صادم . أراد السلطان أن يحقق أمنية طالما راودته هى أن يؤكد وحدة بلاده التى مزقها الاستعمار تحت سلطانه وأن يزور منطقة الشمال - وبالأخص طنجة - من مملكته . كان قد تعرف فى سنوات

حكمه على مختلف أنحاء المغرب الذى تحتله القوات الفرنسية ، ولكنه لم يزر الجزء الشمالى الذى تحتله إسبانيا ، ولا طنجة التى تحتلها القوات الدولية . والطريق إليها يمر ببعض المناطق التى تحتلها إسبانيا تحت السيادة الرسمية - الاسمية - لخليفته على منطقة الشمال . ولم يقبل أن ينتقل إلى طنجة عن طريق البحر ولا الجو حتى يخترق منطقة الشمال برا ويتصل بسكانها . ولم يجد الدبلوماسى - السياسى بدا من الموافقة على تحقيق هذه الرغبة . وقد استشار حكومة باريس فتركت له حرية التصرف .

طنجة تقع تحت النفوذ الدولى . ولكن الدول الثمانى التى كانت تدير الحكم فيها كانت تعترف لفرنسا بالمركز المتميز باعتبارها تحتل معظم مناطق المغرب . ولذلك كانت السياسة الفرنسية هى التى تتحكم فى سير الأعمال رغم أن الحاكم (رئيس الحكومة) كان يتناوب من بعض دول الاحتلال . فسيكون السلطان إذن - وهو يزور طنجة - تحت الرقابة الفرنسية .

غير أن السلطان أراد من هذه الزيارة أن يطل من نافذة طنجة على العالم ، وأن يخاطب العالم ، الذى لا يعرف عن المغرب إلا أنه مستعمرة فرنسية إسبانية ، بآمال الشعب المغربى . وأن يؤكد للعالم أن الحماية الفرنسية والإسبانية والدولية لم تفقد المغرب سيادته ممثلة

في ملكه . وأراد منها حزب الاستقلال ، وقد تكفل بتنظيم الزيارة شعبيا ، أن يجعل من الزيارة حدا فاصلا بين الاستعمار ، الذى مزق وحدة المغرب إلى مناطق متباعدة ، والاستقلال والوحدة وقد أصبحت مطمح آمال الشعب المغربى . حققت الزيارة المخطط الذى وضعه السلطان وهو يمر بمنطقة النفوذ الإسبانى . أكد بذلك وحدة المغرب والاجتماع بخليفته فى الشمال الذى جدد الولاء والعمل ضمن السيادة الموحدة . ثم حقق مخططه وهو يتصل بأبناء شعبه الذى حج من مختلف أنحاء المغرب . استمع إليه يخطب ويؤكد آمال المغرب في مستقبل مشرق - وكان يشير إلى الاستقلال دون أن يلفظ بالكلمة . وأكد ربط المغرب بالمشرق العربى والأمل فى أن يتحقق هذا الارتباط عن طريق الجامعة العربية . وبذلك نسف كل المخطط الاستعمارى بالإبقاء على المغرب فى ظل الاتحاد الفرنسى : هوية ولغة واقتصادا وإدارة . وحقق مخططه أيضا وهو يجتمع - كملك يتمتع بكامل السيادة - بممثلى الدول التى تحكم طنجة الدولية فيتحدث لهم عن مغرب المستقبل لا عن مغرب الحاضر . ثم حقق مخططه فى تدشين المشاريع التعليمية والاقتصادية ، التى أكدت - رغم بساطتها - ربط طنجة ببقية أنحاء المغرب .

وحقق حزب الاستقلال مخططه وهو يحشد مئات الآلاف من المواطنين من مختلف أنحاء البلاد لتعيش أياما متميزة تتحرر فيها من

النفوذ الفرنسى والإسبانى والدولى ، وترتبط بسلطانها الذى يمثل السيادة الكاملة . لم يستشر السلطان المقيم العام فى أى من تصرفاته وخطبه وتصريحاته للصحافة الدولية التى تابعت الحادث المتفرد فى تاريخ المغرب الحديث .

كان مكتب المغرب العربى حاضرا . وكانت القاهرة حاضرة - على بعد الدارين - فى هذا الحدث الذى يعتبر منعرجا كبيرا فى العلاقات الفرنسية المغربية . وقد فتح الحدث بحق الطريق نحو تحقيق الاستقلال . ومكتب المغرب العربى تأهب للزيارة فوجه بعض الصحف لأن ترسل مبعوثيها إلى طنجة لتغطية الحدث الكبير . وأصدر نشرات متميزة عن طنجة فى وضعها الدولى ، وعن دلالة الزيارة الملكية . وما يمكن أن تحققه من خطوات نحو مستقبل المغرب .

وضعت تغطية الرحلة فى الصحف المصرية القراء العرب والسياسيين والجامعة العربية فى الصورة الحقيقة عن المغرب النابض بالعمل للاستقلال والوحدة والارتباط بالمشرق العربى وبجامعة الدول العربية . وذلك يعنى إرادة الاستقلال . وكانت تغطية الصحف المصرية المصدر الأول لكل الصحافة العربية بدلا من الوكالات الأجنبية فتعرف المشرق على المغرب من خلال زيارة طنجة كما لم يتعرف من قبل .

اغتيل المشروع الفرنسى لتدعيم الاستعمار الاقتصادى بزيارة طنجة فقررت الحكومة الفرنسية التنكر لسياسة الدبلوماسى محترف السياسة وتغيره بالمرشال جوان . وكانت سياسة المرشال جوان بداية النهاية للوجود الفرنسى فى المغرب . وتلك قصة أخرى .

علال الفاسى في القاهرة

وفى ليلة من ليالى شتاء القاهرة كان زعيم من زعماء المغرب ، وقد تخلص من أسر دام تسع سنوات ، يطوف بسيارة أجرة في حوارى وشوارع مظلمة ، وهو يطلب من سائق السيارة أن يصل به إلى عنوان غامض لم يحفظه جيدا . ولم يهتد سائق السيارة إليه فى حى مقفر لم يكن يسكنه إلا قليل من الموظفين والطلبة ، هو حى «الدقى» كما كان في ذلك الزمان . ولم يصل إلى العنوان المطلوب فبات ليلته فى فندق متواضع .

فقد امتطى علال الفاسى أول طائرة وجدها تطير من مطار أورلى بباريس نحو الشرق عن طريق القاهرة . وكان فى باريس – وقد سافر إليها بعد أن ضاق حوله نطاق المراقبة والمتابعة بعد زيارة الملك إلى طنجة ، وتحسبا من أن يقوم بنشاط سياسى جديد بعد نفى سحيق . لم يطق الحصار من جديد فى مدينة فاس ولا فى مدينة الرباط ، فسافر

إلى باريس ، وهو يسر فى نفسه أن «يهرب» منها إلى القاهرة . كانت السياسة الفرنسية قد أخذت على غرة ، وسيكون الزعماء - وفى مقدمتهم علال الفاسى - أول ضحاياها . ومن الخير للمغرب ولسياسة حزب الاستقلال أن يبتعد عن ملتقى أضواء هذه السياسة الفرنسية الانقلابية .

نزل علال الفاسى ليلا فى مطار القاهرة ، بعد أن غافل الشرطة الفرنسية التى كانت تراقبه فى باريس ، فلم تعرف أنه غادر الفندق إلا بعد أن تناقلت الأخبار أنه حل بالقاهرة . قالت أخبار باريس إنه فر من متابعة الشرطة . ورددت أخبار أخرى : فر من متابعة القضاء . كان الهدف التأثير على السلطات المصرية أن تطرده . ولكنها لم تكن لتفعل . كان ١٠ ضريح سعد ، أشهر عنوان سياسى فى القاهرة . فقصده علال الفاسى فى الصباح .

دخلت المكتب متأخرا قليلا ليلقانى الهادى السعيدى فى الباب ، وكان أول من يصل إلى المكتب فى الصباح الباكر ، وهو يوجه لى شبه لوم عن تأخرى بعد أن وصل «الأستاذ الفاسى» .

تساءلت فى نفسى : من يكون الأستاذ الفاسى ؟

ولم أكد ألقى السؤال حتى اصطدمت عيناى بالرجل .

تفرســت في الوجـه الصبـوح فـاقـتـحـمتنى العـينان الزرقــاوان بنظــراتهـمـا الذكيــة تطــل منهـمـا الابتـســامة العذبة . لم يكن فى حـاجــة إلى اســترجـا ع الذاكــرة ليـتـعـرف على الوجـه الذى طبـعت مـلامـحـه الجديدة سنـوات الغـربة والحــرب والإجـهـاد . لم أكن فى حـاجـة إلى اسـترجـا ع الذاكرة لأتعــرف على الوجــه الذى غـيـرت ملامحه سنوات المنفى والغــربة والوحدة والحزن الممـض لفراق الأب ، إلى الأبد ، والزوجة والرضيع والوطن وأصدقاء النضال ....

وكان عناق الشوق والود والصداقة . وكان الأستاذ الذى تطفر من عينيه سعادة اللقاء مع طلبته ، يحقق الحلم الذى راودنا ، وهو حى فى المنفى ، وغاض من مشاعرنا . وأخبار المنفى تشيع أنه مات . وأخبار الموت فى زمن الحرب لا تثير فضولا إلا فى أب فقد ابنه أو عاشقة فقدت عشيقها أو مريدين فقدوا رائدهم ...

جلست بالقرب منه - وقد استعدت بساطتى - كما كنت تلميذا سـاذجـا أجلس إليـه قـبل سنوات وهـو يلقننا العلم والوطنيـة ومـفـهـوم السياسة ... لم يتحدث عن المنفى والغربة وشقاء العزلة . كان يتحدث عن الوطن ، عن مـشـاكله ، عن النضـال الذى ينتظرنا ، يســأل : عن العمل الذى تقوم به (الثلة التى فـارقـهـا قـبل عـقـد من السنين) فى القاهرة، فى البلاد العربية . يعجب بطموحنا - لم يكن من قبل يعجب بواجب وطنى يقوم به طلبتـه ومريدوه - كـان يتطلب المزيد ، يعـتـبـر

النضال واجبا لا يشكر عليه فاعله . رأيت فى عينيه نفس العزم ، نفس الأمل . نفس الإيمان بالمستقبل . بحثت عن سنوات النفى فلم أجد غير امتلاء فى الوجنتين والجسم ، وتصميم فى لغة الحديث وسخرية من العقلية الاستعمارية التى تطورها الحرب ، ولم يغير من ملامحها الاحتلال ، ولم تدرك أن الشعوب أصبحت غيرها قبل الحرب ، شعوبا تطفح بالحيوية والإرادة والإيمان بالمستقبل . كان حديثه عن الحرب حديث الرجل الذى يجهل كل تفاصيلها . كان يراد من العزلة القاتلة - حتى عن كتاب يذكره بأنه قارىء - أن تفرغه من هويته وشخصيته . وما دروا أنه كان يملك فكرا يفكر ويختزن ويخطط - دون قلم وورقة - ولو حرم من أهم أخبار العالم : الحرب ... السلم ... عاش فى «مويلان» القرية المهجورة التى لم يكن يعرفها حتى الونغوليون معزولا عن الإنسان، إلا عن خادم أبله شبه أخرس يتحدث بلغته القبلية فلا يتفاهمان إلا بالإشارة ، فى الساعة التى يقضيها الخادم فى مساعدته يوميا ، وإلا عن حاكم القرية الفرنسى الذى يمر بمكتبه صباحا ومساء ليثبت وجوده فى القرية ، وأنه لم يأخذ طريقه هاربا . لم يكن يعرف أين توجد «مويلا» من خارطة العالم ، فليس بمقدوره أن يفر من قبضتها لو أراد . لم يكن يتصل بأحد حتى زاره يوما المستعرب الفرنسى جاك بيرك ، وكان يعرفه ويعرف عنه وعن المغرب الكثير ، وقد اقتربت الحرب من نهايتها . كان المثقف الفرنسى يذكر بغبطة السنوات التى قضاها

فى المغرب حتى أصبح مغربى الفكر والهوى ، وفى الكونغو برازافيل علم – وهو يعمل تحت إمرة حكومة دوكول أثناء الحرب – أن علال الفاسى منفى فى القرية المهجورة فطلب زيارته وأذن له . أنس الرجلان وهما يتحدثان حديث الماضى فليس لمستعرب فرنسى أن يفكر فى مستقبل المغرب والحرب لاتزال تبحث عن مستقبل فرنسا . فارقه وقد تعهد بأن يبذل كل جهده ليفك عنه العزلة بكتب يرسلها والده من فاس تحت الرقابة الفرنسية فى المغرب وفى الكونغو على السواء . وكان منها ديوان شعر وبعض كتب المعرفة الإسلامية .

المنفى الطويل القاتل وضع الرجل أمام اختيار صارم . وحينما ارتأى دوكول أن يستغل شخصيته وزعامته فى تمهيد الطريق لعودة السلطة الفرنسية (فرنسا الحرة) إلى المغرب وتأييد حرب الاسترجاع بمساعدة جنود مغاربة يدعوهم علال الفاسى إلى ذلك لقاء الإفراج عنه ، كان جوابه للجنرال المحرر :

– شرط واحد هو الاعتراف باستقلال المغرب .

ورأى الجنرال دوكول أن المنفى زاد الرجل حدة وصرامة فى مطالبه. فأمر بإعادته إلى «مويلا» وكان قد أمر بنقله إلى برازافيل .

ذلك بعض حديث الرجل ، وهو يجد نفسه حرا – وفى القاهرة – بعد سنوات القمع القاتلة . كان يؤمن بأن العهد البغيض سينتهى بمقدار ما يؤمن بأن عهد الاستقلال قد اقترب . ويؤمن بأن النفى

الطويل كان ثمنا للحرية يحققها لبلاده ، وقد تحققت فى شخصه ، وهو زعيم بأن يناضل من جديد ليحققها لوطنه . وكان يعرف أن الاستعمار يجب أن يحاصر فى الداخل ومن خارج الوطن . لم يؤمن مطلقا بأن يقتصر النضال من الخارج ، الكفاح المجدى يبدأ وينتهى فى المواجهة الداخلية، وعلينا أن نحاصر الاستعمار من كل ركن يمكن أن نحاصره فيه حتى نقلم أظافره . ونضال القاهرة مرحلة لا تغنى عن العمل من الداخل ، ولكنها تسنده بالعمل الإعلامى فى البلاد التى تتمتع بحرية الإعلام ، وبتنظيم الرأى العام العربى ليكون مع المغرب فى كفاحه النضالى . مستقبل نضالنا يجب أن يكون فى إطار عربى إسلامى يسند عملنا ، وقد فقدنا السند من الذين انتصروا - بنا - فى الحرب العظمى الأولى والثانية . وهذه فرصتنا التى يجب ألا نضيعها ، بعد أن ضاعت عنا - وعن العرب والمسلمين أجمعين- فرصة الحرب الأولى .

وجدنا فى علال الرائد والموجه الذى كان قبل المنفى . وجدتُ فيه الحركة المغربية فى القاهرة الرجل الذى تستمع لحديثه الآذان وتفهم عنه العقول وتقتنع الأفكار . ربما كان مثال سعد زغلول لايزال حيا فى نفوس كثير من المناضلين المصريين ، ومن المتطلعين إلى ما بعد سعد ، والذى لم يجدوه فى كثير من الذين خلفوه فكانوا زعماء ومناضلين ، ولكن لم يكونوا سعد ، الذى يقنع بالمبدأ ، ويبهر بالفكر ، ويؤثر بالمنطق.

وكان أول نشاط علنى لعلال أن نظم المكتب ندوة صحفية استجاب

لها ممثلو الصحف المصرية والعربية ومندوبون عن الجامعة العربية والهيئات السياسية العربية والإسلامية وممثلو وكالات الأنباء الأجنبية .

وقف علال فى الندوة الصحفية ليقدم القضية المغربية فى ابرز عناصرها . فكان خطيبا بمقدار ما كان محللا ، وكان وطنيا بمقدار ما كان سياسيا ، وكان منظرا بمقدار ما كان ذا أفق واسع فى ربط القضية بالقضايا العربية والدولية . وتحدث طويلا عن سياسة الحكومة الفرنسية - وكان يرأسها السياسى الرادكالى الفرنسى السيد «رامادييى» باعتبارها سياسة متجمدة لم تنفتح لعالم ما بعد الحرب ، وتمثل بقول الشاعر :

ولو فى النار تنفخ لاستنارت ولكن أنت تنفخ فى رماد

واهتزت القاعة بالضحك للجناس اللفظى المعبر بين «رماد» و «رمادى»

شغل علال مكانه كزعيم للحركة الوطنية المغربية يناضل من القاهرة لمحاصرة الاستعمار الفرنسى . ولم يكن حصارا عربيا فحسب ، ولكن مركز مصر الدولى والإسلامى منحه مفهوم الحصار السياسى الواسع الذى كانت الحكومة الفرنسية تضيق به ، وسفارتها فى القاهرة تعتبره يهدم مركز فرنسا فى مصر . و كانت تعتز بهذا المركز قبل الحرب انطلاقا من الرهان الاستعمارى القديم بين فرنسا وإنجلترا فكسبت

إنجلترا الرهان الاستعماري ، وكسبت فرنسا -فيما كانت تظن - الرهان الثقافي والحضاري .

ثلاثة من قادة الحركة الوطنية المغربية أصبح لهم وجود فاعل في مصر ، واصبح إشعاعهم المتميز من مكتب المغرب العربي : الحبيب بورقيبة وعبد الخالق الطريس وعلال الفاسي . بوجودهم تأهلت الحركة الوطنية الاستقلالية لاستقطاب زعماء آخرين . منهم قادة الثورة الجزائرية التي حققت استقلال الجزائر ، استجابة لقرار مؤتمر المغرب العربي ، وأعلن علال الفاسي بصوته بلاغها الأول من مكتب المغرب العربي بإذاعة «صوت العرب» .

تحرير عبد الكريم الخطابي
أول قرصنة سياسية في التاريخ الحديث

وتلك قصة فريدة في تاريخ النضال السياسي كتبها مكتب المغرب العربي في القاهرة .

كان صوت رابطة الدفاع عن مراكش يرتبط بالمطالبة بالإفراج عن القادة السياسيين الثوريين المعتقلين والمبعدين . و كان أول لقاء لنا مع الجامعة العربية - ونحن نعبر عن الممكن - قبل المستحيل ... ؟ - يتضمن الإلحاح على الجامعة أن تسعى لدى الحكومة الفرنسية للإفراج عن الحريات السياسية وحقوق الإنسان في المغرب العربي ، وفي مقدمتها تحرير القادة المعتقلين والمنفيين ، وفي مقدمتهم عبد الكريم الخطابي .

كان عبد الكريم الخطابى يحتل مكان الزعامة من نفوس السياسيين المخضرمين الذين يتولون شؤون الجامعة العربية . فقد اقترن كفاحه المسلح - زمنيا - بالثورة المصرية لسنة ١٩١٩ . حينما بدأ نضاله الثورى فى منطقة الريف بالمغرب سنة ١٩٢١كانت الثورة المصرية لاتزال متأججة فى نفوس شباب مصر وسياسييها ، وقد اصبحوا قبيل الحرب وبعدها قادة النضال السياسى المصرى والعربى للإجهاز على الوجود الاستعمارى فى مختلف مظاهره . ورغم أن إسم عبد الكريم الخطابى غاب عن الذاكرة البناءة بعد أن غيبه المنفى عشرين سنة كاملة (انتصرت جيوش الاحتلال الفرنسى والإسبانى على الثورة الريفية سنة ١٩٢٥ونفت محمد بن عبد الكريم وأخاه وعمه وعائلاتهم إلى جزيرة «لارينبون» فى المحيط الهادى) فقد كانت نداءات رابطة الدفاع ومذكرات مكتب المغرب العربى تستعيد الحدث الكبير فى تاريخ النضال العربى : الثورة الريفية بالمغرب وقائدها عبد الكريم .

وبدأت الجامعة بقيادة عبد الرحمن عزام تقترب من الموضوع برفق فى محادثاتها مع الفرنسيين . وما من شك فى أنها كانت تجد الموضوع معقدا والحديث عنه مع الفرنسيين صعبا ، فهو «الثائر» الذى حارب بقوة السلاح فرنسا وإسبانيا ، وجندت له الدولتان أقوى جيش وأخطر عتاد بعد الحرب الأولى ، وقاد الحرب هذه ثلاثة مرشالات وعشرات

الجنرالات والضباط ، وهدد نظام الحكم فى إسبانيا ، وزرع فى قلوب المواطنين روح المقاومة ، وألغى نضاله مرحلة الاستسلام للاستعمار فى المغرب العربى ، وأخذت شعوب المستعمرات جميعها - من المغرب حتى فييتنام (الهند الصينية) المثل من عبد الكريم ، وكان بطل معركة أنوال أعظم المعارك فى التاريخ الحديث التى انهزم فيها الاستعمار ، وكاد المغرب يتحرر على أثرها لولا تضافر القوات الفرنسية والإسبانية ، وتضامن الاستعمار الدولى معهما ، ولولا أخطاء التاريخ التى لا ترحم .

مطالبة الجامعة العربية - انطلاقا من مطالبة الحركة الوطنية المغربية - بتحرير ابن عبد الكريم كانت مجازفة لم يكن يبررها إلا بعض الظروف الخاصة بفرنسا التى أوحت لها بأن تنقله إلى ضواحى مرسيليا (فى أسر جديد) قريبا من المغرب حيث كانت تفكر فى استغلال وجوده هناك لحاجة فى نفس يعقوب .

اتخذت الحكومة الفرنسية القرار فى سرية مطلقة دون أن تعرب عن استجابة لمطالب الجامعة العربية .

فى يوم من آخر أيام شهر مايو سنة ١٩٤٧ التقيت فى ميدان محمد على بالقاهرة مع المناضل الفلسطينى محمد على الطاهر وكان صديقا حميما للحركة الوطنية المغربية ، وفى مقدمة المؤيدين لاستقلال المغرب المناهضين للاستعمار الفرنسى فى الصحف التى كان يصدرها تباعا

من مكتبه فى القاهرة : «الشورى» «الشباب» ... بادرنى بالقول :

- عنكم أبحث ...

قال الكلمة فى لغته الحية وحركاته العصبية المتأججة ونظراته الفاحصة .

- ما وراءك يا أبا الحسن ؟

لم أكن أعرف أنه يحمل أخطر خبر وطنى يمكن أن يغير مجرى التاريخ . لم ينتظر تساؤلى :

- تلقيت الآن برقية من أصدقائى فى عدن (البرقية فى يده يلوح لى بها) تخبر أن عبد الكريم الخطابى مر بالمدينة على ظهر باخرة فى طريقها إلى قناة السويس . وصلى فى المسجد هو وجماعة ممن معه . وقد تعرف عليه بعض المصلين . وعاد إلى الباخرة الخاصة التى أبحرت به إلى وجهة لا يعرفها حتى هو . هذه هى البرقية . دبروا أمركم .

عدت سريعا إلى المكتب . عقدنا جلسة عمل . لم يسعفنا الوقت بكثير من التفكير . كان يوم أربعاء . الوقت يسرع . الباخرة تسرع فى طريقها مرورا بميناء السويس - هكذا قالت البرقية - التدبير والتفكير قد لا يجدى فى غياب عناصر الخبر . قررنا أن يرحل وفد إلى السويس لمحاولة استطلاع الأمر والاتصال بالأسير المنقول من أسره إلى ... ؟

وكان الوفد مكونا من : محمد بن عبود والدكتور ثامر وأحمد بن المليح - أو عبد المجيد بن جلون - .

فى سيارة أجرة متداعية رحل الوفد ليلا ، يقطع منطقة عسكرية (الجيش الإنجليزى كان يحتل منطقة القناة) معرضة للاعتراض والمنع ، معرض ركابها للاعتقال لأدنى شبهة . وفى اعتقالهم أو اعتراضهم ضياع للفرصة . فى مسابقة مع الليل وخطر الاعتراض مرت السيارة المهترئة (من بقايا الحرب) فى الطريق الخطير الذى دمرته الحرب بين القاهرة والسويس . وصلت قبل وصول الباخرة عشية ذلك اليوم .

على ظهر الباخرة استقبل المجاهد الخطابى - لأول مرة منذ عشرين عاما - مواطنين من بلاده . لا أدرى كيف سمح ربان الباخرة وسلطة المراقبة للوفد أن يصعد الباخرة . ولكن ابن عبد الكريم استقبل زواره الذين قدموا لتحيته بترحاب كبير ، وهو لا يدرى كيف عرفوا خبر مرور الباخرة . وفجأة بادروه بالقول :

- نرجو أن تفكر معنا فى خلاصك . أن تنزل من هذه الباخرة التى ستنقلك من منفى إلى منفى . مصر سترحب بك (الحكومة المصرية لم يكن لديها خبر بالموضوع . والوفد يتحدث عن الممكن من المستحيل) .

دهش الرجل للعرض . كان مهموما بالحذر وانعدام الاطمئنان . عشرون سنة من الأسر تحت المراقبة الفرنسية . ثلاثة شبان يتحدثون

إليه عن مغامرة خطيرة قد يكون فيها حتفه. الباخرة التى تنقله تحمل العلم الفرنسي . ربانها فرنسى . الحراس فرنسيون مسلحون ... يعترضون ... يمنعون ... يعتبرون العمل هروبا ... الحكومة المصرية ما رأيها ... ؟ هل تقبل المغامرة ... ؟ هؤلاء الذين يتحدثون له عن المغامرة الخطيرة من هم ...؟ لأول مرة يراهم يسمع منهم .

فكر طويلا قبل أن يقرر : لا

عاد الثلاثة يديرون الحديث بأسلوب آخر تحت ضغط الوقت الذى لم يكن يسمح للباخرة بأن تتوقف إلا لتتزود .

وكان الوقت فى صالح مشروع المغامرة . الباخرة ستقف مرة أخرى فى بورسعيد – بعد أن تقطع القناة فى ليلة – وكان الموعد فى بورسعيد ليتخذ قراره النهائى .

ومن الميناء إلى القاهرة على نفس السيارة المتداعية لتقطع الرحلة الخطيرة فى عدة ساعات .

الزمن يسرع بين السويس وبورسعيد ، بين السويس والقاهرة ، بين القاهرة وبورسعيد وعقدنا فى المكتب الجلسة الثانية بعد عودة الوفد . كان يوم جمعة . قررنا أن نخاطب الحكومة المصرية . فلا شىء يمكن أن يتم دون علمها وموافقتها وقرار منها . الطريق طويل، والحكومة فى

يوم عطلتها . وقرار منها يمكن أن يتخذ بعد اسبوع ستكون الباخرة فيه قد خرجت إلى مياه البحر الأبيض .

وكان اليأس من نجاح المشروع هو نهاية التفكير ، لولا :

نزلت فكرة من السماء هي استخدام لقب رئيس الوفد المغربي لدى اللجنة الثقافية للجامعة العربية .

اليوم يوم الجمعة ، بعد ظهر يوم عطلة في القاهرة . ساعة القيلولة أو الفرار من ضجيج القاهرة إلى العزبة أو إلى النادي . الدولة غائبة أو نائمة . ومن يستطيع أن يخاطبك في شأن من شؤونك في ساعة من بعد ظهر كهذا ؟ ومن من رجال الحكومة يستطيع أن يأخذ قرارا خطيرا في عهد لا يأخذ القرار الخطير إلا رجل واحد .

ورن جرس الهاتف في منزل رئيس الديوان إبراهيم عبد الهادي . فقد كان الطريق الأشق . ولكن الأقرب .

– من يا فندم

– هذا رئيس الوفد المغربي في الجامعة العربية . أريد الباشا لأمر هام .

هكذا تحدث محمد بن عبود ، وأنا بجانبه أشير أو أوحي .

– الباشا نائم . ولا أحد يستطيع أن يوقظه .

استبشرنا خيرا . فالباشا موجود في منزله . وذلك نصف الطريق إلى الهدف

- الموضوع هام جدا . وله صلة بمولانا .

- أعطنى رقم هاتفك وانتظر بجانب الهاتف لعلى استطيع ان ابلغه.

مرت الدقائق بطيئة ... قاسية ... كل التوقعات خامرتنا ، ونحن نطرق باب المستحيل .

- مغامرة ؟ أليس كذلك ؟

قال ابن عبود . قلت وأنا ألحظ معالم الاضطراب الممزوج بابتسامة الظفر في وجهه :

- أخطر ما فيها ربطها بمولانا . ما يدرينا أننا نتسلق قمة الهرم .

- إذا لم نغامر لن نصل .

المكتب مجتمع فى غرفة أخرى ينتظر نتيجة المغامرة . كل يدلى برأيه . لا يهم إن كانت جميعها تنتهى إيجابا أو سلبا .

بضع دقائق : عشر .. عشرون ... الزمن تراجع أمام الانتظار . والجرس العصى لم يرن . لعله ينتظر مفاجأة سارة ؟ أو ... ؟ فهو لا يرن إلا ليحمل خبرا هاما . أخيرا تخلى عن عصيانه :

- السيد ابن عبود رئيس الوفد المغربى لدى الجامعة .

- هو هذا أفندم

– معك الباشا .

وهتف صوت من وراء النوم : مالحكاية ؟

– أنا رئيس الوفد المغربى . أريد أن أبلغ معاليكم قضية مهمة جدا، ومستعجلة جدا . وسرية جدا . تتصل بمولانا .

وأخذ الرجل لا يدرى أحد أمن خوف أو توقع أو خطر ...

– مولانا خارج القاهرة . ومع ذلك إن كان الأمر عاجلا فأنا فى انتظارك .

كان رئيس الحكومة هو محمود فهمى النقراشى . وكانت الفرصة للملك فاروق ليؤكد وجوده وإرادته فى الحكم ، وليقرر فى كل موضوع يمكن أن تقرر فيه الحكومة دون أن يعارضه رئيسها بنص دستورى أو بدعوى الاختصاص وأن يأخذ القرار ثم يبعث بخبره إلى رئيس الحكومة. وكان يشغل بال الملك أمر مهم هو أن يتزعم البلاد العربية ثم مصر ، وأن يكون ملك الجامعة العربية لا ملك وادى النيل ودار فور وكردفان .

وغاب ابن عبود دهرا قبل أن يعود . الزمان يسابق الباخرة التى تقطع القناه نحو بورسعيد . من يدرى لعلها لن تتوقف ؟ من يدرى لعل خبر الوفد الذى زار الزعيم الخطابى قد وصل إلى الحكومة الفرنسية

فاتخذت إجراءات لحماية الباخرة من وفد آخر ؟ من يدرى لعل الحكومة الفرنسية تتدخل لدى الحكومة المصرية ليتخذا قرارات معاكسة ؟

لم يحمل ابن عبود غير ابتسامة عريضة . كان يبتسم . ويغمره الأمل فى عز اليأس .

– ما وراءك؟

– الانتظار إلى أن يتصل رئيس الديوان بجلالته . وسيصلنا القرار بالهاتف .

متى ؟ قبل أن تضيع الفرصة أو بعدها ؟ هل سنسبق الزمن أو سيسبقنا؟الجواب عن هذه الأسئلة مرهون بإمكانية اتصال رئيس الديوان بجلالته ، بإمكانيات جلالته الوقتية والمزاجية ؟ بقدرته على اتخاذ قرار خطير دون استشارة الحكومة فى يوم عطلة ، دون دراسة معمقة لعواقب قرار قد يؤثر على العلاقات المصرية الفرنسية والإسبانية. لم نكن نقدر أنها فرصة الملك ليؤكد زعامته العربية ، وهى القوة المؤثرة فى القرار .

الطلب الذى حمله إبراهيم عبد الهادى بسيط ، خطير فى نفس الآن: إذن جلالته للمجاهد المغربى بالالتجاء إلى مصر ، فرارا من الأسر الفرنسى الذى دام إحدى وعشرين سنة، هل كان فاروق قد سمع من

قبل بعبد الكريم الخطابى ؟ هل يعرف خطورته بالنسبة للحكومتين الفرنسية والإسبانية ؟ من المهم ألا يعرف الملك . ومن المهم أن تكون معلوماته عن الرجل مضببة . ولعله لم يكن - ساعتذاك - بين الملك ورئيس ديوانه مستشار آخر أكثر علما منهما بحرب الريف وثورة ابن عبد الكريم .

رن الهاتف بعد ساعة ...؟ ساعتين ....؟ : الباشا ينتظر إبن عبود .

عاد ابن عبود إلى المكتب يكاد يطير فرحا . يعتبر أن المغرب حقق نصرا على فرنسا وإسبانيا ، هو بمثابة النصر الذى اقترب منه ابن عبد الكريم قبل ربع قرن ، ولم يكتب له ذلك . قال الباشا :

- بأمر مولانا . إذا نزل المجاهد المغربى فى ميناء بورسعيد فسيجد محافظ المدينة فى استقباله والترحيب به باسم مصر . ولكن المحافظ لن يتدخل فى عملية النزول التى يجب أن تتم بمحض إرادة الأسير . دبروا أمركم . ومصر من ورائكم . التعليمات وصلت إلى رئيس الحكومة ، وعن طريقه إلى محافظ بورسعيد .

لاتزال فى عمر الزمن بضع ساعات - فيما قدرنا - لوصول الباخرة إلى بورسعيد . وتكون وفد من المكتب على رأسه الزعماء الثلاثة : علال والطريس وبورقيبة ومعهم إبن عبود والطيب سليم وابن المليح أو ابن جلون .

سيارة متداعية أخرى تحمل ستة أشخاص غير السائق تقطع الطريق بين القاهرة وبورسعيد . المنطقة عسكرية محروسة . وركاب السيارة كلهم غير مصريين . وحراس المناطق العسكرية لا يعرفون غير التعليمات . وما لم تكن عندهم تعليمات بمرور سيارة - ليلا - يركبها ستة أشخاص لا يعرف الحراس هويتهم ، فستكون التعليمات الطبيعية هى حجز السيارة وركابها حتى الصباح لاستشارة من يصدر التعليمات بعد أن يصحو من نومه .

انطلقت السيارة على بركة الله والأمل فى وصولها ، قبل مغادرة الباخرة ، مرهون بقدرتها على الانتصار على عجزها ويقظة السائق وتساهل حراس الطريق العسكرى .

فى هذه الليلة التاريخية كانت الباخرة تقطع القناة على مهل، كانت باخرة قديمة من مخلفات ما قبل الحرب . ربما اختارتها الحكومة الفرنسية لقلة تكاليفها ، ولأنها تحمل اسيرا وعائلته فلا يهم أن تكون فاخرة مكلفة أو قوية قادرة على اختصار زمن المسافر . فهو أسير فيها كما كان أسيرا قبل أن يركبها ، وسيكون أسيرا بعد أن يغادرها . ركابها لا زمن لهم . قضوا شطرا من حياتهم فى بلاد المنفى ، وسينقلون إلى منفى ، ولا بأس أن يقضوا فترة من هذا المنفى على ظهر باخرة لا تختلف الحياة على ظهرها عن الحياة بين المنفيين .

فى هذه الليلة – الدهر – لم يذق المجاهد المغربى وأخوه طعم النوم قضيا الليلة على سطح الباخرة لا ينعمون بالمتعة والأنس بأرض مصر ومياهها ، ولكن فى التفكير ودراسة العرض الذى تقدم به الوفد المغربى فى مدينة السويس : أن ينزل المجاهد وعائلته إلى مصر طالبا اللجوء السياسى . المغامرة خطيرة . والرجل الذى نيف على الستين ، قضى منها دهرا تحت الرقابة العسكرية فى المنفى ، لا يستطيع أن يتخذ قرارا خطيرا كهذا ، قد يعرض عائلته لخطر كبير. لعلهما لم يصلا إلى قرار حاسم . ولكن أحدا من أفراد العائلة ومنهم عمهما وأبناؤهما لم يعرفوا أى مشكلة هذه التى أطارت النوم من عينيهما وشغلتهما عن التمتع بمياه مصر وأرض مصر . ولعلهما تركا القرار لساعة القرار ، وأغلب الظن فيما تؤكد الأحداث أنهما كانا يميلان إلى رفض العرض – المغامرة – ولم يتيقنا من جدية الذين يعرضونها ، ولا من العواقب الخطيرة التى تترصدهما والعائلة جميعها .

توقفت الباخرة صباح يوم السبت . وكانت على موعد مع وفد مكتب المغرب العربى .

صعد الوفد الباخرة دون أن يجد صعوبة تذكر ، سواء من سلطات الميناء أو سلطات الباخرة . رحب المجاهد وأخوه بالوفد الذى حياه وقدم له الاحترام الكامل والتقدير العظيم لجهاده الذى لم ينسه شعب المغرب.

لأول مرة يسمع مثل هذا الترحيب والتقدير منذ إحدى وعشرين سنة . بابتسامته العذبة أجاب عن التحية بمثلها ، حتى إذا خلص الوفد سريعا إلى عرض فكرة نزوله وأهله إلي أرض مصر تغيرت ملامح الرجل ، وتحول استبشاره ريبة وحذرا وتيقظا . وانتهى إلي قرار حاسم : لا

كان الوفد يتوقع : لا ... وكان يعد الجواب الذى قد يجعل لآءه : نعم...

– يا سيدى أنت تمر بمياه مصر الإسلامية العربية . ومن حسن اللياقة أن تنزل من الباخرة لتحيى محافظ المدينة . فهذا عرف يعامل به الرجال الكبار البلاد العظيمة . وسيكون المحافظ مسرورا جدا بزيارتك ، بل سيعتبرها تكريما لحكومة مصر .

انبسطت أسارير الرجل فتحية الإسلام من أخلاقه الكريمة . ولكنه تساءل :

– وإذا حدث مكروه وأنا أنزل سلم الباخرة .

– لن يحدث شيء فقد نزلت فى عدن ، ولم يحدث مكروه .

اطمأن الرجل ونزل ليجد المحافظ فى إحدى غرف إدارة الميناء يستقبله بالأحضان ويرحب به باسم حكومة مصر ، التى يسعدها أن يعيش هو وعائلته على ارضها . كان القرار متفقا مع مطامحه . وكان

الوفد يعمل فى تلك الساعة الفاصلة بإنزال العائلة وكل أمتعتها - بمساعدة ممثلى المحافظة - تحت دهشة سلطات الباخرة وربان السفينة . لم تمر ساعة أو بعض ساعة حتى كان كل شىء قد انتهى . وكان ربان الباخرة يجد نفسه أمام «قرصنة» لا يستطيع لها مقاومة . وقف على سطح الباخرة وهو يرى المجاهد واخاه وعمه يركبون سيارة المحافظة فى طريقهم إلى القاهرة . حافلات وشاحنات تحمل أعضاء العائلة وأمتعتها تسلك نفس الطريق . لم يجد أمامه إلا طريقا واحدا هو تشغيل محركات الباخرة ، ومغادرة الميناء إلى البحر الأبيض فى طريقه إلى فرنسا يسبقه الخبر التاريخى العظيم : الزعيم عبد الكريم الخطابى ينزل فى ارض مصر فتستقبله بترحاب كبير .

الضجة فى باريس ... الضجة فى مدريد .. الضجة فى القاهرة ... الضجة فى الرباط .. عواصم العالم تردد الخبر الذى لم تذع مثله وكالات الأنباء منذ خبر نهاية الحرب العظمى الثانية .

إلى مكتب المغرب العربى

حتى توديع المحافظ للزعيم المغربى كانت الحكومة المصرية قد قامت بكل ما تعهدت به دون أن تتدخل رسميا . ولم تكن تستطيع أن ترد على احتجاج الحكومة الفرنسية بغير براءتها من التدخل رسميا بين الرجل ومحرريه . ولكنها لا تملك إلا أن ترحب برجل اختار بمحض إرادته أن ينزل على أرض مصر ، اتباعا للتقاليد العربية الإسلامية . الاحتجاج لا

يستطيع أن يرد واقعا . والحكومة المصرية لا يمكنها أن تعيد الرجل إلى الأسر . فهمت الحكومة الفرنسية أن الحيلة انطلت عليها . وأن مكتب المغرب العربى أتقن خطته ، وانتصر على حذر الإدارة الفرنسية ودقة أساليبها . وأن عبد الكريم الخطابى الذى أُسر غدرا تحرر «غدرا ...» وأن صفحة تاريخية - الحرب الريفية - انطوت على غير ما خططت حكومة باريس . وأن صفحة جديدة فتحت فى ملف استقلال المغرب عنوانها : الصراع المرير بين الوطنية المغربية والاستعمار الفرنسى . وأن وجود عبد الكريم فى القاهرة سيزيد الصراع حدة وقوة .

فى مكتب المغرب العربى ، الذى تحول سريعا إلى مسكن للعائلة ومقر للاتصالات الكبرى التى تمت مع بقية أنحاء العالم ، كان الزعيم المغربى بين مجموعة من الوطنيين المناضلين الذين تعرف عليهم وعلى عملهم ونشاطهم . كان يعى ويتملى ويفكر ويؤمن ويبتسم ولا يبدى رأيا . كان يستقبل المهنئين من كبار الشخصيات المصرية والعربية والإسلامية التى كانت القاهرة تطفح بنشاطهم . ينتصر على ضعف صحته ومرضه ليستمع كثيرا ويتحدث قليلا . يشكر المهنئين والمرحبين ويؤكد اعتزازه بتحرره فى أرض عربية وضدا على رغبة أسريه . مئات الصحفيين من مصر ومن كل أنحاء أوربا وأمريكا وفدوا على مكتب المغرب العربى يستطلعون خبر المؤامرة التى انتصر فيها المغاربة على تنظيم الإدارة الفرنسية وحذرها ودقة تدبيرها . يتحدث إليهم الرجل بكلمات معدودات ، يستعيد بها الماضى ويستعيد موقفه من عشرات الصحفيين الذين كانوا يفدون عليه فى الريف فيعرف كيف يحدثهم ، بقليل من الكلمات ، عن العمل العظيم الذى يقوم به ، كان أعضاء مكتب المغرب العربى

يروون غليلهم بكثير من التفاصيل .

كان بعضهم يروى تفاصيل المغامرة والآخرون يتحدثون عن الرجل تحليلا ووصفا واستعادة تاريخ . كثير منهم كانوا يجدون فى أعضاء المكتب بعض تفاصيل الحرب الريفية ، وكثيرون يستعيرون كتبا من مكتبة المكتب . وأصبح عنوان ١٠ شارع ضريح سعيد يماثل فى الشهرة : « ١٠ دوانينج ستريت» كما عبر أحد الصحفيين الانجليز .

قامت الجامعة العربية بواجبها فى استضافة العائلة . واستضاف الملك فاروق فى مزرعته بانشاص الزعيم المغربى لبعضة أيام يقضيها فى الراحة والاستجمام . قضى بعدها شهرا فى مستشفى المواساة بالاسكندرية . كنت أنا ومحمد بن عبود نتناوب على مرافقته ومساعدته فى الاستقبالات التى تابعته إلى المستشفى ، وتسهيل مهمة الأطباء الذين اعتنوا بصحته - بأمر من جلالة الملك - وقد زاره بنفسه فى المستشفى ليطمئن على صحته وحسن ضيافته وعائلته الصغيرة .

استقر المجاهد ابن عبد الكريم وعائلته فى ضيافة الحكومة المصرية واختلف أبناؤه وأبناء أخيه وعمه إلى المدارس والكليات ، وتخلص سريعا من مخلفات المنفى الطويل ليرأس لجنة تحرير المغرب العربى . وكانت لجنة كبرى أعضاؤها من قيادات الأحزاب السياسية فى المغرب والجزائر وتونس . وكانت اللجنة سندا كبيرا للنضال الوطنى المغربى فى القاهرة . وظل المكتب يعمل فى دائرة اختصاصاته الإعلامية والاتصالية مع الدوائر العربية والإسلامية والجامعة العربية .

وكان الزعيم الكبير متفقا دائما مع مخططه الذى بدأ به نضاله فى العشرينات وهو : ما أخذ بالقوة والحرب لايسترجع إلا بالقوة والحرب . ولذلك كان يستهين بالعمل السياسى ، ويعيب على الأحزاب السياسية أنها ليست أحزابا للمقاومة العسكرية . ولم يكن يقبل سياسة المراحل ، ولا العذر بانعدام الإمكانات . فلم تكن عنده إمكانات يوم حارب إسبانيا ثم فرنسا وإسبانيا معا . قبل أكثر من عشرين عاما . ولم يكن يغفر للتاريخ غدره بنضاله التحررى ، ولا يرجع توقف حرب الريف لتغلب السلاح بمقدار مايعيد ذلك إلى الخيانة والغدر . كان يطوى الزمان ، ولا يعترف بالسنوات التى تفصل بداية العشرينات عن نهاية الأربعينات ، بما يميز هذه المرحلة من أخطر حرب عرفها التاريخ خرج فيها الاستعمار الغربى منتصرا ، وأقوى مما كان قبل الحرب . كان رجل المبادىء ، يحتقر السياسة ، ولا يعترف بغير المواجهة . يدين العمل السياسى فى البلاد العربية والاسلامية التى تناضل للاستقلال والتحرر، ومنها - طبعا - المغرب العربى . وكان يؤمن بالقدرة على تحرير المغرب العربى جميعه بالمقاومة المسلحة .

لا أحد يستطيع أن يدفع منطقه . لا أحد يستطيع أن يتنكر للعمل السياسى كمرحلة انتهت بالفعل فى تنظيم المقاومة المسلحة فى تونس على يد الفلاقة ، وفى المغرب على يد المقاومة ثم جيش التحرير ، وفى

الجزائر على يد جبهة التحرير الوطنى . لعله وهو يشهد بعض أحلامه تتحقق كان قرير العين رضى النفس . لعله ، وهو يشهد فى حياته تحرير المغرب وتونس والجزائر وإعلان استقلالها كان يؤكد لنفسه أن مبادىء الثورة الريفية قد تحققت .

لعله انتقل إلى رحمة الله - فجأة - فى القاهرة التى أكرمت إقامته ومثواه سنة ١٩٦٣ - وهو معتز بأن بلاده استقلت - وأنه أدرك استقلالها فى حياته . وأن البذرة التى غرسها ظلت حية تشع مبادىء الحرية والاستقلال والنضال حتى نمت وازدهرت وأنتجت بلادا مستقلة يناضل شعبها لبناء مستقبل مزدهر فى ظل الوحدة والاستقلال والحرية.

رحمه الله .

المغرب عضو أول مؤتمر ثقافي عربي

كانت الإدارة الإسبانية فى منطقة الشمال قد نفضت يدها من «الوفد الخليفى» فى اللجنة الثقافية للجامعة العربية ، بعد دورة واحدة من اجتماعات اللجنة ، وبعد أن استقر عضوان من الوفد فى القاهرة ومارسا العمل السياسى ضد نظام الحمايتين الفرنسية والإسبانية فى المغرب . ولكن الجامعة العربية كانت تتخطى الرسميات فظل اعترافها بالوفد قائما ، وظلت تستدعيه لحضور أعمال اللجنة .

حينما قررت اللجنة الثقافية أن تقوم بنشاط عمومى اتخذت مبادرة طيبة هى تنظيم مؤتمر ثقافى عربى فى «بيت مرى» بلبنان . ولم تكن فى

حاجة إلى توجيه الدعوة لنا لنحضر باسم المغرب ، فقد فرضنا وجودنا واتفقنا مع الجامعة على أن نمثل المغرب ، واعتمدنا ميزانيتنا الخاصة لننتقل بالطائرة إلى دمشق ثم إلى لبنان . أول مرة أركب فيها الطائرة . والطائرات التى كانت تربط البلدين العربيين كانت من مخلفات الحرب : صغيرة هزيلة تطير بمحركين كما لو كانت جرادة لايستطيع جناحاها أن يقاوما هبات نسيم وراء سحابة منخفضة عابرة . كان محمد بن عبود وأنا نقدم على مغامرتين : ركوب طائرة لايؤمن راكبها بنجاته إلا بعد أن تطأ قدماه الأرض . وتمثيل المغرب ، والحديث باسمه ، فى مؤتمر دولى إقليمى تشرف على تنظيمه منظمة دولية . وبمقدار ما كاد الخوف - والطائرة ترتعد فى سماء الأرض والبحر - يطير بصوابى كان ابن عبود فى المقعد بجانبى ينام ملء جفونه عن شواردها . أيقظته مرتين عساه يشاركنى الهلع ، فكان يفتح عينيه ، ثم ينام نوما هادئا يعلوه شخير خفيف منتظم . فى مطار دمشق عانت الطائرة وجود كلاب ضالة تلعب على أرض المدرج . ولم يكن لها أن تغامر بالطيران قبل أن يأتى من يطارد الكلاب خارج مدرج المطار . وفى طريق العودة عانت الطائرة أزمة أخرى : وجود فتيان يلعبون الكرة فى ساحة مطار دمشق. ولم تكن هناك طائرة تربط بين القاهرة وبيروت ، فكانت دمشق طريق بيروت .

حضر رئيس جمهورية لبنان بشارة الخورى ورئيس الحكومة رياض الصلح افتتاح المؤتمر . خطب الرئيس مرحبا ومتحدثا عن الثقافة

العربيـة التى توحد بين العرب دون اعتبـار لكل الظروف غيـر المواتية ، وخطب رؤسـاء الوفـود ، ومنهم محـمـد بن عبود رئيس وفد المغرب الذى أكد فى الخطاب - الذى أعددناه مـعـا - أن المغرب بلاد عربيـة تشـارك العرب كل آمـالهم وآلامـهم . وأن ثقافتنا الأصيلة عربيـة ، رغم الجـهود التى يبذلهـا الاسـتـعـمـار الفـرنسى والإسـبـانـى لتدجين الهوية العربيـة المغربية عن طريق نشر اللغة الأجنبية فى التعليم والثقافة بدل العربية ، وعن طريق تعليم هجين لا ينتمى للهوية الوطنية العربية .

كان سفيرا فرنسا وإسبانيا حاضرين فى الجلسة الافتتاحية وهما يستمعان لهذه المقولة عن بلاد تحت حمايتهما ، وبوجود رئيس جمهورية وحكومة بلاد صديقة كلبنان لم تتخلص من الاحتلال الفرنسى إلا قبل بضـعـة أعوام . وكـانت المفـاجـأة غيـر سـارة بالنسـبـة لممثلى الدولتين الحاميتين ، فلم يسعهما إلا أن يقدما احتجاجا لحكومة رياض الصلح . أجـابت بأن المؤتمر تنظمـه الجـامـعـة العـربيـة وليس لبنـان ، وأن المؤتمر ثقـافى وليس سـيـاسـيـا . وانطلقت الصـحـف الناطقـة باسم السـفـارة الفرنسـيـة وبلغتهـا ، تهاجم وجود وفد بين الوفود العربيـة ليس له حق تمثيل بلاد محمية .

واستمر وفدنا «يمثل المغرب» بالرغم من كل هذه الاحتجاجات .

وجدت نفسى فى لجنة تضم كبار أساتذتى وأدباء ومثقفين من كل البلاد العربيـة . فى مقدمتهم أحمد أمين وعبدالحميد العبادى وعلى

الجارم ... كانت اللجنة تدرس القدر المشترك فى برامج التعليم بين البلاد العربية الذى يجب أن تتضمنه المناهج فى مختلف أقطارها ، وقدمت اقتراحا أن ينص بالخصوص على ربط تاريخ المغرب العربى وجغرافيته ببقية الأقطار العربية . ورغم أن الموضوع كان يشمل كل بلاد العرب ، وليس فقط البلاد الأعضاء فى الجامعة فإن الأعضاء رحبوا بالفكرة تحسبا لاعتبارات رسمية ، وردا على ما يصطنعه التعليم الاستعمارى من ربط بلاد المغرب بفرنسا أو إسبانيا . واعتبرتها لحظة انتصار حققت الهدف الثانى من تمثيل المغرب فى مؤتمر عربى دولى .

لحظة الانتصار الثالثة كانت ونحن - معظم الوفود العربية - نتحلق حول رياض الصلح يحدثنا عن القضايا العربية وموقف لبنان - الذى تعترضه كثير من الصعوبات الطائفية - من القضايا الأساس . ورغبة حكومته فى أن يمثل لبنان فى الجامعة العربية - رغم الأصوات المضادة - بكل إمكاناته وقوته . وكانت حكومته تعانى الكثير فى ارتياد هذا الاتجاه . وجاء دور المغرب لنعبر عن اعتزازنا بتمثيل المغرب - غير مستقل - فى مؤتمر تحضره بلاد مستقلة . أكبر فينا جرأتنا ، وتمنى أن يحضر المغرب المستقل فى المؤتمرات العربية القادمة التى تعقد فى لبنان . وجدنا أنه يعرف الكثير عن المغرب ، ويقدر نضاله التحررى . وكانت شهادته عن المغرب أمام رؤساء الوفود التى كنا نشك فى معرفتهم للمغرب أكبر انتصار حققه الوفد (غير الرسمى) .

ولحظة الانتصار الرابعة كانت تغلغلنا وسط الوفود العربية التى تعرف المغرب والتى تجهل الكثير عنه . وقد عبر عبدالحميد العبادى عن مفاجأته ضاحكا فى ود حينما رآنى فى قاعة المؤتمر : آش جاب الشامى للمغربى ...؟

سعدنا فى المؤتمر بقصيدة لعلى الجارم . وقد حضر يمثل مجمع اللغة العربية فى القاهرة . وكان قد اقترح فى لجنة القدر المشترك ، تلقين «قدر مشترك من الألفاظ المعجمية» ؟ وحينما عارضه أحمد أمين فى رفق أجاب فى ابتسامة اعتذار :

– أردت فقط أن أبرر وجودى كممثل لمجمع اللغة العربية .

اعتبرت الحكومة اللبنانية انعقاد المؤتمر الثقافى الأول فى لبنان انتصارا لها ، وزيادة في ربط لبنان بالوطن العربى . لذلك احتفلت بالمؤتمرين ونظمت للوفود جولة واسعة فى المناطق الجبلية استقبلوا فيها استقبالات شعبية حماسية . فى إحدى القرى الجبلية «إهدن» نظم اجتماع شعبى كبير حضره آلاف الوافدين من مختلف جهات لبنان . وكان الشعب اللبنانى لايزال فى ريعان استقلاله يقبل فى المهرجانات الشعبية ويحتفل بالوفود العربية . وفى منصة الرئاسة كان الرئيس بشارة الخورى يخطب ، والمنصفة المجاورة مخصصة للوفود العربية ، ولكن مئات الشباب تعلقوا بها فلم تحتمل ثقلهم مالت هاوية بمن عليها وعلى من يقف بجانبها . كنت من بين الهاوين ، ولكن رياض الصلح قفز

من منصة الرئاسة يهدىء الروع ويدعو إلى الهدوء فلم يحدث شىء يذكر.

واستأنف الرئيس خطابه . واستمرت الجماهير تهتف مرحبة بالوفود العربية .

فى قمة جبل لبنان . زرنا منطقة الأرز ، قطعنا إليها مسافات شاسعة فى طريق وعر أبى سائق سيارتنا إلا أن «يشرب كأسا» قبل أن يأخذ طريقه : وسألحق بالقافلة . وصلنا أقرب مرتفع إلى القمة ونحن نجتاز الطريق الصعب إليها . نظر محمد بن عبود مليا من بعيد إلى القمة التى تضم بضع عشرات من شجر الأرز وخاطبنى بلهجته الساخرة قائلا :

– هذا هو الأرز الذى قطعنا إليه هذه المراحل ؟ والله لن أصعد إليه. فى منطقة كتامة بالمغرب مئات الهكتارات من أشجار الأرز عشت بينها سنوات . ولم أشق فى الطريق إليها كما شقيت مع السائق الذى شرب كأسا قبل أن يأخذ بمقود السيارة .

عبثا حاولت أن أثنيه عن عزمه . زرتها مع بقية الوفود لأتعرف على الشجرة التى يتربع ظلها علم لبنان ، والتى لايذكر لبنان إلا ذكر أرزه ، ولا يذكر الشاعر لامارتين إلا ذكرت قصيدته التى حفرت على إحدى أرزات لبنان .

في الطريق إلى لبنان استقبلنا جميل مردم رئيس حكومة سوريا . الرجل الذى كان يدير دفة السياسة السورية بحذق ومقدرة ماكرة ، ويناضل من اجل استقلال سوريا ومن أجل زعامته . أدركت من حديثه حدة ذكائه وقدرته على المناورات ، وعلى الانتصار فى كل المعارك السياسية ، إلا حينما أصبح المسدس الانقلابى يدير الحياة السياسية فى سوريا ، عند ذلك أدركه الفشل فى المناورة ، وترك السياسة مكرها لا بطلا . فى حديثنا معه كان يبدى معرفة بقضايا المغرب وتفتحا على ضرورة معالجة الجامعة العربية لقضايا المغرب بجدية أكثر . وكان على معرفة واسعة بالاستعمار الفرنسى . ويؤمن بأن الشعوب يجب أن تصمد فى وجه الاستعماريين الفرنسيين ، وكان يشير بالطبع إلى مسيرة سوريا فى طريقها إلى الاستقلال .

الرحلة إلى لبنان حققت نصرا كبيرا لمكتب المغرب العربى وفتحت أمامه آفاق بعض البلاد العربية التى كان يحاورها فى قضية المغرب العربى من قلب القاهرة فأصبح يحاورها أيضا من دمشق وبيروت وبغداد وجدة وعمان .

أستاذ فى بلاد الأساتيذ

لو نبأنى عراف فى بداية عهدى بالحياة الواعية بأنى سأكون أستاذا فى بلاد الأساتيذ لنفضت يدى من العرافين والمتنبئين والشوافين وضاربى الودع ومن كل «مغربى كذاب يفتح الكتاب» .. نشأت طالبا فى بلاد العلم والأدب .تعرفت على النابهين من علمائها وكتابها وأدبائها ، فاعتبرت أهل المدينة جميعهم أساتيذ فى العلم والأدب والفن .. فمن يستطيع أن يجعل منى أستاذا فى بلاد الأساتيذ ...؟

على قدر ما احترمت أساتذتى فى المغرب وفى مصر كنت لا أميل أن أكون ، فى يوم ما ، أستاذا ، حتى إنى كنت أسخر - سخرية صداقة وود - من بعض زملائى الذين التحقوا بمعهد التربية فى القاهرة ليعدهم أساتذة . كنت أرثى لمستقبلهم . لعل بعض الأساتيذ فى المغرب وفى مصر كانوا يبعثون فى نفسى الشفقة وهم يواجهون خصمين بغا بعضهما على بعض : «العلم» الذى يدرسون ، والطلبة الذين يواجهون . كانوا - كتب الله لهم المحنة فى ميزان الحسنات - أضعف من أن يفهموا الكتاب ويدركوا «أسراره المغلقة» ثم ينقلون كل ذلك «العلم» لطلبتهم راجين أن يصل إلى مكامن عقولهم وحفظهم . ورغم أن بعضهم كان يلجأ إلى «التهريج» أو إلى إملاء ما كتب دون إدراك أو

رغبة الوصول من وراء المجهود إلى ما وراء المجهول ، فإن بعضهم يكشف عن هزال إدراكه وضآلة معارفه بضعف الحيلة والانبهار أمام طلبة أذكياء يغمرهم فضول المعرفة أو نزق الشباب ، فيسألون ويحاجون ليوقعوا أستاذهم فى الشرك .

ورغم أنى لم أكن أتوقع لنفسى أن أكون نموذجا لهؤلاء الأساتيذ الذين يثيرون الشفقة ، وأطمح أن أكون نموذجا لأولئك الذين يثيرون الإعجاب والافتخار ، فإن «مهنة» الأستاذية لم تكن قادرة على أن ترغم نفسها لتدخل فى مخططى المستقبلى ، كنت أفكر أن أكون صحفيا أو كاتبا أو مجرد عاطل يلتهم الكتب ويعيش مع الكاتبين . أما أن أكون أستاذا فلا .

حدثنا الأستاذ مصطفى السقا يوما عن أنه ألحق ابنته بكلية التجارة فى جامعة القاهرة . سأله أحدنا : لم لا كلية الآداب ؟ فأجاب مبتسما : يكفى ما يعانيه والدها .

كان أستاذا مقتدرا يدعو إلى التقدير والاحترام لعلمه وقدرته على التبليغ .

ربما كان كلامه مما شجعنى على أن أرفض ربط مستقبلى بالأستاذية .

أستاذ بالرغم عنه

فى الصيف الذى أنهيت دراستى فى الكلية شعرت بغبطة وسعادة لأنى سأتخلص للعمل السياسى فى رابطة الدفاع عن مراكش وأنى سأجد من الوقت ما يسمح لى بأن أقرأ الكثير من الكتب - القديم منها والحديث - وكان الاختلاف إلى الكلية والحرص على مراجعة المحاضرات وإنجاز البحوث والاستعداد للامتحانات ، يضيع على كثيرا من فرص الاختلاف إلى المكتبات والاختلاء مع هذا الكتاب أو ذاك . صيف القاهرة كان يحرمنا من متعة الاختلاف إلى معالمها التاريخية والأثرية والفنية والمتعة بشاطىء نيلها وخضرة جنانها . كنا نفر - حينما يمسك حر الصيف بخناقنا إلى شاطىء «رأس البر» فى الضفة الشرقية من دمياط : القرية الناعمة الهادئة - كانت - لنقضى فترة استجمام ننتقم فيها لأنفسنا من متاعب العمل بقية فصول السنة ، واقترب شهر أكتوبر من سنتنا تلك دون أن يحمل معه هموم الاختلاف إلى الكلية وبداية سنة جديدة من الدرس والتحصيل . فى يوم من العشر الأواخر من سبتمبر تلقيت رسالة مثيرة للفضول :

«الأب جركيس يستدعيكم ليتحدث معكم يوم الإثنين الساعة العاشرة بالمدرسة القبطية شارع .. مصر الجديدة» .

أى صلة لى بالأب جركيس ؟ أى موضوع سيثيره معى ؟ لم أسمع بالاسم قط . لا أعرف الكثير من معالم مصر الجديدة . كانت ضاحية البورجوازيين وأغنياء مصر ، يربطها بمصر «القديمة» قطار سريع

«مترو» قلما كنا نركبه إلا إذا كانت لنا فسحة من الوقت الضائع نقضيه فى الضاحية الجميلة الغنية .

كان من الممكن أن أهمل الرسالة ، فما اعتدت أن ألبى دعوة لا أعرف صاحبها والهدف منها . ومع ذلك كان لايزال يحدونى فضول التعرف إلى قوم لم يسبق لي شرف التعرف إليهم . طردت من نفسى كل عوامل التردد . قمت بمغامرة البحث فى أعماق مصر الجديدة عن شارع جانبى حتى اهتديت إلي المدرسة . وسألت عن الأب – لم أجلس قط إلى أب من الآباء – وعاد الآذن يأذن لى بالدخول إلى مكتب الأب . لم يكن وحده . سلمت . طلب منى الجلوس حيث يجلس عدد – نحو عشرة من الشباب – واستمر الرجل فى الحديث .

فى منتصف العمر يلبس ملابس الرهبان . وجهه صبوح وخط الشيب رأسه ولحيته . تلمع عيناه بالذكاء والفطنة والحيوية . يتحدث بلغة متميزة يلحن ببعض المفردات الفرنسية . يتحدث كما لو كان يلقى تعليمات تبدى لى من حديثه أنه يقدم مخطط السنة المدرسية ، ويوزع الحصص على من حوله . حتى إذا وصل بعينيه المتجولتين إلى حيث كنت جالساً فى اندهاش قال :

وأنت الأستاذ (ونطق اسمى واضحا كأننا على معرفة قديمة) ستدرس اللغة العربية وادابها لقسم البكالوريا والسنة قبلها .

استمـــر فــى حـديثه كمـــا لـم ينتظر منى سؤالا أو اعتراضا أو استفسارا .

لم يجرؤ أحـد . ممن كـانوا يسـتمـعـون ، على الحـديث . أدركت أن الحـديث إلى «الآباء» قـد لايكون مما يتـفق مع من لهم من سلطة دينيـة وحرمة أبوية . إلا كهل ، كان يبدو متميزا عن الآخرين ، بدا عليه أنه موكل بتنفيذ التعليمـات . كـان يسـأل ويؤكد كـلام الأب ، وتتـردد فى عباراته كلمة «أبونا» .

– الأب هنا هو أبونا . وليس مجرد أب ...

قلت لنفسى وأنا أسـتمع إلى لغـة جديدة . ليست كلمـة «أبونا» هى الجديدة وحدها .

انفض الجـمـع بعـد أقل من سـاعـة . خـرج أبونا مـن القـاعـة . وقف الذين كانوا يتحلقون حوله ، يتـحدثون عما تلقوه من تعليمات . يتبادلون مـا تلقوه من أوامر . بدا لـى أنهم يعـرفون بعـضـهم . ترددت أسـمـاء : جورج ، رءول ، فليكس ، حنا ... وحيدا كنت فى مجتمع لا أعرف أحدا ولا يعرفنى أحد . لم أجرؤ على التعرف إلى أحد . لم يسألنى أحد عن اسمى ، وكيف أتيت ؟ لا أعرف كيف وضـعتنى الأقدار فى وسط أجـهل عنه كل شىء . انفردت بنفسى على هامش المجموعة ، وكل مـا يدور فى فكرى أنى دخلت مدرسة ، وأنـى عينت أستاذا دون إذنى . وأن على أن

أنفذ تعليمات «أبونا» كما سينفذها الآخرون دون جدال . بدا لى أن أهرب . أن أخرج من القاعة إلى الشارع حيث أتشبث بحريتى . لا أسأل أحدا حتى لا يجيبنى أحد بما يؤكد التزامى بما فرضه أبونا ...
– فى مصر لا يتعاملون هكذا . يتناقشون ويتخذ كل منهم القرار الذى يحلو له دون أن يكون ملزما بقرار الآخرين .

لكن «أبونا» لم يتح لأحد أن يناقش . كان يملى تعليماته وعلى وجهه ظلال ابتسامة كأنه أب وسط أبنائه . وأب الكنيسة – كما أدركت فيما بعد – يعتبر نفسه أعلى رتبة من أب يوزع التعليمات فى المدرسة كما يوزع الإرشادات فى الكنيسة ، وهو متأكد من أنه لا أحد يستطيع أن يرفع أصبعه مستأذنا فى سؤال .

أخذ الذين جمعتهم القاعة ينصرفون فرادى ومثنى وثلاثا . ظلت واقفا حيث أنا أتطلع إلى الجدران المزينة بالصلبان وبجداول الدروس وتوقيت الحصص . فى صدر القاعة صورة لأبونا ناطقة بحيويته وسلطته وذكائه . دققت النظر فيها . أنقذتنى من الوحدة والدوامة وبوادر القلق . ماذا تقول الصورة ؟ لو كنت مسيحيا لقالت لى الكثير ، ولاقتربت منها أطلب الهداية ، أو أستأذن فى الاعتراف .

صوت جاد نبهنى من ضياعى . كان صوت عمى محمد الفراش ، الذى استأذن لى فرمى بى فى عالم التيه وانصرف :

– الأستاذ رءول ناظر المدرسة ينتظرك .

قادنى إلى مكتب ناظر المدرسة . الكهل الذى كان يتلقى التعليمات ويبارك وهو يكرر : أبونا .

بش الرجل فى وجهى وهو يدرك ما بي من حيرة . دعانى إلى الجلوس . جلست وأنا أشعر بأنى لست فى حضرة «أبونا» .

– سمعت توجيهات «أبونا» . ستكون معنا أستاذا للغة العربية . الأقسام مخففة ليس بها كثير من الطلبة . كلهم نشطون طيبون مؤدبون. لم يسبق لك أن عملت أستاذا ..؟ نعرف ذلك . ستكون مسرورا بالعمل فى مدرستنا . تبدأ الدراسة يوم أول أكتوبر . جدول الحصص معلق فى السبورة يمكنك الاطلاع عليه ... لا نشك فى أن عملك سيفيد التلاميذ وسيسر به أبونا .

لم يكن فى وسعي أن أسأل كثيرا فقد أعطانى الرجل كل ما عنده وتمنى لى التوفيق .

ودعته . ودعت المدرسة وأنا مثقل بأعباء لم أسع إلى حملها . شعرت بأنى غير قادر على التخلص منها . فقد كنت – ومازلت – أعجز عن المقاومة إذا وضعت أمام الأمر الواقع . كان بإمكانى أن أرفض عملا لم أسع إليه ، ولا رغبة لى فى القيام به . كان بإمكانى ألا أخبر أبانا ولا رعول ، وأدع المدرسة تنتظر الذى لا يأتى .. كان بإمكانى أن أكتب رسالة اعتذار عن العمل تخلصنى من المواجهة التى تبين أنى غير قادر

عليها . لكنى كنت عاجزا عن التفكير وحدى . كنت دائما ألجأ إلى أصدقائى فى اتخاذ القرار الحاسم ، ولو كان الأمر يتعلق بأمر شخصى . مع الأخ عبدالمجيد جلست أروى قصتى مع «أبونا» لم يكن يصدق . من أين عرفوا اسمك ؟ عنوانك ؟ أهليتك للعمل ؟ أسئلة لم تجد جوابها عندى ولا عنده .

– اتكل على الله وابدأ العمل .

بعد فترة صمت :

– ... ستحل مشكلتك المعيشية . ربما مشكلتى أيضا ... كفى بؤسا ...

– ولكن ...

– لا ولكن ولا يحزنون . أنت منذ اليوم «الأستاذ» بحق وحقيق ...

وضحك ضحكته العارمة . فقد كنا نسخر من كلمة «أستاذ» تقال فى مصر لأكبر أستاذ جامعة و«للسمكرى» صلاح وابور الغاز ...

كطفل صغير بدأت درسى الأول .. نفس الشعور الذى اعترانى يوم أخذ والدى بيدى الصغيرة وهو يرتاد بى باب المدرسة لأول مرة ، اعترانى «وأبونا» يأخذ بيدى لأول مرة إلى القسم ليقدمنى أستاذا للغة العربية وآدابها . ما من شك فى أن التلاميذ أخذوا بى كما أخذت بهم .

ربما كنت المسلم الثانى - بعد عمى محمد الفراش - الذى يدرس فى هذه المدرسة وربما كان إسماعيل - أحد تلاميذ القسم الخاص - المسلم الوحيد الذى يدرس فى هذه المدرسة . ولعله رسب فى غيرها من المدارس فنقله والده إلى المدرسة القبطية ، عل الله يأخذ بيده كما يأخذ بأيدى طلبتها جميعهم . فقد كانت مدرسة ناجحة فيما خيل إلىّ من تجربتى معها . كان القسم - على غير ما سمعت وقرأت من تجربة إبراهيم المازنى عندما كان أستاذا - يضم مجموعة من الفتيان فى سن المراهقة . وكان المفروض أن السن توحى لهم بكثير من الشيطنة ومعاكسة بعضهم والتآمر على الأستاذ . ولكن يبدو أن «أبونا» يسكن فى قلب كل منهم - خوفا ورعبا و تقديسا ... وأنه حينما قدمنى إليهم ارتجل كلمة إطراء وتقدير قصد بها ، ولا شك أن يمحو عقدة ، ربما يعرف تحكمها فى الأطفال بحكم المهنتين : الرهبنة والتعليم» وهى ألا يركبهم شعور الغيرية الدينية ، فالاكثرية فى المدرسة - على غير الأكثرية فى المجتمع المصرى - أقباط ، وأن يكون أستاذ غير قبطى فى وسط مراهقين مظنة للمشاعر الخفية أن تطفح على السطح ، ولعلى ، بشعور داخلى دون أن أفكر طويلا فى الموضوع ، حاولت أن أفرض وجودى فى المادة التى أدرسها . أغلبهم يتحدثون لغة أخرى فى المنزل - إلى جانب العربية - وحتى الذين يتحدثون العربية وحدها بضاعتهم

من اللغة العربية مزجاة . كان على إذن أن أظهر فى مستوى أكبر مما قد تدفعهم الشيطنة أن يتجاوزوه .

استعملت اللغة الفصحى فى التلقين ، وحاولت أن أستدرجهم ليلحقوا . حتى الكلمات التى يعسر عليهم فهمها لضعف محصولهم القاموسى كنت أشرحها بما يقربها إلى إدراكهم بالفصحى ، ولا أستعمل الدارجة قط . وكان غيرى من أساتذة المواد الاجتماعية والعلمية لايستعملون غير الدارجة لقصورهم فى العربية ، ولأنهم تعلموا فى الكلية والمعهد باللغة الدارجة ، وهم لايستطيعون التلقين بغيرها .

كانت المواد التى أدرسها ليست سهلة بالنسبة إليهم : قواعد النحو والبلاغة والأدب والنصوص والإنشاء - وما أدراك ما الإنشاء ... - ولكن المتوسطين ، فأحرى النابغين ، يصلون إلى الإدراك والفهم . وذلك ما جعلهم يغتبطون بما يدرسون آملين فى نقط جيدة حينما يمتحنون ، آخر السنة ، مع زملائهم فى المدارس الرسمية ، ومعظم تلاميذها مسلمون مؤهلون نسبيا لإدراك دروس العربية ، غير أن الدرس العملى: الإنشاء كان يتخطى «الحفظ» إلى الممارسة ، ولذلك كنت أستعين بأن أدفعهم يقرأون كتبا صغيرة ، كتابا للمازنى أو للمنفلوطى . التجربة كانت ترهق بعضهم فلا يقدرون . وكان عليهم أن يحفظوا آيات من القرآن وأن يفهموها . وكان على أن أنتصر على العقدة التى قد تركبهم

كمتدينين بالمسيحية . غير أن اختيار آيات الحب والسلام والأمن كانت تجد سبيلا معبدة إلى قلوبهم . كانت سعادتي غامرة ، ليس لأن مسيحيا يحفظ آيات من القرآن ، فقد سمعت مكرم عبيد يستدل في مرافعاته بآيات القرآن ، وسمعت مسيحيين غيره - فارس الخوري رئيس حكومة سوريا مثلا - يتمثلون بجمل قرآنية ، ولكن لأني أدرك أن إتقان العربية يأتي من حفظ نصوص قرآنية . تلك تجربتي ، وأريدها لطلبتي .

مراقب الدروس كان عجوزا فرنسيا ، يفرض القانون واحترام التزامات المدرسة - باسم أبونا - وبنظراته الشزراء من عينين زرقاوين لم تفقدهما الشيخوخة حدة إشعاعهما ، تنطلق نظراته خلف نظارة متواضعة تقتعد أرنبته ، فوق شارب كث لم يحتفظ ببهاء لونه الأشقر أو الأبيض من شدة التدخين . ربطت بيني وبين الرجل صلة مودة وتقدير . حاول ، دون سابق حديث في الموضوع ، أن يلحقني بمدرسة فرنسية تابعة للبعثة الفرنسية فرفضت شاكرا . وظلت المودة قائمة بيننا حتى خلفه في السنة بعدها شاب مصري يعمل - إلى جانب الرقابة على الدروس مدرباً رياضيا .

أبونا كان يزور المدرسة كل يوم أو يومين . وأغلب وقته منصرف للمدرسة الابتدائية المقابلة ، ومنها يتعالى ضجيج الأطفال الصغار

وافتتانهم بالحرية كلما خرجوا من الفصول ، أو حل وقت انصرافهم . المدرسة ملحقة بالكنيسة وأبونا يزاوج بين العمل الدينى والمدرسى ، ويبدو فى ثيابه السوداء وشعره المقصوص ولحيته المهذبة ووجهه الصبوح وعينيه الذكيتين مثال الرجال الذين يعرفون كيف يبشرون بالدين ، ومن أى طريق يقنعون به . فى أعلى الكنيسة والمدرسة مسكن أبونا . ودرجه تطل على الشارع وعلى مدرستنا . ومن شباكها الواسع يعرف التلاميذ أن «أبونا» صعد إلى مقر سكناه فيأخذون حريتهم فى النشاط المحظور ، بأمر منه ، أو نزل إلى مكتبه فى المدرسة فيصادرون حريتهم تحسبا لزيارة مفاجئة . وصعد أبونا مرة - وهو يخطو الدرج بحركات سريعة ، جادة قوية ، وحينما اقترب من النافذة أقفل زجاجها الشفاف ، وخلفه مر ظل ، خيال ظل بنفس السرعة والجدية والقوة . أترى أيتبع الظل «أبونا» إلى كرسى اعتراف أو إلى درس خصوصى...؟

وعيد ميلاد «أبونا»

أبونا يحتفل كل سنة بعيد ميلاده ، ويكون يوم عطلة ليحتفل به التلاميذ . غير أن الأساتذة يتداعون إلى المدرسة ليقدموا التهانى إلى أبونا فيجلس إليهم على كأس شاى ويحدثهم بلباقته وحلو كلامه ويرفع الكلفة بينهم فلا حديث عن شؤون المدرسة ، ولكن عن الحياة والناس

والعظة الدينية . قبل أن تنتهي الجلسة يتغامز الأساتذة فينطق أكبرهم سنا - جورج عزيز كان كبير السن أعرج - :

- ألا يكرمنا أبونا في يوم عيد ميلاده .

ويفهم أبونا فيأمر خازن الكنيسة بأن يأتي بها . ويضيف : متوسطة العمر . ويحمل الرجل الهدية بين عيون الأساتذة المتطلعة وابتساماتهم المرحة : قارورة نبيذ معتقة في كهف المدرسة تقسم على كل الأساتذة ربع كأس إلا قليلا . وأمنح حظي لجاري فيشكرني جميل الشكر ، فيكون أكثرهم حيوية ونشاطا ، تنحل العقدة من لسانه . وينظر إليه الآخرون بشيء من الغيرة .

امتحان المفتش

قبل أسبوع من موعد حضوره تناهى إلينا الخبر . ناظر المدرسة أسر إلى :

- المفتش سيزورنا يوم الاثنين . سنكون ولا شك على استعداد لاستقباله بدفاتر مصححة ودروس محضرة ، وتلاميذ مدركين كل ما درسته حتى يومه ذاك .

- اطمئن يا أستاذ فالأقسام جميعها مستعدة لاستقباله متى شرف.

كان كمعظم مفتشي اللغة العربية من خريجي «دار العلوم» الذين ينتهي بهم التدريس إلى التفتيش . وغالبا ما كانوا دمثي الأخلاق

واسعى المعرفة فى اللغة العربية . هندامهم يشى بالاحترام ، طربوش أطول قليلا من المعتاد ويؤشر على مهمتهم فى التفتيش المدرسى ولذلك لايبعثون الرهبة فى نفوس الأستاذ بمقدار ما يبعثون التقدير ، ولا يوحون بأنهم سيمنحون الأستاذ نقطة ضعيفة تحول دون ترقيته . أكثرهم ممن شارف على المعاش . يشعرون حيال الأستاذ شعور الأب فيخاطبونه : يا أستاذ ، يابنى ...

هكذا كان المفتش الذى «فاجأنى» وأنا ألقى الدرس .

حييته ووقف التلاميذ احتراما ، ودعوته للجلوس مكانى . واستمر الدرس. وكان عن أصول الأدب العربى – ألقيه بلغة عربية سليمة فى تدفق وحيوية . لم تبد على رهبة من حضور المفتش ، ولا تلعثم لسانى خشية من نقطة ضعيفة . تجاوب التلاميذ معى كأنهم كانوا معرضين ، أيضا ، للتفتيش . انتهى تقديم الدرس فى الزمن المحدد ، وبقية الحصة الزمنية للمناقشة وتوضيح ما غمض . دعوت المفتش أن يناقش التلاميذ فى الدرس وما سبق من دروس . ثم أخذ يراجع بعض الدفاتر ، فلم يجد من الملاحظة إلا حرف «ط» كنت أكتبه «بنقرة» كحرف «ص» فلاحظ الخطأ ، خريجو دار العلوم كانوا يهتمون بالخط ولم يكونوا يعترفون بغزو الآلة الكاتبة ، ولم يتنبأوا بالكتابة «الاليكترونية» .

أحسنت يا أستاذ ... هكذا يكون إلقاء الدرس .. هكذا تكون لغة التدريس ... خريج كلية الآداب أنت ...؟

لم يكن خريجو دار العلوم يقدرون خريجى قسم اللغة العربية بكلية الآداب ، يعتبرونهم ضعافا فى اللغة العربية ، ولعلهم لم يكونوا يجدون من بينهم أثناء «خطة» التفتيش من يقنع بأهليته ليكون أستاذا فى مدرسة ثانوية .

– أهنئك يا أستاذ وأرجو لك مزيدا من التوفيق (التفت إلى التلاميذ) عليكم أن تجدوا وتجتهدوا . معكم أستاذ ممتاز كونوا على قدر امتيازة

حينما ودعته بباب مكتب الناظر شد على يدى مشجعا وهو يرجو لى مستقبلا حسنا .

وجدت ارتساماته الجيدة عند الناظر الذى أكد لى أن المفتش كان مرتاحا جدا : اعتبر ذلك نقطة جيدة فى دفتره . أليس ناظر المدرسة الممتازة الذى يختار أساتذة ممتازين ؟

بعد أسابيع قليلة تلقيت رسالة مفاجئة من «وزارة المعارف» لا صلة لى بوزارة المعارف . المدرسة التى أعمل فيها مدرسة حرة خاضعة للتعليم القبطى الخاص . صلتها بوزارة المعارف صلة التزام بالبرنامج الوطنى ، حتى يمكنها الاعتراف بشهادتها . ترى : أهو تقرير عن التفتيش – الامتحان الذى خضعت له ؟

ترقية إلى مدرسة رأس التين

فتحت الرسالة وفى نفسى من الحيرة ما كان فيها يوم تلقيت الرسالة الأولى من أبونا .

– قررت وزارة المعارف ترقيتك وتعيينك فى مدرسة رأس التين الثانوية بالإسكندرية .

ترقية وتعيين فى السلك العمومى . ذلك كان أمل كل أساتذة المدرسة. يتحدثون عنه فى مناقشاتهم وعندما يعبرون عن طموحهم . فوجئت بغير طموح ولا طلب . لست مصريا حتى أصبح موظفا رسميا، وفى مدرسة يشار إليها بالاعتزاز ، كما يشار إلى المدرسة السعيدية فى الجيزة ، ولم أطلب من وزارة المعارف تعيينا ولا ترقية . ولا أنوى ربط حياتى بالتعليم ، اجتر الدروس وأصحح الدفاتر ، ويثور دمى مع كل تلميذ أو بليد . الإسكندرية مدينة يطمح للحياة فيها كل قاهرى ، أما إذا كان من مدينة فاس فلعله كان يبتهل لزيارتها. أما السكنى والعمل فيها فذلك من مثل الفارابى .

سرى الخبر من «أبونا» – الذى تلقى نسخة من القرار الوزارى – إلى ناظر المدرسة وأساتذتها . كلهم كانوا يهنئون في شىء من الغيرة الكاشفة ، والأمل يرجونه باسماً لهم .

ما من شك في أن بعض العجب أدركني ، وأني شعرت بتعويض عن كثير من الرغبات الذاتية التي لم استطع تحقيقها في حياتي الخاصة ، وبعض الفشل العاطفي الذي لحقني فكاد يدمر حياتي . ولكني كنت مأخوذا بالعمل السياسي في «مكتب المغرب العربي» الذي أخصص فترة ما بعد الظهر ويوم العطلة الأسبوعية والعطل المدرسية ، مأخوذا برغبتي الداخلية في ألا أربط حياتي بالتعليم ، مأخوذا بالعودة إلى المغرب . إحدى عشرة سنة متصلة في غير انقطاع كانت كافية لتجعل من الشوق حنينا ، ومن الحنين لهفة . أحببت مصر ، قضيت فيها زهرة شبابي حتى أصبحت لا أتصور أن أعيش في غيرها كما لو كنت مصريا – من قدمائهم – الذين لايكادون يبتعدون عن الوادي إلا شعروا بجاذبيتهم إلى ضفاف نيله . ومع ذلك هناك في النفس ما يرغبني في البعاد المكاني بعد العاطفي والإنساني .

هكذا قررت أن أعتذر لوزارة المعارف عن عدم قبول الترقية والنقل إلى الإسكندرية . اتخذت قراري بين استغراب الذين أخبرتهم به من الزملاء – قال لي أحدهم :

امنح نصف حياتي لمثل حظك ، وتزهد فيه ...؟

والأصدقاء الذين وجدوا في المنصب تقديرا رسميا من وزارة مصرية لأستاذ مغربي .

اعتذرت لا زهدا في مزيد من الحياة بمصر ، ولكن تلبية لمزيد من الحنين إلى المغرب .

وانتهت السنة المدرسية باستقالتى من العمل فى المدرسة القبطية . بقيت منها حية فى الذاكرة شخصية أبونا . كان رجل دين وعمل . لاتزال عيناه الطافحتان بالذكاء اللامعتان بالجمال ترسبان فى أعماق الذاكرة الوفية . وبقيت من المدرسة فى الذاكرة مجموعة من الفتيان كانوا يطفحون بالحيوية والنشاط والاجتهاد والأدب اللائق من تلاميذ مدرسة تحرص على التربية الى جانب التعليم . أحبوا اللغة العربية وأدابها كما أحبونى كأستاذ للمادة . عاملتهم بكامل الاحترام والود . ودعتهم آسفا . قابلت أحدهم يعمل فى مكتب شركة تأمين . وحاول بحذق أن يقنعنى بالتأمين على حياتى .

أستاذ فى بلاد الأساتيذ تجربة لم تقنعنى بالأستاذية ، فمنحتنى تجربة حياتية .

مصر .. وداعا

أحببت مصر وعشت فيها أزهر أيام شبابى

عشت هذه الفترة بمصر في بداياتها العميقة بكل وعيي . كنت بعيدًا عن السياسة الداخلية فى مصر تنقصنى - ككل أبناء الشعب المصرى - بعض خلفيات الأحداث وأسرارها ، ولكنى كنت أعيش فى عمقها ، ولو من بعيد . كنت بمشاعرى مع مصر ، كما لم ألحظ ذلك - فى عمقه - عند كثير من الأصدقاء والزملاء الذين ربطت صلتى بهم الكلية ، وأصبحوا بعد ذلك من الذين يدرجون الى حقل العالم الثقافى . وكثير من المثقفين فى مصر - شعراء وكتاب وأساتذة - كانوا يبتعدون بأنفسهم عن السياسة ، ولو أن عهد الطلب كان يربط بعضهم بالاتجْاهات السياسية التى سرعان ما يتخلفون عنها حينما يلتحقون بعمل ما . وأحسب أنى كنت سياسيا أتعلم الأدب فى الجامعة ، حتى إذا تخرجت منها نما فى تكوينى العمل السياسى ، وإن لم يخب العمل الثقافى . وفى مصر وجدت الجو مشبعا بالتحرك السياسى . وكان اهتزاز السفينة باعثا على الفضول السياسى مستجيبا للرغبة التى كانت تضج بين جنباتى .

لذلك كان تفكيرى في العودة الى المغرب مأساويا بالنسبة لى ، لأن مصر أصبحت جزءا من كياني . كنت أذكر دائما كلمات زميلى أنور المعداوى – ونحن طلاب فى الكلية :

– لا أستغرب لشىء قدر استغرابى لهجرتك من بلادك هذه المدة الطويلة . أنا آتى الى القاهرة من قريتى بالقرب من رشيد مكرها . ويبطىء على الزمن وأنا أتشوق الى العودة فى كل عطلة جامعية أما أنت... ؟

أذكر هذه الكلمات وأنا أفكر كيف استطعت أن أتصور الحياة فى غير مصر ولو بالعودة للوطن الأم .

ومع ذلك أجد أشياء كثيرة تستلنى من محيط لتدفع فى مغامرة ، دونها المغامرة التي قمت بها قبل إحدى عشرة سنة وبضعة أشهر .

حينما اخترت مصر للدراسة فى جامعتها كانت لى صلة قوية هى نفس الصلة التى ربطتها بكل المثقفين والعلماء والمتعشقين للتاريخ العربى الاسلامى فى أبعاده المتجذرة منذ توت عنخ آمون حتى قلعة محمد على ، أصوات الكهان وهم يصلون حول النيل هاتفين : آمون رع، حتى صوت أم كلثوم وهى تشدو : مصر التى فى خاطرى . اخترت مصر وشوقى وطه حسين وتوفيق الحكيم وعلى محمود طه .. وحينما تدعونى الظروف لأترك مصر تدعونى أن أودع أزهى فترات شبابى ،

عرف فيها فكرى الحركة والتطور والانفعال .... عرف فيها قلبى الحب فى أروع صوره المثالية ، تعبد الجمال فى أبهى صورة ، وأحس لذعات الحرمان والخيبة فى طهر التعفف والكبرياء ... عرفت فيها الجامعة والمكتبة ودار الأوبرا والمسرح والنادى ... استمعت الى الخطباء والمحاضرين والشعراء ، وعايشت الكتاب والفنانين والأدباء والسياسيين... كانت لى جلسات مع أروع أصوات أنجبتها مصر : أم كلثوم ، اسمهان ، عبد الوهاب ، فريد الأطرش ، الشيخ زكريا أحمد والشيخ رفعت والشيخ الحصرى ... استمتعت فيها بفن جورج أبيض فى أروع المآسى اليونانية ، ونجيب الريحانى فى أجمل مهازل العصر قدمت على مسرح ... تهت مع النيل فى مسيرته الأبدية ، وفى أجمل لقاء مع القمر الذى لا يزهو فى صفاء سماء كما يزهو فى سماء القاهرة . حدثنى النيل بالكثير ، حكى لى عن الذين واساهم فى مآسيهم وأحزانهم ، عن الذين وجدوا فى جواره الحنان والعطف ، الذين بادلهم حبا بحب ، الذين أفضوا إليه بأسرارهم وبشدة لواعجهم ، فأفضى إليهم بأسرار الحياة وآتاهم الحكمة ليعرفوا بها الحياة كما هى، لاكما يريدونها أن تكون . بجواره قضيت ساعات ، أنا والليل والوحدة والهدوء والقمر . أعاد إلى السعادة التى سعيت إليها فافتقدتها، أضاء روحى باليقين . أرشدنى الى طريق الأمل . صخب فى وجهى كلما ازددت عنادا ، ابتسم فى وجهى كلما سكنت إلى رقراقه . كان معلمى ،

صديقى ، سميرى ، وجدت فيه دوائى . بحت له بكل أسرارى ليحتفظ بها كما احتفظ بأجمل عرائس مصر وهن يرقدن بين أحضانه ليقدم لشعب مصر الخير والعطاء والكفاف . آمنت بوفائه فكان لى وفيا ، تقت الى عطائه فمنحنى الكثير . تعلمت منه القوة والعزم والصبر والطموح . كان نعم المعلم ، نعم الصديق ، نعم السمير ...

ترى يا نيل مصر أما تزال تذكرنى كما أذكرك على بعد فى الزمان والمكان وصراع الأيام والحدثان ؟ ملايين غيرى وجدوا فى جوارك الشفاء والاطمئنان والبلسم والدواء . بعضهم رحبت بهم فناموا بين أحضان ثبجك . كان ذلك شفاءهم . لم أختر طريقهم . اخترت أن أحاورك فكنت مقنعا ، وكان حديثك بلسما لروحى المعذبة – كنت مدينا لك حتى الآن بعودة الروح وشفاء النفس واطمئنان القلب .

لا أكتمك مع ذلك أنى لا أزال أذكر .

صممت على أن أترك مصر ، وأنا مؤمن بأنى أديت مهمتى فى فترة مزدهرة من شبابى ، كما لم يكن لى أن أؤديها فى غير مصر . عطاء مصر كثير ، تعطيك أكثر مما تعطيها تمنحك الكثير مما لن تجده فى غيرها . والذين أحبوها فبنوا فيها حضارة تعتبر حتى الآن من أعظم الحضارات الإنسانية ، لم يكن فى مقدورهم أن يبنوها فى غير مصر . هى الأرض والماء والسماء التى ألهمت حب الجمال وتعشق الفن وبناء المعابد والأهرام والحضارات . مصر طاقة أكثر من طاقة الانسان . وما كان لإنسان فى غير مصر أن يصنع ما صنعه فى مصر .

هذه هى «المصر» التى قررت أخيرا أن أودعها لأعود إلى البلاد التى منحتنى هذا الإحساس بعظمة الديار . فلولا بلادى لما منحت القدرة على الحب والتعلق وإدراك القيم ، وحب الطبيعة وتعشق جمال الجبال والسهول والوديان والأنهار ، والتعلق بالإنسان . اعتبر نفسى سعيدا وقد عشت حياتى بين وطنين قدما لى أكثر مما قدمت لهما اقتسما حبى وهيامى بالأرض والماء والسماء والإنسان . لست موزعا بينهما . قلبى كبير وسعهما ولا يزال يخفق بحبهما . ضرتان متعانقتان بين أحضانه ، وأنا أظفر سعادة بين حبيبتين وسعهما قلبى ولم تضيقا بكل حبى : مصر والمغرب .

الفهرس

رقم الايداع
٢٠٠٠/١٧٠٣
I.S.B.N
977-07-0704-X

هذا الكتـــاب

هذا الكتاب إضافة جديدة للمكتبة العربية، وتحفة أدبية رائعة، وسجل حافل بالمشاهد والذكريات الصادقة، قصيدة حب للقاهرة، التى احتلت مكانها فى القلب والفكر.. القاهرة بتراثها الحضارى والعلمى والإنسانى.

من خلال هذا الكتاب سنستمتع بحكايات قاهرية تفوح بعبق التاريخ.. يصوغها الكاتب المتميز والمفكر والأديب والوزير المغربى عبدالكريم غلاب.. عضو أكاديمية المملكة المغربية، وأحد الذين جاهدوا فى معركة الحرية والاستقلال ضد المستعمر الفرنسى.. وأحد المثقفين البارزين فى العالم العربى.

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا هو أحدث مؤلفاته عن القاهرة التى عرفها قبل أن يراها من خلال أساتذة كبار قرأ لهم، كتاباتهم اختزنت بوعيه الثقافى، فتزود من علمهم، وتمتع بأسلوبهم فيقول:

التاريخ الإنسانى فيما قرأنا يبدأ من مصر.. وتاريخ مصر يبدأ من الفراعنة.. وتاريخ الفراعنة يختفى منه الحكم والسلطة والديانة وفلسفة الحياة والموت وعبادة آمون، وتوحيد اخناتون وجمال الآلهات أو زوجات الآلهة الفاتنات وغرائب النيل، يتجمع كله عند الذاكرة القارئة فى الأهرام الثلاثة وتاريخ القاهرة النضالى والشعب فيها يواجه الحملة الفرنسية.. وتذكر الذاكرة أسماء رجال كما تذكر أسماء مواقع ومعالم.. ونبحث فى عمق الذاكرة القارئة، عن قلب القاهرة فنجد الأزهر الذى أنار الحضارة الفكرية الإسلامية وحافظ على الإسلام.. وتطفو إلى الذاكرة القلعة ودار الأوبرا.. دار الكتب.. المتحف المصرى والإسلامى.. ومساجد مصر العظيمة.. ثم الجامعة أعظم معلمة للعلم والثقافة.

ولاتذكر القاهرة دون أن تذكر بناية البرلمان بقبته السامقة، وماكان يدور فيها من مناقشات ساخنة وخطب الخطباء التى كانت بلاغتها تتفوق على مضامينها.

هكذا تعرفت على القاهرة من بعيد، فكانت كل هذه المعالم، تزيد شوقى إليها حمية وحماسا لأعانق كل هذه المعالم ، لأجوس خلال زقاقاتها وشوارعها لأنعم بعظمتها وجمالها.

وليلة دخلت القاهرة حسبتنى عانقت كل هذا التراث الضخم.. حسبتنى أسبح فى هذا الفضاء الذى يبدأ من عهد الأهرام ليقف عند باب الجامعة.